فاليري مارتن

العصيان

الرواية الحائزة على جائزة أورانج للأدب النسائي

ترجمة: حسام خضور

فاليري مارتن

العصيان

فاليري مارتن

الكتابة ــ التي تستحق جائزة والمفعمة بالحياة والحسنة المظهر ــ شيء يثير العجب.

توني موريسون

العصيان رواية فاليري مارتن القوية ــ المروعة. تدور أحداثها في عمق الجنوب الأمريكي في مطلع القرن التاسع عشر. وهي قصة الحرية السياسية والشخصية.

مانُن غوديت، تتزوج زواجاً غير سعيد من صاحب مزرعة سكر في ولاية لويزيانا. تفقد عائلتها وتتوق إلى نمط حياة موطنها في نيو أورليانز نابضة بالحياة، ومع هذا فما تتوق إليه هو حريتها أكثر من وضعها البيتي الخانق. والتوتر يدور حول سارة، وهي أَمَة فتية تُقدَّم هدية لِــ مانُن بمناسبة زواجها من خالتها، والتي ابنها، والتر، برهان حي على المكان الذي تكمن فيه رغبة زوجها. وهذه الدراما الشخصية تعمل في جو منذر بالشر من اضطراب العبيد التمرد الدامي. وإذا بلغت الهجمات بيت مانُن فلا أحد يمكنه أن يتكهن بما ستفعله سارة...

العصيان، الرواية المكتوبة بجمالية متميزة، تحكي بشكل مركب قصة أفراد وبلد في زمن التغيير، حيث الملكية هي كل شيء ولا شيء في آنٍ معاً، وحيث الانتماء للبيت في المقابل هو كل شيء.

رواية رائعة، مفعمة بالحياة والبوح ــ كارول شيلدز

الرواية الفائزة بجائزة أورانج البريطانية للأدب النسائي

دار السوسن
سورية - دمشق - المزة
www.daralsawsan.net

Sample

♦ عنوان الكتاب: العصيـــان
♦ تأليـــــف: فاليري مارتن
♦ ترجمـــــة: حسام الدين خضور
♦ الطبعـــة الأولى: ٢٠٠٧

الناشر: دار السوسن
ص.ب: ٩٠٦٣ - دمشق
تليفاكس: ٦٦١٩٩١١ جوال: ٠٩٣٢ - ٦٢٥٠٥٠
alsawsan@mail.sy

توزيع: دار الحصاد – دمشق
تليفاكس: ٢١٢٦٣٢٦

جميع الحقوق محفوظة

يمنع منعاً باتاً نشر او طباعة أي جزء من الكتاب أو كله، ورقياً أو الكترونياً، دون إذن خطي من الدار، تحت طائلة المساءلة القانونية والقضائية.

العصيـــان

«رواية»

فاليري مارتن

ترجمة

حسام الدين خضور

فاليري مارتن مؤلفة مجموعتي قصص قصيرة وست روايات، منها **الحمى الإيطالية**، **والطلاق العظيم**، **وماري ريلي**.

آخر أعمالها غير قصصي عن حياة القديس فرانسيس الأسيسي بعنوان: **الخلاص: مشاهد من حياة القديس فرانسيس**.

تقيم الآن في نيويورك.

العصيان

هو العنوان الذي أعطيته لهذه الرواية التي قدمتها كاتبتها الروائية فاليري مارتن بعنوان **مزرعة**. ربما ليس حقي أن أعطي عنواناً لعمل سماه كاتبه، فهذا انتهاك لحق الكاتب وربما كان ذلك مفهوماً. لكنني انتهكت مبدءاً من مبادئي في الترجمة أيضاً، فأنا أدعو إلى الأمانة بنقل عمل الآخر شكلاً ومضموناً، ومعلوم أن العنوان جزء أساسي في أي عمل. ولهذا وددت أن أعتذر من القارئ، ومن الكاتبة إذا تناهى إليها أنني غيَّرت عنوان عملها في الترجمة العربية. وحسبي أن العصيان جزء لا يتجزأ من الحياة التي تعكسها هذه الرواية بعين كاتبتها، التي ليست عيناً عادية مجردة أبداً، بل عين خالق ترى أبعد، أوسع، أعمق. وهي بالإضافة إلى ذلك عين تحتقن ولا تحتقن، ترف ولا ترف، تدمع ولا تدمع. وبهذه العين التي ترى وتغض الطرف أحياناً، تمتعنا فاليري مارتن بتقديم حياة بطلتها، أو شخصيات روايتها في إطار الريف الأمريكي الجنوبي، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، هذا الريف الذي كانت العبودية قوة فاعلة فيه... تبني وتدمر، تستكين وتتمرد وتنهزم. ولكن عبر الهزيمة نرى بعض البلد يرفض العبودية، وبقيادة أبراهام لنكولن سيلغيها... رغم أن الأمر سيتطلب نحو قرن لإلغاء الفصل

العنصري قانونياً. وبروز زعامة شعبية تمثلت بالقائد الأمريكي مارتن لوثر كينغ الابن، الذي أعطى الحلم الأمريكي بعداً جديداً، جعل التمييز العنصري شيئاً من الماضي، الذي ربما لم تتنبأ كل تلاوينه بعد.

ما أجمل أن نرى الحياة بريشة فنان، ونقرأ سيرورتها بقلم روائي، عندئذ لا تكون ذكرى، بل قراءة لخط بياني يمثل محطات الحرية الإنسانية شرقاً وغرباً.

حسام الدين خضور

القسم الأول

حياة مزرعة
١٨٣٨

مشهد لا ينتهي. راقبتُه عبر المنظار لأعرف ما اللعبة. كان هناك خمسة صبية. جمعهم عند حافة النهر وهم منفعلون. من لم يمارس هذه اللعبة فقد سمع عنها. يقرأ لهم أولاً شيئاً من الإنجيل، لم يكن ممكناً أن أسمع لأعرف أي مقطع قرأ، ثم أمرهم أن يتعروا، لم يأخذ ذلك وقتاً ما داموا لا يلبسون غير سراويل من الكتان. كان على كل منهم أن يمسك بالحبل المشدود واحداً بعد آخر، يتأرجح فوق الماء ويسقط فيه. كان الجو حاراً جداً، والماء البارد خلاصاً، وهكذا كانوا يعملون منه الشيء الأفضل لهم.كان يشجعهم على الصياح وضرب أحدهم الآخر حالما يسقطون في الماء. ثم يأمرهم بالخروج وتكرار ذلك مشى مشى هذه المرة، يعني أن على الأول أن يتعلق وينتظر آخر.كانوا قد لعبوا طويلاً عندما شاهدتهم.

كان هناك صبيّان يشدان الحبل، يتشبث الأول به ويشده الآخر إلى كتفيه، يضحكان لأن الحبل ينزلق عليهما، فقد جعلت الشمس جسديهما يتلألآن ويتبخران مثل كشحي حصان بعد جري طويل. ركض صبيان كانا على الأرض أسفل الضفة واختفيا عن أنظاري، وعالياً فوق الماء، أفلتا الحبل وارتطما بسطح الماء الصقيل

مثل أوزتين سوداوين جريحتين.لم يراقبهما.كان يختار الاثنين التاليين، يقود واحداً ليمسك الحبل في طريق عودته، ويضرب كتفي آخر بيده الأخرى، فينكمش الصبي خوفاً ويحدق في الأرض.لم أستطع أن أتفرج أكثر.

كان يجبرهم على الاستمرار، ويرغب بأن تظهر له أجسادهم الصغيرة الفتية في أوضاع مختلفة، فيراقبهم عن كثب وهم يكررون تلك الحركات ثلاث أو أربع مرات في اللعبة الواحدة. يحتكّ كل منهم بالآخر، لا يستطيعون مقاومة ذلك. تتداخل أوصالهم، ويصارعون للتعلق، ولا يمضي وقت طويل حتى يخرج أحدهم من الماء وعضوه منتصب، وذلك هدف اللعبة. يحاول هذا الصبي أن يبقى في الماء، وينكس رأسه بينما يخرج وينكر بأية فكرة تخطر له ليقلص انتصابه. ويقول هو هذا دليل على أنهم بهيميون ولا يملكون قوة العقل، فالأبيض لا ينتصب عضوه لأنه يعرف أنه سيُضرَب بسبب ذلك.

كانت لديه عصاه هناك جانب الشجرة، التي لا يبتعد عنها أبداً، والتي ما إن يرفعها حتى يقع الأولاد في الصمت. ويصرخ الصبي المذنب أحياناً أو يحاول الهرب، فهو ليس نداً لهذا الرجل البالغ ومعه عصاه، ويتقلص انتصابه حالما ينهض السيد، الذي يلاحقه حتى يصل إلى الحي. وإذا استطاع أن يجد أمه، وكانت جميلة، سيجعلها تدفع غالياً لتربيتها ولداً غير طبيعي.

هذه مجرد لعبة من ألعاب أخرى كثيرة، يعود بعدها إلى البيت ويكون في مزاج جيد لبقية اليوم.

كنت غالباً ما أسمع لازمة لا أريد أن أصدقها، لكنها لا تبرح رأسي، عندما أنظر في المنظار، تقول: *هذا زوجي، هذا زوجي.*

❖❖ ❖❖ ❖❖

كان في غضب شديد هذا الصباح لأن السيد سَتَرْ وصل إلى مازق مع أحد الزنوج فأمر بجلده وسيمر أسبوع قبل أن يستطيع العمل ثانية. هم يقطعون الخشب في وريدات هذه الأونة، ولا توجد أيدٍ يمكن الاستغناء عنها، أو هكذا أقنع زوجي نفسه. فالزنجي، ليو، هو العامل الأقوى عندنا، ولم تكن لديه مشكلة أبداً إلى أن قرر سَتَرْ أنه وقح. وحقيقة شكوى ستر، كما يقول زوجي، هي أن ليو صادق امرأة يريدها ستر. كان عليّ أن أصغي إلى كل ذلك عند الإفطار. وقد جدَّف وأعلن أنه سيقتل سَتَر، ثم أعاد الطعام قائلاً إنه بارد. خرجت سارة بالطبق. واستوى هو في كرسيه ووضع يده فوق عينيه، وقال: "أنها تسممني."

غير أنه تظاهر باللطف عندما عادت، وسألها: "هل والتر في البيت؟" وأضاف: "دعيه يأتِ إليّ."

وهكذا أخذ ابن الحرام الصغير بعدئذ يذرع حجرة الطعام جيئة وذهاباً، ويضع أصابعه القذرة في أطباق الطعام، ويأكل قطع اللحم من يد أبيه مثل كلب. اتكأت سارة على البوفيه وأخذت تراقبه، لكنها لم تبدُ أنها مستمتعة بالمشهد أكثر مني. هذا الطفل مخلوق أرعن مثل قطة صغيرة برية جميلة متوحشة. لن يدهشني أن أراه ينشب مخالبه في الستائر. له شعر أبيه الأحمر الجعد وعيناه

الخضراوان، وبشرة أمه الذهبية وشفتاها المبوزتان الممتلئتان. يتكلم لغة غير مفهومة حتى سارة لا تفهمها. يشغف به أبوه ليضع دقائق من حين إلى آخر، لكنه سرعان ما يتعب منه ويرسله إلى المطبخ، حيث يعيش تحت الطاولة، يعذب جرواً كانت دلفين حمقاء كفاية لتعطيه إياه. وحالما ذهب الصبي، عاد باهتمامه إلى سارة، وقال: "اذهبي، شوفي حال ليو، وبلغيني في المكتب عندما تعودين."

آومأت سارة برأسها، وأطرقت إلى الأرض، ودفع هو كرسيه إلى الوراء، وخرج دون أن يكلمني.

وإذ ذهب، قلت لـ سارة وأنا أراقب وجهها: "يظن أنك تسممينه،" فومض شيء ما عند زاوية فمها. هل الأمر يثير الضحك؟ وأردفتُ: "أريد مزيداً من القهوة."

❖❖ ❖❖ ❖❖

تظاهرت بأن لديّ بعض العمل لسارة، واحتفظت بها في غرفتي كل الصباح مع الطفلة التي سمتها نِل، وهي شيء أسود بشع، لكنه هادئ كفاية. يكره زوجي رؤيتها، فهي شديدة السواد لتكون ابنته، أو هكذا يفكر، مع أن أشياء أغرب قد حدثت، فكل امرئ يعلم أن نقطة من دم زنجي تطغى أحياناً مثل محبرة في طفل لوالدين ينتقلان إلى اللون الأبيض، الأمر الذي يسبب الهلع للزوجين وأطفالهما البيض أيضاً. وقد أقنعت سارة زوجي بطريقة ما، بالدموع والتوسل، لا أشك في ذلك، بأن يدعها تحتفظ بالطفلة في البيت حتى تُفطَم. فاحتفظت بها أولاً في المطبخ، حيث كانت تضطر

إلى النزول والصعود عشرات المرات كل يوم، وقد أغاظه ذلك كثيراً وطلب مني أن أفعل شيئاً. فأبلغت سارة أن تجلب علبة من الحي وتضعها في زاوية غرفتي، وقد أكسبني ذلك واحدة من نظراتها الصريحة المباشرة التي عَنَتْ لي أنها مسرورة.

كان الجو حاراً جداً ذلك اليوم، فطلبت منها أن تُسلِّم لي بالمروحة، وهكذا جلسنا هناك، أنا مع عمل إبرتي الدائم، وهي تحرك المروحة بانتظام، والطفلة نائمة في علبتها، التي جهَّزتها سارة بفراش حشته بأوراق اللبلاب والطحالب وغطته بلحاف صنعته من المزق البالية، ولفّت فوقه قضيباً من الزيزفون ووضعت فوقه شبكة ضد البعوض. "هل هي أميرة؟" قلت عندما رأيت هذه الأداة الغريبة. فردت سارة: "إذا لم تكن متحسسة فلن تبكي،" كان ذلك ـ يجب أن أعترف ـ تأكيداً منطقياً. إنه أحد الأشياء المزعجة لديها؛ ففي المناسبات التي تضطر فيها للحديث، تقول شيئاً ذا معنى.

بكت الطفلة بعد قليل بصوت خافت. فأخرجتها سارة لترضعها، حملتها بيد وحركت المروحة بالأخرى. دفعت كرسيها إلى الخلف فلم أستطع أن أرى ما يجري، لكنني كنت أسمع صوت حفيفها ونخيرها ومواءها من وقت إلى آخر مثل قطة صغيرة. لا أفهم لماذا هي مصرة على إرضاع هذه المخلوقة ما دامت ستُفطَم إلى الحي عندما تُفطَم، وتُباع عندما تغدو قادرة على العمل. لن يكسب بها كثيراً، فليس بيع الفتيات السوداوات البشعات سهلاً. وسيتدرون به إذا اضطر إلى تحريرها.

ثم تفاقم مللي وحاولت أن أتحدث إليها، رغم أنه مشروع

ميئوس منه، فسألتها: "هل ذهبت للعناية بـ ليو؟"
- "لقد فعلت،" أجابت.
- "هل حاله سيئة؟"
- "سيعيش."
- "من الذي جلده؟"
- "لا أعرف."
يا لها من محادثة طويلة معها!

❖ ❖ ❖

جاء متجهماً وقت الغداء. فقد وصلت مكابس السكر الجديدة، وأمضى الصباح يحاول تركيبها وجرح يده جرحاً بليغاً في العملية. إنه خطأ ستر لأنه لم يستطع استخدام ليو، الذي لديه خبرة أفضل من الجميع بعمل المعصرة في هذا المكان. وقد اضطر إلى الاستعانة بغلامين من الحقل لا يعرفان يمينيهما من يساريهما، ولا يستطيعان رفع بنطاليهما. وقال، إذا أراد ستر أن يجلد الزنوج إلى حد الموت فليختر عديمي النفع مثل هذين الولدين وليس الزنجي المفيد الوحيد في هذا المكان.

عندما جلبت سارة البطاطا تناول ملعقة من الزبدية مباشرة وبصقها في صحنه، وصرخ: "أليس لدينا طبق ساخن في هذا البيت!" فرفعت سارة الزبدية، وأبعدت الصحن، وتوجهت إلى الباب. مسح فمه بمحرمته، ورشف نصف كأس نبيذ، وقال: "أقسم أنها جلبتها من الثلاجة."

نظرتُ إليه بلا اكتراث لعدة لحظات، دون تعليق، كما لو أنه يتكلم لغة أجنبية. هذا يهدئ أعصابه. إنها حيلة تعلمتها من سارة. فقال: "سيدة مانُن، ما دام لا يوجد خدم في الوقت الحاضر، فسأعتمد عليك في تقديم بعض اللحم لي."

نهضت، ذهبت إلى البوفيه، ووضعت عدة شرائح روستو في صحن، ووضعته أمامه، فهجم عليه مثل رجل يتضور. عادت سارة تحمل زبدية ملفوفة بقطعة قماش انبعثت منها نفثة بخار حينما فتحتها. فعبَّر عن استحسانه بصوت ضعيف وهو يضع بعضاً منها في صحنه.

عدت إلى مكاني غير أنني لم أستطع أن أجلس. قلت: "لديّ صداع، سأتناول عشائي لاحقاً في غرفتي." طأطأ رأسه، ثم قال وأنا أغادر: "أريد أن أتحدث إليك قبل العشاء في مكتبي."

سألته: "هل الساعة الرابعة مناسبة؟"

فأجاب وفمه مليء بالطعام: "أجل."

❖ ❖ ❖

يشعر بالتفوق وأنه مختلف عن جيرانه، مع أن مكتبه يبدو مثل مكاتب جميع المزارعين في الولاية بالضبط: سجادة جيدة، مقعد جلدي، أعمال خشبية لأحصنة سباق، والكتاب المقدس ذو الشريط الملون، الذي لا يتحرك أبداً عن طاولة المكتب، المستخدَم كثقالة ورقية، وحجرة معبأة بالخمور. جعلته ينتظر ربع ساعة لأغيظه. كان منكباً على دفاتر حساباته عندما دخلت، يجمع قوائم طويلة من

المؤن وغيرها من قروض. ودون أن ينظر إليّ، أطلق ملاحظة: "أحدهم يسرق الذرة."

فسألته: "هل أنت متأكد من أنه لا توجد أخطاء في أرقامك؟"

تطلّع إليّ، وأومأ إلى كرسي وقال: "هل ستجلسين؟ أدهشتني كثيراً لهجته المهذبة، وشغلت نفسي بضبط تنورتي حتى أحمله على الإفصاح عن دافع دعوته.

شرع: "هرب ثلاثة من زنوج جويل بوردن يوم الأحد، وسطا أحدهم على مخزن تعليب دبلانتير ليلة البارحة. شاهده الخادم وقرع جرس الإنذار، لكنهم لم يمسكوا به. يقول دبلانتير إنه يحمل بندقية، لا أحد يعرف من أين حصل عليها، فبوردن لم يفقد أياً من بنادقه."

قلت: "فهمت."

"وهكذا هم قادمون عبر هذا الطريق."

"أجل،" وافقت.

"قد يحاولون عبور الأراضي المنخفضة إلى المرسى. سأشارك في مطاردتهم هذه الليلة. لديّ حارسان أثق بهما. سيطوفان حول المكان طوال الليل، وسأوصد أبواب المنزل وأضع الكلاب في المطبخ."

"دلفين تخاف من الكلاب."

"حسن، يجب أن تكون خائفة،" قال بانفعال، وأردف، "ستخاف أكثر إذا دخل أحد هؤلاء الزنوج عبر النافذة ومعه بندقية."

"ذلك صحيح،" قلت.

"أريد أن تبقي أنت وسارة في غرفتك، وتغلقا الباب، ولا تخرجا

لأي شيء حتى أعود."

أطرقت إلى الأرض وقلت: "أليس أفضل لسارة أن تبقى في المطبخ مع دلفين؟"

"لا تقلقي على دلفين. سيكون الترو وروز معها."

والترو طفل أحمق وروز فتاة رعناء. لا فائدة منهما في أزمة. "وسارة ستكون أكثر أماناً معي،" عقبت.

"ستكونان أكثر أمانا معا،" صححني مقطباً من عدم احترامي له، ثم أخذ يغير الموضوع بحذر. "إنه خطأ بوردن بالكامل. لا يقدم لزنوجه نصف الطعام المفترض، والمُراقِب الذي يدير أعماله هو الأكثر خسّة على وجه الأرض. ربما كان اللحم الذي أخذوه من دبلانتير هو الطعام اللائق الذي حصلوا عليه طوال عام."

"هل جويل هنا أم في المدينة؟"

"لقد أسرع بالمجيء عندما سمع بالأمر. والآن يقول بلهجة متذمرة إنه سيخسر ألفي دولار إذا قتلناهم. لا أحد في الدورية سيجازف بحياته لإنقاذ أحد هؤلاء الآبقين عليهم اللعنة. إذا وجدناهم سيكون أفضل لهم أن يُقتلوا من إعادتهم إلى مُراقِب بوردن، ولا أشك أنهم يعلمون ذلك."

"إذن لا بد أنهم مُحبَطون."

نظر إليّ طويلاً متحرياً أية سخرية في هذه الملاحظة. وقد كان جلياً أنه لم يلحظ أي شيء وانتقل بعد أن تحرى مزاجي إلى مظهري، حيث وجد سبباً للشك بالإسراف، فسألني: "هل هذا ثوب جديد؟"

Sample

أجبت: "لا. لقد أعدت زركشته ببعض الأشياء التي أرسلتها خالتي ليليا."

طالعتني عيناه ملياً بطريقة متطفلة وجدتها قلقة للغاية، وانتهى إلى القول: "غيرت الياقة."

لم يستطع تحمل أن يُنظَر إليه كشخص غير دقيق الملاحظة. قلت: "أجل، لقد تغيرت الموضة."

- "أتساءل كيف تعرفين ذلك في حين علاقاتك الاجتماعية محدودة جداً."

- "نسختها من جريدة أرسلتها خالتي مع الزركشة."

- "إنها تناسبك تماماً."

كان ثمة زمن تأثرت فيه بإطرائه، لكنه مضى منذ عهد بعيد، كلانا يعرف ذلك. مع أنه لا يزال يعمل على إثارة بعض الشعور لديّ حول ما يظنه نكراني لجميله. وقال: "سيدة مانن، أنا آسف لإزعاجك بالإشارة إلى مظهرك، يمكنك الذهاب إذا لم يكن لديك ما تناقشينه معي."

نهضت وأنا أتساءل، أي شيء يمكن أن يكون ذلك؟ ربما اهتم بأن يلقي نظرة على حساباتي: شكاويَّ من جهة، وحلولي من جهة أخرى، إن كانت كلها متوازنة تماماً. سمحت لعينيَّ أن تستقرا على وجهه. فرفع يده إلى شاربه وأخذ يصقل أحد طرفيه - حركة انفعالية من حركاته - وهو الطرف الأيمن دائماً، لم أشاهده يصقل الأيسر قط. جسأ عمودي الفقري من النظر إليه، لقد شعرت بيباسه واستطالة رقبتي عندما استدرت مبتعدة. كان ثمة أيضاً حفيف

تنورتي على السجادة وأنا أغادر الغرفة، منهية مقابلة حية أخرى مع زوجي.

❖❖ ❖❖ ❖❖

نامت أمي دائماً مع خادم في غرفتها، ممارسة لطالما ازدريتها في منزلي. آمرت سارة أن تحضر طبلية وتضعها بجوار سرير طفلتها. فكرت في البداية أن أضع حاجزاً كي لا أراها نائمة، ثم قررت أن أغلق حيزاً لمبولة غرفة النوم، لأني كنت أقل ميلاً لمشاهدتها في تلك الحالة. "أمل أنك لا تشخرين،" قلت، فيما كانت تغالب لإقامة الحاجز.

كان الجو حاراً في الغرفة وكنت مغتاظة من العمل الأخرق، والذعر غير الضروري، وفوضى وصياح الرجال الذين نزلوا إلى غرفة طعامنا حيث عرض كل منهم بندقيته للآخر وجرعوا كثيراً من خمرته المفضلة. وانداحت أصواتهم من تحت الباب حادة نارة وخشنة أخرى، تتبادل اسم جويل بوردن كثيراً. اعتبروه غدوراً متآنفاً، يهتم بالحفلة التالية التي يريد حضورها أكثر من اهتمامه بمحاصيله. يقيم في المدينة أكثر من إقامته في منزله، والنتيجة هذه: عبيده طلقاء في الريف.

طلبت من سارة أن تسرح لي شعري بينما انتظرت مغادرتهم. ذلك يريحني ويقدم لها شيئاً تفعله. بدت كالحة وأكثر كآبة مني أنا الحبيسة بغرفتي في حي مغلق. أزَّت ذبابة حولنا وحطت على المرآة وزحفت على ملامحنا المنعكسة في المرآة. "اقتليها،" قلت. فتركت

شعري وتناولت مذيّة. وعندما سحقت ذلك الشيء أزالته عن المرآة بخرقة صغيرة. ولم تكد تنتهي حتى جاءت أخرى وأخذت تئز عند النافذة، وتطير برشاقة عبر السقف. قلت: "انهي شعري، ثم املئي المصيدة." فرفعت شعري، الذي كان رطباً بسبب تعرقي، وشرعت تجدّله. نظرت إلى ملامحها، بدت منكبّة على عملها، وقطرات من العرق على جبينها. إنها ماشطة ممتازة. راقبت أصابعها الطويلة تصقل الذوائب على صدغي ويديها تبحث عن أية شعرة وخطها الشيب لتنتزعها. شعري كث، جعد، نحاسي اللون في نظري، مع أن والدي كان يقول إنه ثروته الذهبية.

شعرت ببرودة رقبتي لأول مرة في ذلك اليوم عندما أنهت تجديل شعري، وثبتت جدائلي فوق رأسي. ثم تناهى إلى أسماعنا صوت دفع الكراسي في الأسفل، ووقع الخطوات الثقيلة والضحك أثناء خروج الرجال إلى الرواق، ثم صياحهم وهم يمتطون جيادهم ويلغطون عن مهمتهم. وخلف ذلك الصخب، نمَّ سكون مطبق عن ليلتنا الطويلة القادمة.

"هل تعرفين أي شيء عن هؤلاء الهاربين؟" سألتها، وهي تملأ قاعدة المصيدة بالماء المحلى.

قالت: "أحدهم هو شقيق دلفين." وتطلعتْ إلى المرآة لترى تأثير هذا الخبر عليّ.

فكرت، هل هم قادمون في هذا الاتجاه بأمل المساعدة من دلفين؟ ماذا لو كانت خرقاء كفاية لتدعهم يدخلون إلى البيت؟ لكنها لن تفعل ذلك؛ هي تخاف من الكلاب جداً. لذا حجزهم

زوجي معها وأرسل سارة لتختبئ معي. "هل طلب منك أن تبقي معي، أم هي فكرتك أنت بالذات؟" سألتها.

وكانت الإجابة الوحيدة التي حصلت عليها إحدى ابتساماتها المتكلفة.

❖❖ ❖❖ ❖❖

حلمت أن هناك ثعلباً، وإذ اقتربت منه فغر فمه كأنه يتثاءب، وانطلقت صرخة عالية. استيقظت في لجة تلك الصرخة، التي انطلقت في غرفتي عالية ومؤلمة إلى درجة فكرت أن أحدهم قتل امرأة خارج نافذتي. تذكرت دلفين في المطبخ، والزنوج الهاربين. ونهضت أكاد لا أتنفس مستعدة للقفز من السرير، لكن قبل أن أفعل، تلاشت الصرخة سريعاً خارج المنزل مبتعدة باتجاه الأكواخ.

"يومة،" قلت.

سمعت خشخشة في زاوية الغرفة الأمر الذي سبَّب لي صدمة أخرى، إلى أن تذكرت أنني لست وحيدة. رسم ضوء القمر رقعة عبر الأرضية حاذت طبلية سارة. استطعت أن أرى حركة هيكلها وضوء عينيها يراقبني بثبات. نظرت كل منا إلى الأخرى دون كلام، وعاد قلبي إلى وجيبه العادي. أطلقت طفلتها صرخة مكتومة واستدارت هي لتأخذها بين ذراعيها.

"هل عاد زوجي؟" سألتها.

"منذ ساعة تقريباً. كنتِ نائمة،" قالت.

وضعت رأسي على مخدتي، وهبَّ نسيم خفيف دفع ناموسيتي

نحوي بخفة، ففككت قميص نومي لأنعم به. ثم استدرت ونظرت إلى حيث تنام سارة، كانت الطفلة ملفوفة جنبها، وعيناها الواسعتان تراقبانني، وفكرت أنها كانت تراقبني هكذا طوال هذه الليلة.

❖❖ ❖❖ ❖❖

كان نُهماً عند تناول الفطور، أما أنا فقد أكلت قطعة من الخبز مع بعض جبن الكريول وشربت كوباً من القهوة القوية وأراقبه يزدرد الروستو وثريد الذرة والبطاطا والبيض والكعك المحلى. كان كل شيء ساخناً كفاية له. وعندما انتهى مسح فمه بمحرمة الطعام وطلب مزيداً من القهوة. ثم شرع يروي قصة مغامرته مساء البارحة:

لم يقترب الآبقون من منزلنا إطلاقاً، بل اتجهوا إلى الأراضي المنخفضة بأمل التسلل إلى قارب ينقلهم إلى نيوأورليانز كما توقعت دورية المطاردة، المؤلفة من تسعة رجال مسلحين ومجموعة كلاب. اقتفوا أثرهم ساعة أو نحوها، وفي الساعة التالية شاهدوا أحد الزنوج يتسلق شجرة. تركوا عدة كلاب ليبقوه فوق الشجرة، ثم تعقبوا الآخرين، ووجدوهما في النهاية يخوضان عميقاً في الوحل عند حافة النهر.

فأرسلوا الكلاب إلى أحدهما، وكان مشهداً مثيراً حيث علقت الكلاب في الوحل أيضاً، واضطروا إلى سحبها بالحبال. فاستفاد العبد الآبق الآخر من الاضطراب الذي حصل ونزل إلى الماء وأخذ

يخبط، لأنه لم يكن سباحاً ماهراً. ونزل اثنان من الدورية إلى الأسفل وأطلقا عليه النار. وأخيراً أُخرج ذاك الذي كان يخوض في الوحل مثل الكلاب واستسلم بسرعة، فقيدوا يديه خلف ظهره، وألقوا الحبل فوق جذع شجرة، وعادوا لجلب الأول الذي تحرسه الكلاب. بدا أنه حاول النزول من أعلى الشجرة فنهشت الكلاب إحدى قدميه، كان خائفاً جداً ونزل دون أن يسبب لهم أي إزعاج. وضعوه على ظهر حصان ورجعوا إلى الثاني الذي قيدوه إلى شجرة. سمعوا صراخه يطلب النجدة قبل أن يروه. يا إلهي، شاهدوا تمساحاً كشف مكان الزنجي الذي كان يجري في دائرة محاولاً إنقاذ نفسه من أن يتعشى به التمساح، الذي استثير كثيراً وهاجم الأحصنة، فأطلقوا النار عليه أيضاً. وهكذا استلم جويل بوردن عند بابه منتصف الليل: زنجياً قتيلاً، وآخر بقدم نهشتها الكلاب، وثالثاً خائفاً حتى الموت، وتمساحاً ميتاً.

كان يضحك وهو يحكي قصته ملمحاً إلى ذكائه الشخصي؛ لقد كانت ليلة مثيرة. وقفت سارة عند الباب تصغي بانتباه وعيناها على طبق الزبدة. أما أنا فوضعت ابتسامة رقيقة على شفتي واحتفظت بها هناك، أرشف قهوتي خلال الفترات المغيظة لضحكاته غير المبالية. وعندما انتهى أخذ ينقل نظره من سارة إليّ ويطوقنا بحبوره الدافئ.

"ظننت أن زنوج جويل مسلحين،" قلت.

"لا، لم يكونوا،" ردّ.

وإذ سألته: "ألم يكن أحدهم شقيق دلفين؟" رمقتني سارة بنظرة

سريعة. وتلاشى مزاجه المرح. فنظر إلى سارة ثم إليّ وكرر نظراته، وقال: "كل ما تفعلنه أنتن النساء هو الحكي وحسب."

ولما كانت هذه هي أولى ملاحظاته المازحة الحقيقية في ذلك الصباح، أطلقت العنان لنفسي بالضحك على نحو لا يليق بسيدة.

"إيبن بوردن،" قال لسارة. "أجل، كان واحداً منهم. هو الذي فقد قدمه تقريباً للكلاب، وعندما سيمثل أمام خازن السيد بوردن ستكون قدمه أقل متاعبه." قال ذلك ومدّ يده إلى صدره مستشعراً ألماً مفاجئاً، ثم أردف: "وهكذا يمكنك أنت ودلفين أن تقلعا عن تسميمي، فقد أنقذت حياة أخيها اللعين."

كان وجه سارة مثل قناع. ألقت نظرة إلى كوبه، ثم رفعت الإبريق لتعيد ملأه.

"أنتن النساء يجب أن تفكرن بشأن ما كان يمكن أن يحدث لَكُنَّ لولا وجودي هنا،" قال ذلك وهو يتطلع بارتياب إلى كوبه نصف المملوء.

❖❖ ❖❖ ❖❖

هل تفكر سارة بما سيؤول إليه حالها إذا مات؟ كيف يمكنها ألا تفعل؟ ماذا سيحصل لي يجب أن يكون سؤالها التالي، ما دامت تنتمي إليّ هي لا تستطيع أن تشك بأنني سأبيعها؛ سأبيعهم جميعاً. يخطر لي أحياناً أن أبيعهم جميعاً والمنزل والأرض، وأسوّي ديونه الكبيرة. استدان من أخيه وثلاثة بنوك، واستخدم المنزل ضمانة إضافية لإصلاح المعصرة. إنه مصاب بما سماه أبي "مرض المزارع."

يستمر بشراء الأرض حتى عندما لا يكون لديه وسيلة لحراثتها. إذا انخفضت أسعار السكر هذا العام، فسيتضرر، لكنه لا يمتلك المنطق ليوقف الزراعة رداً على انخفاض الأسعار. هو لا يعرف أنني أستطيع أن أقرأ دفتر حسابات، لكنني أستطيع، وكنت أنظر إلى دفاتر حساباته منذ بعض الوقت في الآونة الأخيرة. فهو يستطيع أن يعمل بشكل ملائم إذا كان المناخ جيداً وظلت الأسعار مستقرة، غير أن هذا التوافق مستحيل، ما دام المناخ الجيد يعني محصولاً أفضل للجميع، الأمر الذي يؤدي إلى هبوط الأسعار. لم أتحدث إليه في هذه الأشياء أبداً.

ومع أن دماره سيؤدي إلى دماري، فقد تمنيت إليه.

لقد حمدت الله كثيراً أن والدي لم يعش ليراني في هذا المكان. فلو عرف الضّعة التي آعاني منها كل يوم، لجاء بعربته وأخذني إلى البيت. لقد فقدنا بيتنا، ولو بقي لنا بيت هناك، لو ظل لنا، مع أنه ليس بمثل نصف ضخامة هذا البيت، لعدت إلى أشيائه المريحة البسيطة بفرح لا يُضاهى.

هل يرانا الميت؟ هل يبكي أبي لأجلي في قبره؟

لو يموت زوجي، أفكر، لو يموت زوجي، لكنه لن يموت. ليس قبل أن يكون الوقت قد تأخر كثيراً.

❖❖ ❖❖ ❖❖

كانت لعبة ما بعد ظهيرة هذا اليوم مباشرة أكثر، وغير أصيلة على الإطلاق. طلب من غلامين قويين أن يتقاتلا حتى لا يستطيع

أحدهما أن ينهض؛ والخاسر يُجلّد بعدئذ. كان مشهداً غريباً عبر المنظار بسبب عدم وجود صوت. لا شك أن الغلامين كانا ينخران ويصران ويتأوهان، وكان يحثهما على الاستمرار، غير أن الصراع كله بدا مثل رقصة هادئة ومنسقة. ومع هذا تفرجت لعدة دقائق. كان واضحاً أن الغلام الأصغر هو الأفضل، وقلت لسارة: "تعالي انظري عبر المنظار واخبريني من يكون ذلك الغلام الصغير."

تراجعت سارة كما لو أني طلبت منها أن تلتقط حشرة قذرة، وقالت: "لا، يا سيدتي."

"ولِمَ لا؟" سألتها.

"لا أحب ذلك المنظار."

"هل نظرت عبره يوماً؟"

أطرقت وهي تهز رأسها ببطء.

أدهشني ذلك. فالمنظار على ميدة الدرج، موجه إلى الخارج من النافذة الوحيدة المقابلة للحي في المنزل. لقد نصبه هناك لهذا الغرض بالضبط، ليراقب الزنوج في أعمالهم اليومية، ليرى ما إذا كانوا يحتشدون. ولا بد أن سارة تمر به كثيراً كل يوم.

قلت: "لو كنت مكانك لنظرت عبره؛ فربما رأيتِ شيئاً تحتاجين إلى معرفته."

وللإجابة قامت بخطوة أخرى إلى الوراء.

"أو هل عرفتِ كل ما أنت بحاجة لتعرفيه؟" قلت وأنا أستدير إلى المنظار.

كان تقديري صحيحاً. استلقى الغلام الأطول ووجهه في التراب،

بينما ارتفعت ساقاه تحته، يحاول أن ينهض مثل طفل يتعلم المشي. ووقف المنتصر أمامه يتعرق ولا يبتسم. ورأيت زوجي في ظل الشجرة ينحني ليضع إنجيله ويأخذ عصاه. ثم استدار نحو المتصارعين، وقال شيئاً ما للمنتصر، الذي نظر بشجاعة إلى المنزل، نحوي مباشرة، أو هكذا بدا الأمر لي. تراجعت مبتعدة من النافذة، مذهولة، أشعر بالذنب مؤقتا مثل طفل أُمسك به يسرق حلوى. ذهبت سارة إلى غرفتي، حيث كانت طفلتها تئن. وفكرت لِمَ عليّ أن أشعر بالذنب؟

❖❖ ❖❖ ❖❖

كان غامضاً عندما غازلني، وقد فسرت تحفظه بأنه حساسية. كان ضريباً من رجل يأمر أن تكون قمصانه ومناديله مُعطّرة ونظيفة جداً، كان رجلاً لا يستطيع البقاء طويلاً في المدينة لأن الرائحة المنبعثة من المجاري تؤذيه. وعندما زار بيتنا الصغير، أمرتُ أن يُغسَل الرواق ويُعطَّر بماء الورد والنجيل الهندي، وغسلت شعري بالبابونج. ولم يتوان أبداً عن التعليق على الجو اللائق في غرفنا.

"إذا كان شديد الحساسية،" قالت خالتي ليليا، عندما سمعت بخطوبتنا، "فالأفضل أن تأخذي سارة. هي ذات تربية ريفية، ومعتادة على تلك البيوت، وهي أفضل مدبرة منزل امتلكتها على الإطلاق، مع أنها لم تبلغ سنتها الثامنة عشرة بعد. تكره المدينة لأن الوسخ يدخل إلى المنزل كلما فُتِح الباب، كما تقول. إنها هديتي لزواجك."

وهكذا سبقتني سارة إلى هذا المنزل بستة أسابيع، كي تعده

لقدومي. وقد تأثر بها زوجي كثيراً وكتب إلى خالتي يشكرها على هذه "الجائزة!" فلم يُرتِّب منزله بمثل هذه الجودة أبداً.

أتساءل كيف استطاعت خالتي أن تسدد إلى سعادتي مثل هذه الضربة. هل تخيَّلتْ أن زوجي مختلف عن زوجها؟ أو هل فكرت أنني حصينة ضد الإغراء الذي مثَّلته سارة لأنني شابة وجميلة؟

أو هل كانت محبَطة فحسب؟ علمت فيما بعد، بعد وقت طويل جداً، أن عمي فقد رشده عندما عرض أحد الملونين أن يشتري سارة وبالتالي يمكنه أن يحررها ويتزوجها. كان الرجل الحر مستخدماً عند عمي، ناظراً على بناء إضافي للمنزل، وتخيَّل أنه يحب سارة. طرد عمي الرجل، الذي طالب مباشرة بالتعويض عن الضرر. وقد أغاظ ذلك عمي كثيراً فأمر أن تُقيَّد سارة في المطبخ وجلدها شخصيا بحضور الطباخ. حدث ذلك عندما بدأت خالتي تبحث عن مكان ما لتتخلص منها.

كانت سارة تقف في الرواق مع الآخرين: دلفين وبام والخازن، الذي لم يعد لدينا الآن، وروز، التي كانت مجرد طفلة، والمفترض أن تكون ذات فائدة لـ دلفين في المطبخ يوم وصلت إلى هنا. "ها نحن،" قال زوجي وهو يساعدني بالنزول من العربة، وأضاف: "إنه منزلك الجديد."

المنزل من طراز أبنية الأنديز الغربية مكون من طابقين الأول على أعمدة من القرميد والثاني من الخشب. الرواق العلوي واسع ومسوَّر بدرابزين، أما الرواق السفلي فمفتوح لأي شيء يتعثر عبر الأرضية القرميدية من سحالٍ وأفاعٍ وكل أنواع الخنافس التي

يمكن أن تلفظها المستنقعات. تتفتح الأبواب ذات الإطارات عبر الواجهة، فوق وتحت، مؤطرة بأغطية ذات عوارض خشبية تُغلق عند الأعاصير أو التهديد بتمرد. تقدمت من زوجي لأحيي الطاقم الصغير. قدمت دلفين لي انحناءة سريعة، ونظرة صريحة وفضولية. سألتها عن اسمها، وحييتها، وقُدِّمت إلى روز، التي لم تستطع أن ترفع ناظريها عن تنورتي. وقدمت بام الطويلة الضامرة، ذات الوجه المتطاول والجلد الشديد السواد، والتي كانت ترتدي معطفاً ضيقاً جداً عند الكتفين بكمين قصيرين، لي انحناءة رسمية وقالت: "أهلاً وسهلاً، سيدتي."

"هذه بام،" قال زوجي. طأطأت رأسي وأنا أستدير إلى سارة. عرفت من تكون، إنها هدية زواجي من خالتي. كان مظهرها مرضياً: طويلة، هيفاء، ذات بشرة فاتحة، أنيقة وتقف بوضعية ممتازة. كانت تعقد يديها فوق وزرتها. عرفتني بنفسها بشيء من انحناءة احترام وخضوع، لكنها لم تنظر إليّ على الإطلاق. كانت تنظر إلى زوجي بتعبير من توقع متجهم.

❖❖ ❖❖ ❖❖

لم يحتفظ أبي بأكثر من خمسة عشر عبداً وأسرهم. ويستخدم أيام إضافية للقطاف والحلج كل عام، تبعاً لمحصوله. القطن محصول أقل صعوبة من قصب السكر الذي يتطلب معظم جنيه وعصره أن يُعمَل في الحال تحت ضغط التجمد الشديد. يمضي زارعو قصب السكر عيد الميلاد مذعورين، ولا يقيم الزنوج احتفالهم

ويأخذون عطلتهم إلا بعد رأس السنة الجديدة.

كان الزنوج يطوقون والدي متى ذهب لاستئجار مخزناً، ويتوسلون إليه أن يستأجرهم. كانوا يعلمون جميعاً أنهم سيُعطَون مسكناً ومأكلاً أفضل مما يُقدَّم لهم عند أسيادهم أصحاب المزارع الكبيرة، وأنهم سيحظون بيوم راحة كامل كل أسبوع. وكان احتفالنا بيوم رأس السنة الجديدة مشهوراً بينهم، فكانوا حالما يُستأجَرون يصرخون ويضرب كل منهم الآخر على قفاه، ويهنئون أنفسهم على المأدبة التي سيستمتعون بها معاً.

أذكر وقوفي على النافذة لمراقبة موكبهم يأتي من الحي. كانت المشاعل مثل طيور مشتعلة تنقض وتحلق فوق رؤوسهم. وكان أبي يقف في الرواق ومعه سلة مغلفات، كل واحد منها باسم وورقة نقدية فيه. كان هناك كثير من الضحك والمزاح والغناء. وعندما يستلم الجميع هداياهم، كان أبي يصيح: "والآن هيا إلى المأدبة،" يقودهم إلى مخزن الحبوب، الذي يكون قد زُيِّن بالنباتات الخضراء، وصُفَّت فيه الطاولات، وغُطِّيت بالأقمشة البراقة الحمراء، ومُلِئت بروستو البقر والخنزير والدجاج والتركي، وزبادي الخضروات الطازجة والبطاطا المهروسة، وكل أنواع الفاكهة والخبز والسجق والشطائر والحلوى، ووُضعت براميل من النبيذ الحلو وشراب التافي المسكر على طول الجدران. كان يُسمَح لي أن أذهب مع أبي وأرى المحتفلين يأخذون أمكنتهم ويبدؤون بملء صحونهم. ولاحقاً، في سريري، كنت أسمع ألحان الكمان الأولى وجمع الكراسي والصياح بينما يسحبون الطاولات إلى جانب ويبدؤون الرقص الذي

كان يستمر إلى آخر الليل. وفي الصباح كان الجميع يستيقظون متأخرين ويصل أبي إلى الطاولة عندما ننهي طعام الفطور ويقول عندما يجلس ليتناول القهوة الباردة وما يتبقى من البيض: "أظن أن الزنوج استمتعوا باحتفالهم." كان أبي صارماً ومنصفاً. لم يستطع أحد من عبيدنا أن يتزوج من خارج المزرعة، وفي الحقيقة لم يكن مسموحاً لهم أن يغادروها ما لم يوجد سبب قسري، وكانت زيارات الزنوج من المزارع والمستعمرات المجاورة محظورة بشدة. ولم يسمح لهم أن يزرعوا حدائق خاصة بهم، لأنها تمنحهم شعوراً ما بالاستقلال وتقسِّم ولاءهم، وبالتالي يمكن أن يهتموا بقطعة الأرض الصغيرة أكثر من المزرعة، كما قال أبي. فكي تحصل على السلام والانسجام، كان يقول، على الزنوج أن يعرفوا أن المزرعة هي معيلهم وحاميهم، وأنها تمنحهم كل الأشياء الجيدة: الطعام والرعاية الطبية والسكن النظيف والدفء في الشتاء والأصدقاء والعائلة، أي أنها المكان الذي جاؤوا منه والمكان الذي تُثمَّن جهودهم فيه وحيث يُعنى بهم حتى يموتوا.

لم يستخدم أبي ناظراً، واستخدم السائق نفسه لخمسة عشر عاماً. كان يستخدم السوط في حدود ضيقة ويقف جانباً فيما ينفذ السائق العقوبة، لأنه، كما قال، من الخطأ أن يُشاهَد السيد يرفع السوط شخصياً، فذلك يحطّ من قدره في عيون هؤلاء الذين يراقبون الحدث.

ولم يُسمَح لي على الإطلاق - كما كان معظم أطفال المستوطنين - أن ألعب مع الأطفال السود في مزرعتنا، فقد اعتبر

والدي ذلك ممارسة خاطئة تفضي إلى جعل أطفال السيد خشنين وأنها مصدر التوقعات غير الملائمة لدى الزنوج، الذين لا بد أنهم يشعرون أنهم مماثلون لزملائهم في اللعب. دافع أبي بالحجة والبرهان عن أن هذه الألفة يمكن أن تسبب ليس التفاهة وحسب بل الاحتقار أيضاً، وهكذا تعلمت أن أصنع رفاقاً من لعبي.

واستهجن والدي كثيراً ممارسة بعض جيرانه الذين كانوا يذهبون في موكب إلى البلدة مع أطفالهم الخلاسيين مشى مشى. وكان هؤلاء الرجال، الذين غالباً ما كانوا يُشاهَدون وهم يغنون في الكنيسة صباح الآحاد، سبباً إضافياً لجعل أبي لا يعبأ بالدين البتة، إذ دافع عن أن الدين هو للعبيد، كما قال، فهو عزاؤهم وسلواهم، مثلما هم لنا.

لم أكن أعرف، كفتاة، كم كان أبي متميزاً. وعندما شكت أمي بأن وفاة أبي لم يكن حادثاً، أخذت اتهامها على أنه وليد حزنها، غير أنني أعتقد الآن أنه يجب أن يكون له عالم من الأعداء. وعندما فقدنا منزلنا وانتقلنا إلى المدينة، علمت أن أبي، الذي كان قوياً ومحباً وصلباً ومنصفاً، وقف بين سعادتي الساذجة وتشوشي.

❖❖ ❖❖ ❖❖

أفكر أحياناً أن سارة تلومني على مصيرها، مع أنه ليس لي يد فيه. وقد ختمته سريعاً بعد وصولي بحملها. كان الأب هو بام، كبير خدم زوجي. وقد لاحظت أنه لا يستطيع أن يبعد عينيه عنها

عندما عبرت الغرفة، ولم أُفاجَأ إذ علمت أنهما يأملان بالزواج. هي آخبرتني أولاً، ولم أرَ شيئاً يمنع ذلك. وقد توسلتْ إليّ أن أخبر زوجي، كأنها خشيت ألا يوافق على الزواج. حدث هذا عندما كانت لا تزال تتحدث وتتصرف مثل خادم عادي، تستأذن، وتتوق إلى المسرة. فوافقت على إبلاغ زوجي بطلبها. وقد بدا لي أنه زواج نافع لي، إذ سيخدم في تعزيز إخلاصهم للمزرعة. هذه الزيجات التي يمارسها الزنوج غير قانونية، لكنهم يفعلونها كثيراً.

أتساءل الآن كيف أمكنني أن أكون تلك البلهاء. فقد كان رد فعل زوجي على هذا الخبر أن قفز من مقعده يجأر مثل ثور. وأمرني أن أرسل إليه سارة حالاً وعندما جاءت، سحبها إلى الداخل بذراعه وشرع يصفعها ويضربها حتى سقطت طريحة على الأرضية، تتوسل إليه أن يتوقف. أقسَمَ أنه لن يدعها تلد لأنها عاملته هكذا في عقر داره، وإذ قلت كلمة في صالحها دفعني خارج الغرفة وصفق الباب في وجهي. عندئذ، وأنا أقف هناك، أصغي إلى دفاع سارة ولعناته، فهمت كل شيء. فقد قاومته سارة كل تلك الأسابيع التي لم أكن فيها هناك، والآن تحاول أن تحبط محاولاته، لكنها لن تفعل ذلك أبداً.

أرسل زوجي إلى السيد ستر، الذي ظهر في غرفة الطعام قبيل موعد العشاء مع عاملَي حقل متوحشين إلى جانبه. سحل الثلاثة بام إلى الحي وهو يصرخ أنه لم يُجلَد قط في حياته وأنه لن يجلد الآن؛ سيقتل نفسه أولاً. علمنا مؤخراً أنه تحرر من أسره لبرهة وجيزة وأخذ فأساً من أرومة شجرة وهدد أن يقطع يده لئلا يكون ذا فائدة

لسيده. فأسرع الرجال إليه، وفي الصراع التالي جرح أحد الرجال جرحاً بليغاً في ساقه، ففضب السيد ستر وضرب بام إلى حد الموت. وقد أمضى ستة أسابيع قبل أن يتعافى كفاية لنقله إلى المدينة، حيث بيع.

وأُخذ طفل سارة منها فور ولادته ليُربى في مزرعة أخي زوجي عند منبع النهر، وتمَّ التفاهم على أن يُباع، عندما يكبر كفاية ليعمل، ويقتسم الأخوان الربح بعد اقتطاع كلفة تنشئته. بكت سارة، واستغاثت، ثم أصبحت تدريجياً صامتة ومتكتمة. كان زوجي مسروراً، رغم أنه اضطر إلى بيع زنجي نافع بخسارة. فعندما رأى التجار ندوب بام اعتبروها مؤشراً على أنه مشاكس وخفضوا عروضهم بالتالي. وفي نهاية تلك السنة حملت سارة بـ والتر.

❖❖ ❖❖ ❖❖

توقف جويل بوردن عندنا في طريقه إلى البلدة، ومعه حقيبة ملأى بطيور الحمام التي اصطادها شخصياً وروستو الخنزير الطازج، شيء لسنا بحاجة إليه ما دام لدينا احتياطي من الخنازير. دعاه زوجي للعشاء ووافق. ومع أن كل الرجال ينالون منه في غيابه إلا أنهم يعاملونه كصديق في حضوره، فجويل شخص لطيف المعشر. وطبعاً، عندما يذهبون إلى المدينة يسرعون للبحث عنه لأنه يعرف أماكن السمر والرقص ويُرَحِّب به في معظم المنازل لسحره وذكائه. يقيم حفلاً كل سنة في مزرعته، ريفيري، فتصطف العربات على طول الطريق فوق النهر في اليوم الموعود. وقد حضرته مرة واحدة، في

السنة الأولى لمجيئي إلى هنا.

والآن، بينما دخلت غرفة الطعام، وجدت جويل متمدداً على كرسي قبالة النوافذ، وكأساً من البوربون على الطاولة إلى جواره، وزوجي ليس في الغرفة. دخلت سارة ومعها مجموعة من الصحون لتعد الطاولة. تطلع جويل حوله، وإذ شاهدني، نهض سريعاً وهو يمد يديه إلى يديّ. "مانن،" قال، وهو ينظر إليّ من رأسي إلى قدمي، "لم تتغيري، لا، بل أنت الآن أجمل قليلاً."

لكنني تغيرت كثيراً إلى درجة لا أعرف كيف أتعامل مع مزحة تافهة، رغم أنني كنت بارعة في ذلك ذات زمن. "جويل، تبدو جيداً،" كان كل ما قلته. إنه رجل بارع بطريقة دمثة تشي بالتراخي. فقد وفّر طاقته لملاحقة ملذاته باستمرار، وكل شيء آخر هو فوق طاقته.

"شاهدت أمك في الأسبوع الأخير، ووعدتها أن آمر عليك قبل عودتي."

لديه مجموعة من السيدات المتقدمات في السن اللواتي يعبدنه، وأمي واحدة منهن. أرادته أن يتزوجني، مع أننا جميعاً عرفنا أن ذلك مستحيل لأنه يحتاج إلى المال وأنا لا أملك شيئاً. لعب بعض الوقت على مغازلتي، ثم انتقل إلى فتاة جميلة راغبة أخرى. عندما يقرر أن يتزوج، فسوف يختار فتاة ما غنية، ربما أكبر منه سناً، لكنه حتى الآن تأتيه دائماً الفتيات الفقيرات مع أمهات ذات بائنة، يمطرنه بتقديم العشاء وشراب الشيري أو البورت. وأتساءل كم يستطيع أن يستمر أطول دون أن يبيع شيئاً ما.

Sample

"أرجو أن تقول لها إني بخير،" قلت، تركِ يدي، مستغرباً عدم استجابتي. وعندئذ جاء السبب على ذلك يقرع الباب، ويلوّح بزجاجة ويقدم أمراً بصوت عالٍ لسارة. أسرع إلى جويل بمودة مزيفة بالحديث عن كلب يجب أن يراه قبل أن يغادر. فلحقت بسارة إلى الباب وهمست لها: "قولي لـ دلفين أن تقدم المهلبية بعد الطعام." طأطأت رأسها، وخرجت. كان زوجي يفتح زجاجة النبيذ، صنف رائع من نبيذ بوردو الأحمر الذي أطراه عالياً لضيفنا. ومع أنني لا أشرب عادة بعد الظهر، إلا أن شيئاً مثيراً للرفقة جعلني أقرر أن أشاركهم. جلبت ثلاثة كؤوس من البوفيه إلى الطاولة. رمقني زوجي بنظرة سريعة، امتزج فيها الشك بالدهشة. فكّرَ أن جويل توقف عندنا ممتناً لأن عبيده لم يُقتلوا جميعاً، لكنني عرفت أنه جاء، كما قال، لأنه وعد أمي بأن يأتي. كانت أمي قد أرسلت رسالة إليّ في الليلة التي سبقت المطاردة، مليئة بالشائعات الخرقاء المتداولة في البلدة: صار عبيد جويل الثلاثة عشرة مسلحين بالبنادق والسكاكين الكبيرة وينوون الانضمام إلى العصابة التي تعيش في المستنقع عند مصب النهر. لم يكن لديّ الوقت لأردّ على تلك الرسالة الانفعالية.

أراد زوجي أن يتحدث عن قصب السكر، وهكذا فعل طيلة الوجبة، وتابع الحديث إلى العصر وعن الفضلات والسوق والمناخ حتى ظننت أنني سأُصاب بالدوار من الملل، في حين أن كل ما يعلمه جويل عن السُكّر هو ما يخبره به ناظر مزرعته. شرب جويل وأنا معظم النبيذ بينما أمتعَنا زوجي بتقديراته عن مقدار الوقت والمال

الذي قد يوفره إذا حصل على المعصرة الأكثر جدة، والتي هي أكثر فعالية من أي اختراع سابق وأغلى من أن يستطيع أي مزارع أن يتحمل ثمنها. كانت سارة تدخل وتخرج، تحضر أطباقاً جديدة، وتبدل صحوناً. لم يكلمها زوجي ولا نظر إليها، ولا جويل فعل، وانشغل في إرسال ملاحظات ماكرة إليّ عن معصرة جديدة تعمل بالبوربون، أو أخرى تعمل بالسكر، اختراع تأخر موعده طويلاً. كان مسلياً جداً، واستمر بملء كأسي، وهكذا شعرت بالاسترخاء، والبهجة، كما كنت دائماً في الأيام الغابرة. لم يبدُ زوجي أنه يمانع ذلك، إنها فرصة نادرة أن يراني مبتسمة. وعندما فرغت الزجاجة، اعتذر لخروجه وجلب أخرى. أخذ جويل يدي في يده وقال: "مانن، لماذا لا تأتي إلى المدينة في زيارة؟ إنها مملة جداً بدونك."

"ليس لديك فكرة عن معنى الملل،" قلت. "فأنت لم تختبره." عند هذه الكلمات عاد زوجي حاملاً زجاجتين، كان توقيته مناسباً جداً تغلبت عليه بالضحك. ضحك جويل أيضاً على حساب مضيفه. نظر زوجي إلينا مشجعاً، وقال: "لدي نبيذ من نوع البورت الممتاز."

فهتف جويل: "سأسقط عن ظهر حصاني قبل أن أصل إلى فولز ريفر."

عندئذ ألح زوجي عليه أن يبقى تلك الليلة، لكن لم يكن ثمة أمل في ذلك. استطعت أن أرى ما بعد الظهيرة الضائعة عبر عيني جويل، يأخذ قيلولة أو يقرأ أو يتفرج على الكلاب عندما يستطيع أن يصل إلى المدينة في وقت مناسب لعشاء فاخر يتبعه بمقامرة

ومغازلة. ماذا كان سيحصل لي لو تزوجت مثل هذا الرجل، فكرت، ودخلت أمسك بذراعه غرفة مليئة بالفتيات الحاسدات؟ هبط عليّ غمٌّ مألوف. مع جويل، كنت سأنجب أطفالاً.

جلبت سارة المهلبية، التي أعلن جويل، مبتسماً إليّ، أنها المفضلة لديه. أكل ذات مرة طبقاً كاملاً في بيت أمي، وهكذا غدت مزحة بيننا. وإذ وضعت سارة الطبق أمامي أمرها زوجي أن تحضر كؤوس البورت. وبينما عبرت خلفه في طريقها إلى البوفيه رمقته بنظرة ماكرة؛ لم تكن سعيدة لأمر ما. وعندئذ سمعنا قرقعة في القاعة، وانفتح الباب على مصراعيه، وأسرع والتر إلى الداخل.

كان والتر حافي القدمين، مرتدياً بنطالاً أبيض ومنديلاً أحمر حول رقبته. اندفع حول الطاولة، وذراعاه الطويلتان فوق رأسه، ينظر بعينين وحشيتين في كل اتجاه، ويغني شيئاً ما ظنّ أنه أغنية، مع أن لا لحن له ولا معنى. وتوقف عند كرسي زوجي ليطلق صرخة ويرتطم بالطاولة، بعدئذ مال نحوي ورمى نفسه على جويل ماسكاً بخصره وحاشراً رأسه الجعد في معطفه النصفي.

حدثت أشياء كثيرة في الحال. نهض زوجي من مقعده، يصرخ إلى سارة أن تأخذ الولد من الغرفة. رفع والتر رأسه وبدأ يدمدم إلى جويل، الذي استدار إليّ بتعبير من الدهشة وسألني: "ماذا لدينا هنا؟" وبعدئذ، فيما سحبت سارة الولد من ذراعه بعيداً، رأيت جويل يراقب شبهاً ملحوظاً بين المخلوق الأحمق وزوجي. أعتقد أن فمه تدلى مغفوراً. فهم زوجي أن جويل أدرك الأمر، وقد أغاظه ذلك. فدفع كرسيه ولحق بسارة والولد الصارخ، وكال الصفعات لها وله. تلقى

الولد ضربة على مؤخرة رأسه وصرخ عالياً، مغتاظاً إلى درجة أنه تعثر في خطوه. جرفته سارة من خصره وأخذته رفساً وصراخاً من الغرفة. صفق زوجي الباب وراءهما وعاد إلى الطاولة.

شعرت بعيني جويل عليّ واتقد خداي خجلاً. سمعت صوت أبي، مذكراً إياي أن السيد لا يرفع صوته على خادم علانية أبداً. بمَ كان ليفكر في رجل يضرب ولداً في حفل عشاء؟ جلس زوجي في نوبة غضب وشغل نفسه بصبِّ البورت. وغلّف صمت مروع الطاولة، لم أجد طريقة لكسره. ثم قال جويل أخيراً: " سيدة مانن، هل ستقدمين لي الحلوى، أم هي هناك لإثارة شهيتي وحسب؟"

"طبعاً،" قلت، وأنا آخذ الملعقة. "أعطني صحنك." وعندئذ سأله زوجي عن الصيد في منطقته، سؤال أثار اهتمام ضيفنا حقاً، لأنه يفكر أن المتعة الوحيدة في حياة الريف هي الصيد، وهكذا بدأا يتحدثان، وتابعنا كأن شيئاً لم يكن، وكما لو أن جويل لن يعود إلى المدينة بقصة ستمتع أصدقاءه العازبين: مانن غوديت لم تتجب، لكن زوجها ليس دون أولاد. كانت حكاية شائعة تماماً، لا أحد سيفكر أنها متناقضة. وما أراحني هو معرفتي أن جويل لن يقول شيئاً لأمي.

❖❖ ❖❖ ❖❖

ذهب زوجي لرؤية السيد ستر بعد أن غادر جويل وذهبت أنا إلى غرفتي. كنت لا أزال متوردة وأترنح بسبب النبيذ، غير أن مزاجي الجيد تلاشى تماماً. فقد أصر زوجي على وضع ذراعه حول خصري،

عندما وقفنا في الرواق نودع ضيفنا، ولم يكن ثمة شيء أمكنني فعله إلا أن أتحمله حتى غاب جويل عن الأنظار. كنا هناك، زوجان محبان، يلوحان ويبتسمان حين أدار ضيفنا حصانه باتجاه البلدة، لا شك أنه متلهف للتخلص منا ومن رياء زواجنا. ولما أصبح جويل خارج مجال السمع، رفعت يد زوجي وقلت: "ألن يكون لديه بعض الأخبار المثيرة ليعلنها عندما يصل إلى البلدة؟"

"عم تتحدثين؟" سألني.

"يمكنه أن يخبر أصدقائي أنني أعيش مع رجل لديه ابن سفاح، ويضرب خدمه علانية. لا بد أن ذلك يلون صورة إعلانية للخيار الذي أقدمت عليه."

لم يحرِ جواباً، ومشى نحو الحي.

في غرفتي، رميت نفسي على سريري وبكيت. بكيت حتى وافاني النوم. وعندما أفقت، كانت سارة هناك تعنى بطفلها وعيناها مغمضتان، ومسحة من حلم على وجهها.

"هل أدخلت والتر لتتالي مني أم منه؟" سألتها.

فتحت عينيها بحركة خاطفة، فأدرت وجهي جانباً.

"لقد انسل إلى الداخل وحسب،" قالت.

❖❖ ❖❖ ❖❖

لزمت غرفتي طيلة المساء. أحضرت سارة عشائي على صينية، لكنني بالكاد أكلت منه شيئاً. بدأت السماء تمطر غبّ حلول الظلام وأخذت الرياح تعصف، وتجعل صرير أبواب ونوافذ المنزل

يشتد. ارتديت ثياب النوم. وبعد أن سرحت سارة شعري، أرسلتها مع طفلتها خارج غرفتي تلك الليلة. ثم استلقيت على سريري أفكر بجويل، وبالنظرة التي ارتسمت على وجهه عندما استدار إليّ فوق رأس والتر المدمدم وقال: "ماذا لدينا هنا؟" هل أشفق عليّ؟ لم أستطع تحمل ذلك. فكرت بزوجي، وتلك الأفكار التي لم تستشعر المحبة أبداً، كانت مثل تيارات جليدية تعصف في دماغي. استطعت سماعه يتحرك في الطابق السفلي، نمت وأفقتُ ثانية لأسمعه يصعد على الدرج؛ إنه ذو خطوات ثقيلة، من الصعب أن تتصور كيف يمكن لامرئ يمشي أن يثير كل هذه الضجة مثلما يفعل هو. لقد عبر باب غرفتي وتابع إلى غرفته الخاصة. كان المطر قد توقف عن الهطول، ودفعت الرياح الغيوم بعيداً، وانساب ضوء القمر عبر النافذة. شعرت بالصداع بسبب النبيذ والتهب حلقي. انزلقت من سريري، وملأت كأسي بالماء، ثم ذهبت لأتطلع خارج النافذة، لأفعل شيئاً ما ليس إلا. لقد شعرت أنني لن أقدر على النوم لسنوات. كان الجو لا يزال عاصفاً، وأغصان الأشجار العالية تلوح كأنها تناديني إلى الخارج. تطلعت إلى السماء الصافية، والنجوم المتلألئة، ثم نظرت إلى الأسفل ووجدت عند ساق شجرة بلوط رجلاً. ارتجفت، وابتعدت عن النافذة. هل رآني؟ أسدلت الستارة أمامي ونظرت خلالها بحذر، مع أن غرفتي كانت معتمة ومن غير المحتمل أن يراني. كان زنجياً يرتدي قميصاً أبيض ومعطفاً نصفياً فضفاضاً تعصف فيه الرياح هذا الاتجاه وذاك. كان واقفاً دون حراك، يحدق إلى منزلنا وهو يصالب يديه فوق صدره. لم أستطع تمييز ملامحه. هل كان أحد عبيدنا؟

Sample

عدت إلى سريري بحذر شديد وألقيت الغطاء عليّ. ليس لديه عمل ليأتي إلى المنزل بعد حلول الليل. إذا أيقظت زوجي فسيخرج ويطارده إلى حيث ينتمي.

ثم فكرت أن زوجي ربما عرف أنه هناك. ربما كان حارساً كلف بمهمة حمايتنا من إشاعة تمرد آخر. انتظرت، أتنفس ببطء، كما لو أن الرجل يمكنه أن يسمعني. نهضت بعد برهة وجيزة وعدت إلى النافذة دبيباً، واسترقت النظر إلى الخارج عبر قاعدة النافذة.

كان الرجل قد ذهب.

❖❖ ❖❖ ❖❖

تناولت ملء ملعقة من مخدر لأعود إلى النوم واستيقظت وأنا أشعر أنني ميتة، غير قادرة على تحريك أعضائي. سمعت الساعة تدق وعرفت أن عليّ أن أنهض وأُعِد نفسي للظهور في غرفة الطعام، الفكرة التي جعلت معدتي تلتف. استلقيت على جانبي وأنا أقبض على بطني وألهث للحظات قليلة، ثم، فيما مرّ ذلك الإحساس، تدبرت أن أقوم على قدمي. غسلت وجهي في الحوض، وحاولت ألا أرى ملامحي في المرآة، لكنني رأيتها، وقد أرعبتني. فقرعت الجرس، وانتظرت لحظة، وقرعته ثانية. وسريعاً سمعت خطوات سارة على الدرج. "كرمى لله، ساعديني في ارتداء ملابسي،" قلت عندما دخلت.

فتحت الخزانة وأخرجت فستاني الصباحي الأزرق الشفاف،

الفستان الأخف والأقل ضيقاً لدي. "أجل،" قلت. " البسينيه فوق قميصي الداخلي؛ ليس لديّ وقت لوضع مخصرتي." شربت قليلاً من الماء وانهرت فوق طاولة زينتي. " ضعي دبوس شعري على جديلتي وحسب،" قلت. أمسكت غرتي بفرشاة الشعر وثبتت بقية شعري بالعديد من الدبابيس، فيما فركت خدي بقليل من أحمر شفاهي. " ما الخطأ في عينيّ؟" قلت، لأن أجفاني كانت حمراء، وعينيّ شاخصتان، و حدقتيّ مثل صحني قهوة أسودين على رقعة ذات لون أزرق شاحب. سمعنا الجرس يقرع لننزل إلى غرفة الطعام. فقالت سارة: "يُفضَّل أن أذهب."

قلت لها: "اذهبي، وقولي له أنني سأنزل حالاً." وعندما ذهبت، ارتديت حذائي، وربطت شريطاً مخرماً فوق ياقة ثوبي. "فنجان قهوة سينعشني،" قلت. تذكرت الرجل فجأة، لكن لم يكن لديّ وقت كافٍ لأفكر به. خرجت مسرعة عبر ميدة الدرج ونزلت الدرج متشبثة بالدرابزين مثل امرأة تعاني من دُوار. وفيما اقتربت من الباب، استطعت أن أسمع قرقعة الأطباق، وصوت شوكة زوجي القوي على صحنه. وعندما دخلت، كان يغمس قطعة من الخبز في المرقة. تطلع إليّ دون أن يتوقف. جلست على مقعدي وهيأت كوبي، وسويت تنورتي.

"هل أنت مريضة؟" سألني بطريقة مُرَحِّبة.

جاءت سارة بيننا مع إبريق القهوة. القهوة منعشة، فكرت فيما فاح بخارها الذكي من الكوب. أخذت رشفة حذرة قبل أن أجيب، "لم أنم جيداً."

"ذلك لأنك لا تمارسين الرياضة،" قال. أبعدت صحن البيض الذي وضعته سارة أمامي. وقلت: "خبز محمص فقط."

"ولا تأكلين شيئاً،" تابع. "فلا عجب إذا سببت لنفسك المرض." ازدرد اللقمة الأخيرة من خبزه المبلل، متلمظاً شفتيه بإعجاب. "صبي مزيداً من القهوة،" قال لسارة.

غمست قطعة خبزي المحمص في كوبي. وبدأ رأسي يتعافى قليلاً. وفيما مالت سارة نحوه، نظر إليها نظرة متفحصة حائرة. وقال: "ارسلي والتر إليّ."

- "آه، لا، أرجوك،" قلت بصوت عالٍ.
- "أي اعتراض تبدين؟" قال ببرود.
- "رأسي يكاد ينفجر،" تذمرت.

أعادت سارة وعاء القهوة إلى الخزانة.

- "دعيه يأتي إليّ،" كرر القول.

وعندما خرجت سارة، قال لي، "جويل بوردن على صواب. يجب أن تذهبي إلى البلدة وتزوري أمك. لمَ لا تكتبين إليها؟"

قلت: "بيتي هنا." وعندئذٍ انفتح الباب ودخل والتر تتبعه سارة التي كانت تتأمل السجادة بذهول. كان والتر يرتدي مجرد سروال قصير، مثلما يلبس أطفال الحقل. كان كبيراً جداً عليه، ومعلقاً على إحدى كتفيه؛ والجزء السفلي منه يتدلى إلى كاحليه تقريباً. دفع زوجي كرسيه إلى الخلف ونادى المخلوق مادّاً يديه إليه، لكن الطفل ركض حول الطاولة وحسب، كما لو كانت عادته، يبربر ويطلق صيحات عالية حادة دونما سبب. وبعد بعض الوقت مرّ قريباً

كفاية من والده ليمسك به بشدة. "اهدأ،" قال، وهو يحاول تثبيته جاهداً بقبضته من هذا الجانب وذاك. "اهدأ، اهدأ، وسأعطيك بعض الكعك." سمّر يديّ الطفل خلف ظهره بيد ومدّ الأخرى إلى سارة آمراً: "كعك، كعك." فكسرت عدة قطع في صحن ووضعته أمامه. وقد لفت هذا انتباه الصبي. وبدأ يجمجم بصوت خفيض ويدفع رأسه إلى الصحن. أخذ زوجي قطعة وأقحمها بين شفتي الطفل، مهدئاً إياه مؤقتاً. "كم عمره الآن؟" سأل سارة.

"سبع سنوات،" قالت.

مرّ بيده عبر شعر الصبي الأحمر الوحشي، وسأل: "ألم يسرح أحد له شعره يوماً؟"

"لن يصبر على ذلك."

نظر زوجي إلى وجه والتر الهائج، وهو يطعمه قطعة كعك أخرى ليحافظ على انتباهه، وقال موافقاً: "لا، لمَ عليه أن يفعل؟"

اتسعت عينا والتر؛ ودنا بوجهه من وجه والده، وبلع اللقمة الأخيرة، وصرخ "بووو - بووو، بووو - بووو" بأقوى ما يمكنه. قفزت سارة بعيداً عن الخزانة، وأمسكت المخلوق الخائف بيدها، وسحبته نحو الباب، وقالت: "يجب أن يخرج." وعندما فُتح الباب، ركض عبر القرميد إلى الجنبات وجثا فوق الوسخ.

"طفل ساحر،" علقت.

أغلقت سارة الباب واستأنفت عملها عند الخزانة. "مزيداً من القهوة،" قلت.

بدا زوجي مرتبكاً. وقد سرني أن أراه يحاول أن يُعمل ذهنه

Sample

المتبلد في المشكلة التي مثّلها هذا المسخ بيننا. "إذن يمكنه أن يتكلم؟" قال.

- "علمته دلفين ذلك."
- "هل يمكنه أن يقول أي شيء آخر؟"
- "يحتمل أن تفهم عليه دلفين أحياناً."
- "لكن أنت لا تستطيعين."

أمعنت سارة في وجهه للحظة دون أن تتكلم، ثم قالت: "تقول دلفين إنه لا يسمع."

"هو أطرش،" قال زوجي بلطف، كما لو أن إلهاماً عميقاً جاءه للتو. إذن، قال باقتضاب، "سأرسل أحدهم ليحضر الطبيب **لاندري** هذا اليوم."

❖❖ ❖❖ ❖❖

نادراً ما زرت البلدة لأنني لا أستطيع تحمل أسئلة أمي عن زواجي، وتعريضها الدائم بفشلي في الحمل بطفل. لم أبالِ بذلك لعدة سنوات، بل أخذت أشعر ببعض الفضول من نفسي وأنا أوضح لأمي أن الأمر ليس بسبب الافتقار إلى المحاولة. اعتقدت أمي بعمق أن الخطأ عند زوجي، وقد فعلت أنا ذلك إلى أن وُلِد والتر. وعندئذٍ عرفت السبب. بطريقة ما، والتر هو السبب، بيد أنني لم أكن أستطيع التحدث عن ذلك إلى أيٍّ كان. وفي سنة زواجي الخامسة، استشارت أمي وزوجي طبيباً اشتهر بمساعدته أزواجاً آخرين لا ينجبون، وعندئذٍ لم يكن ثمة إمكانية للعيش مع أيٍّ منهما حتى

وافقت على أن يفحصني هذا الرجل. وهكذا ذهبت إلى البلدة، وفي الموعد المحدد، ذهبت إلى عيادة الطبيب **غابرييل سانشيز**.

كان رجلاً ضئيلاً داكن اللون، وخط الشيب شعر صدغيه الخفيف، ويعاني من حَوَلٍ خفيف؛ ربما كانت إحدى عينيه ضعيفة وحسب. طُلِب مني أن أتعرى خلف ستارة، ولفتني ممرضة بقطعة قماش، ثم عرتني جزئياً، حيث روعي احتشامي عند حدود مضحكة. كان فحصي الجسدي كريهاً للغاية، غير أنني لم أعترض عليه. فكرت أنني إذا ما أذعنت فقد يكتشف الطبيب سبباً جسدياً لفشلي في الحمل، وبالتالي يحررني من واجباتي الزوجية البغيضة، ويضع نهاية لاستجوابات أمي المضنية أيضاً. عندما انتهى الفحص، جاءت فتاة لتساعدني في ارتداء ملابسي ورافقتني إلى المكتب حيث انتظرني الطبيب سانشيز. كان المكتب غرفة مشمسة. الأرضية مفروشة بحصير من الأسل، والكراسي مغطاة بأغطية صيفية. طلب مني الطبيب الجلوس على كرسي في مواجهة مكتبه الذي كان في الواقع طاولة مغطاة بالأوراق والكتب، وعلى نحو متميز بأصيص من زهور الجيرانيوم. وفيما كنت أجلس لاحظت قفصاً كبيراً مصنوعاً من الحديد معلقاً بسلسلة قرب النافذة المفتوحة يتقافز فيه عصفورا كناري. وخلال محادثتنا، غنى أحدهما بصوت شجي.

بدأ الطبيب عمله بشكل جيد. وأبلغني أنه سيسألني عدداً من الأسئلة الشخصية، وطمأنني أن أجوبتي لن تخرج خارج جدران عيادته، وأنه على وجه الخصوص لن يخبر أمي أو زوجي بما أقوله.

وقد وجدت أن نظراته الرامحة غير المركزة التي رمقني بها تعيد التأكيد لي، فعزمت على أن أخبره بأي شيء يريد أن يعرفه. أردت أن أكسبه إلى جانبي. سألني عن عادتي الشهرية، هل هي منتظمة، غزيرة ، متخثرة، أو حادة مترافقة مع ألم أو انتفاخ؟ وسألني عن صحتي العامة وغذائي وركوب الخيل وإذا ما عانيت من الصداع أو فترات وهن أبداً. ولأن صحتي كانت دائماً ممتازة فقد أجبت على أسئلته بتلقائية وصراحة، ولم يكن هو مندهشاً من إجاباتي. لقد أصغى بانتباه، ومن حين إلى آخر كان يضع ملاحظة في كتاب مغلف بالجلد، فتحه أمامه.

ثم سألني عن زواجي، ولا سيما عن جماعي مع زوجي. كم من الوقت دامت علاقتنا، وهل عانيت من الألم، وهل كان هناك نزيف بعد ذلك؟ وسألني على نحو أكثر دقة عما إذا كان زوجي يقذف في رحمي، سؤال جعلني أضحك، مع أني لم أستطع أن أنظر إليه، وشعرت بدفقة دم حار ترتفع إلى خدي. "أعتذر لعدم لياقتي" قال، "لكنني عرفت حالات من العقم سببها عدم معرفة الزوج."

"زوجي يعرف جيداً كيف يصنع الأطفال، أؤكد لك"، قلت ببرود.

فعبث بقلمه ولم يقدم إجابة. تطلعت إلى النافذة حيث كان الطائر يغني. كان هناك شجرة من موز الجنة قريبة جداً ذات عذق كبير أرجواني مزرق من فاكهة غير ناضجة يتدلى منها. تستلقي إحدى الأوراق عبر عتبة النافذة مثل طية من الأطلس الشديد البريق. فكرت بعناق زوجي الذي يبدي الرغبة وغير المقبول وجثوه ومصه

لثديي إلى أن تتأذى حلمتاي، وأصابعه تسبر ما بين فخذي، وتتفسه المؤذي في وجهي.

"لا أرى سبباً لعدم قدرتك على الحمل بطفل،" قال الطبيب أخيراً.

" لا ،" وافقت. "لا يوجد سبب جسدي."

"هل تريدين أطفالاً، سيدة غوديت؟" سألني.

منحت هذا السؤال تفكيري. افترضت أنه يجب أن يكون لدي أطفال، وسؤال ما إذا كنت أريدهم لم يخطر لي على الإطلاق. ما طبيعة النساء اللواتي لا يردن الأطفال؟ انتظر الطبيب سانشيز جوابي، لكنه بدا هادئاً، صابراً، كما لو أنه لن يهتم إذا انتظر إلى الأبد. افترض لو أنني تزوجت رجلاً مثله، فكرت، رجل يعرف كل شيء، عن أجساد النساء وليس متسرعاً أبداً. لقد وصلت إلى جواب.

"لا ،" قلت.

طامطاً رأسه، وضغط شفتيه معاً. لقد عرف كل شيء. "هل تخافين من آلام الولادة؟"

" لا ،" قلت.

. "ربما تشعرين بالقلق من تشوه جسدك إبان الحمل؟"

"ذلك يمر بالتأكيد ،" قلت.

"هل ثمة أسباب أخرى؟" أجمل القول.

"أجل،" قلت. أخرج منديلاً، ورفع نظاراته التي كانت موضوعة على كومة من الكتب فوق مكتبه، وشرع يصقل عدستيها بانتظام. "لأني أكره زوجي،" قلت.

تطلع إليّ قليلاً، لكن دون دهشة، ثم عاد ليهتم بنظاراته، وقال:

"لا تزال الزيجات التعيسة تتجب أطفالاً."

"ربما لم تكن تعيسة كفاية،" رددت.

"هل خطر لك يوماً أن الطفل قد يكون مريحاً لك في معاناتك؟"

"لست بحاجة إلى الراحة،" قلت.

وضع نظاراته، وأعطاني انتباهه الكامل غير المركز. "هل كنت تحبين زوجك عندما ارتبطت به؟" سألني.

"قلما كنت أعرفه. نُظر إلى زواجنا على أنه زواج مصلحة."

"وكيف نال عداوتك؟"

"حسن، دعني أفكر،" قلت. "هل واقع أن الخادمة التي جلبتها قد ولدت له ابناً، وأن هذا المخلوق حر في أن يركض في البيت مثل حيوان بري، هل سيكون ذلك، برأيك، سبباً كافياً لزوجة كي تكره زوجها؟"

هزّ الطبيب كتفيه. "سيدة غوديت، هناك حالات كثيرة مثل حالتك. لا أظن أنك تجهلين ذلك."

"ذلك بالضبط مصدر شكواي،" أوضحت. "لأن ذلك شائع."

"لماذا لا تبيعين الفتاة؟"

"لا، سيجد أخرى وحسب. وهذه مناسبة لي. إنها تكرهه مثلي."

"رأيت ومضة من تعاطف في ملامحه، لكنني لا أظن أنه كان معي. كان يشعر بالشفقة على زوج وقع بين خصمين. "حسن،" قال. "إرادة الله أن تتجبي طفلاً. فأنت شابة، وبصحة جيدة."

"وذلك ما أخاف منه،" قلت. "ولهذا وافقت على مقابلتك. أريدك أن تخبر زوجي أنه لا يمكنني الإنجاب. وأن مجرد المحاولة تشكل

خطراً على حياتي."

"تريدين مني أن أكذب؟ لن أفعل ذلك أبداً."

"ألا تريد أن تنقذ حياتي؟" قلت بلهجة يائسة.

"حياتك ليست في خطر."

فاضت عيناي بالدموع ضد إرادتي. شعرت بواحد من أوجاع رأسي يشتد عبر جبهتي. سحبت منديلي من كمي وضغطت به على عينيّ. كان الطبيب سانشيز يتكلم، لكنني بالكاد أدركت ما كان يقول بسبب اشتداد الألم الحاد والقوي. كان شيئاً عن طفل، طفلي، الذي سيضمن حب زوجي لي. "ألا تستطيع أن تعطيني شيئاً ما لهذه الآلام على الأقل؟" قلت دون تفكير، وأنا أقاطعه.

توقف، دون أن يكمل كلامه، كما لو أنه يلفت الانتباه إلى عدم لياقتي، لكنني لم أعد أهتم بما كان يفكر. "وشيئاً يجعلني أنام،" أضفت.

"أجل،" قال بلطف. "هذا ما أستطيع أن أقدمه لك كثيراً."

❖❖ ❖❖ ❖❖

وبينما كنا نتناول طعام الغداء، وصل غلام ومعه رسالة من الطبيب لاندري تقول إنه توجد كوليرا في أوفرتون ولن يستطيع المجيء إلينا حتى العشاء. "يجب أن تقول له إن حالتنا ليست ملحة،" قلت. "سيكون منهكاً إذا ما عاد إلى هناك قبل الصباح."

"لمَ عليه أن يذهب؟" قال زوجي. "يمكنه البقاء هنا ويحصل على منامة لائقة، بدلاً من النهوض مائة مرة في الليل ليفصد الزنوج

المصابين بالهيستريا."

"ما كنت لتقول ذلك لو كانوا زنوجك،" علقت.

"لو كانوا زنوجي لنقلت مكان الإقامة من ذلك المستنقع في أوفرتون، ولن يكون هناك كوليرا، كما لا يوجد هنا."

هذه من الأشياء المفضلة لديه لتزجية الوقت، يوضح أن مشكلات كل امرئ ناتجة عن أخطائه الشخصية وإذا ما خضع العالم كله لإدارته الممتازة، فستكون هناك جنة على الأرض. إنها تضجرني ولا أستطيع تحملها. دفعت صحني بعيداً ونهضت عن الطاولة. "يجب أن أتحدث إلى دلفين بشأن العشاء،" قلت. وفيما خرجت، كانت سارة تدخل ومعها صحن من كعك الأرز، فرحة لأن والتر سيحصل على عناية طبية كما ظننت. خرجت من المنزل عبر الباب الخلفي، وعبر الباحة، دخلت إلى المطبخ. كانت دلفين تقف وظهرها إليّ تمد بعض العجين على الطاولة. وكانت النار موقدة والغرفة خانقة. رميت نفسي على الكرسي، وقد أجفلتها في تلك اللحظة. "إنها جهنم هنا،" قلت. "كيف يمكنك تحمل ذلك؟"

"لا أستطيع أن أطبخ دون نار،" قالت وهي تواصل المدّ.

"أعطني كأس ماء قبل أن يغمى عليّ."

مسحت يديها بمئزرها وذهبت إلى المضخة. نادراً ما أذهب إلى المطبخ، لكن عندما أفعل، على الرغم من تلك الحرارة، أشعر بالراحة أكثر من غرفتي الخاصة. فدلفين هي الشخص الوحيد في هذا البيت الذي أثق به. إنها تذكرني بـ بيك، طباخة أمي؛ فكلتاهما صغيرتان، وداكنتان جداً ومفعمتان بالحياة وسريعتا

النرفزة، ومرهفتا الإحساس في العمق. قدمت لي كأس الماء وهي تمسح حوافها بمئزرها وتقول: "إنه مجرد طحين."

قلت: "لا أبالي،" وأنا أتجرعها. رفعت شويكها ثانية، وأردفت: "الطبيب قادم على العشاء هذه الليلة، والجو حار جداً لتناول الطعام، لكنه قد يفعل، إنه رجل كبير."

"لدى الطبيب شهية طيبة،" وافقت.

قلت: "أحضري بعض اللحم المدخن، قدميه بارداً مع بطاطا باردة ممزوجة بالخل ويسكويت ودراق محفوظ وحلوى التفاح." وسألتها: "ما الشطيرة التي ستصنعينها؟"

"العليق."

قلت: "إنها بسيطة للغاية."

"يمكنني أن آمزجها بالفريز."

"حسن،" قلت. "قدميها مع الكريما المخفوقة. سيناسبه ذلك بالتأكيد." وفتشت في مفاتيحي. "هذا مفتاح مبنى تدخين اللحوم،" قلت وأنا أضعه على الطاولة. "أعيديه لي مع سارة عندما تنتهين."

"نعم، سيدتي،" قالت.

فكرت أن أنهض للذهاب لكنني شعرت بالوهن الشديد، ولم أتحرك. نظرت عبر الباب إلى الفناء. كان ثمة ديك يمشي. بدا كل شيء، هادئاً؛ وعندئذٍ تذكرت لماذا.

"أين والتر؟" قلت.

"في الخارج يركض حول الحي،" قالت.

"هل الأمر آمن؟"

"روز تعتني به،" قالت.

"ليس هو مثار قلقي، بل المزرعة."

رمت دلفين عجينها فوق مقلاة الشطيرة واستدارت إلى إبريق على الموقد.

"تأكدي أن يكون في البيت عند العشاء،" قلت. "فسيفحصه الطبيب."

"نعم، سيدتي،" قالت.

نهضت وتمطيت، وخرجت لأتجول في الضياء. لم أستطع أن أتحمل المطبخ الحار دقيقة أخرى. كنت أفكر بالرجل، لكنني ما كنت لأقول أي شيء عنه لدلفين. ربما كان عشيقها. مشيت إلى شجرة البلوط حيث رأيته وبحثت بين الجذور عن أثر أي حذاء أو أي شيء ربما سقط منه، لكن لم يكن هناك أي شيء. وقد وقفت بالضبط حيث فكرت أنه كان يقف وتطلعت إلى المنزل. استطعت أن أرى نافذة غرفة نومي. وستارة يرفرف نصفها خارج النافذة في الهواء. ونافذة زوجي أيضاً. وعندما نظرت إلى هناء المطبخ استطعت أن أشاهد الباب المفتوح مباشرة. وبالرجوع قليلاً أمكنني مشاهدة أعلى المعصرة والدرب القذرة الممتدة إلى الحي. إنه موقع ممتاز للقيادة.

نظرت إلى الوراء نحو نافذتي. بدت الستائر تتحرك مقابل شيء ما ثقيل، ثم افترقت وظهرت سارة، تمسك بطفلها، رأتني حالاً، لكنها لم تجفل أو تبتعد، بل وقفت هناك، وثوبها نصف مفتوح تنظر إليّ ببرود. فكرت، إنها مخلوق دون أعصاب. في الواقع ثمة

شيء ما غير بشري فيها. وبعد لحظات قليلة ازددت قلقاً من النظر إليها وعدت إلى المنزل.

❖❖ ❖❖ ❖❖

الطبيب لاندري جريدة سائرة. إنه يعلم كل ما يجري من سانت فرانسيسفيل إلى بوانت إلى لاهاتشي. فخلال العشاء تحدث عن المثير من القيل والقال، وبعد ذلك تهيأ ليأكل نصف فخذ خنزير تقريباً. الكوليرا في أوفرتون محاصرة في الأحياء السكنية؛ مات ستة عشر شخصاً من ثلاثة وستين نقلوا إلى المستشفى. والوضع أسوأ في نيو أورليانز، حيث هناك الحمى الصفراء أيضاً. المشفى ممتلئ، والفنادق خالية. السيدة بمبرلي، من كلينتون، مصابة بالحمى القرمزية والطبيب لا يتوقع لها أن تعيش. والدعوى التي أقامتها كنتها ضد ابنها نجحت وهي تتوقع ضياع نصف أملاكها. غرق زنجيان في نهر فولز ريفر. لقد حصلا على إذن لزيارة أسرتيهما، لابد أنهما فكرا، وقد رأيا قارباً بين الطحالب، باصطياد السمك للعشاء مع العائلة، غير أن القارب، كما اتضح، كان يرشح، وانقلب الأمر ليكونا هما وجبة للسمك. أُلقي القبض على عبدين آبقين في سانت فرانسيسفيل، وهما يتجولان مخمورين في وضح النهار. كان ثمة حريق في محلجة السيد وينثروب في غرينوود، أشعله عبيده. أبلغ أحد المتهمين عن الآخرين وأفلت من الجلد. وقد أتت النيران على ثمانين بالة من القطن أيضاً. هناك شائعات كثيرة عن عصيان مدبر في بايو سارا حيث حظرت السلطات كل اللقاءات في الكنائس من أي

نوع، فيما يبدو أن أحد الدعاة يمكن أن يكون مسؤولاً عن تحريض الزنوج. وإحدى القصص هي أن هناك ثلاثمائة فار مختبئين في الأراضي المنخفضة أو قريباً منها وأنهم يعدون للزحف على طريق النهر ويقتلون كل شخص أبيض يجدونه.

"وسيأتون إلى هنا مباشرة،" هتف زوجي عند سماعه ذلك.

"سيفعلون ذلك،" وافق الطبيب لاندري. "إذا كانت الإشاعة صحيحة."

"سأُبلغ جماعتي،" قال زوجي متبجحاً مثل أبله. هكذا تتقلب الشائعات إلى زنوج موتى.

وافق الطبيب لاندري بعد العشاء على فحص والتر، الذي وُصف بـ "ولد لدينا هنا." وقد عبر زوجي عن الأمل بإمكانية استخدام الطفل كخادم، الأمر الذي كان خبراً جديداً بالكامل بالنسبة لي. فأسرع قلبي بالخفقان غضباً، ثم تخيلت والتر يقذف الأطباق خارج النافذة ويلقي البطاطا المهروسة على السجادة، فكرة وجدتها مسلية هدأتني. وقد اتفقا على أن يجري الفحص في مكتب زوجي، وأُرسلت سارة لتحضر المخلوق إلى هناك. فقدمت اعتذاراتي إلى السيدين، وتمنيت ليلة طيبة للطبيب عند باب غرفة الطعام، لكنني بدلاً من أن أذهب إلى غرفتي، عدت إلى الطاولة. وبعد عدة دقائق، دخلت سارة لتنظف الغرفة، وقد أغضبها بلا ريب أن تراني لا أزال جالسة هناك.

"صبي لي كأساً من ذلك البورت الذي وجده السادة مفيداً،" قلت، ففعلت ما أمرتها به. ثم جلست بهدوء لبعض الوقت، أشرب

البورت وأفكر بالأخبار التي جلبها الطبيب إلينا. وما همني أكثر هو نجاح دعوى سالي بمبرلي ضد زوجها. لقد طلقته منذ بضع سنوات، لأنه كان قاسياً إلى درجة جعلت حتى الخدم يشفقون عليها. وعندئذ جلب على نفسه وأسرته ديوناً كبيرة من القمار والإفلاس. وقد قاضته سالي لتحصل على نصيبها من الزواج، الذي كان كبيراً، فاستُثني نصيبها من دائنيه واستردته. وبمعجزة ما، ربحت القضية، ولديها الآن دخلها الخاص، وهي حرة من زوجها الكريه. يا لها من امرأة محظوظة!

❖❖ ❖❖ ❖❖

استيقظت مجفلة وأنا أفكر بأن أحداً يقف إلى جانب سريري، لكن لم يكن ثمة أحد. هل سمعت صوتاً؟ كانت الغرفة معتمة. كان باستطاعتي أن أرى الستائر على النافذة وشيئاً صغيراً آخر. وتذكرت الرجل في الحال. رفعت الناموسية وجلست على حافة السرير مترنحة لكنني عازمة، أهز رأسي لكي يصحو. ثم ذهبت إلى النافذة.

كان الجو في الخارج كما لو أنني أنظر في محبرة. وقد أمكنني أن أرى شكل شجرة البلوط، لكن كنسيج وحسب، مثل مخمل أسود على حرير أسود. هل كان ثمة شيء آخر بين الجذور؟ وارتميت على ركبتي، فيما فكرت أن قميصي الأبيض، وشعري الذهبي، جعلاني مرئية، وحملقت طويلاً وبشدة. وظلت عيناي لا تريان عبر العتمة. هل تحرك شيء ما، هناك، قرب المنزل؟ يجب أن تصغي،

Simple

قلت في سري وأغمضت عينيّ، وأنا أصغي إلى ما بدا أنه الصمت وقد تحلل إلى أصوات مختلفة، أزيز الحشرات، الساعة في القاعة، شيء ما يخدش في الجدار، حفيف الأوراق والأغصان، وعندئذٍ، كما لو في أذني، تماماً، انطلق صوت طلقة بندقية مفاجئ وغير قابل للنسيان.

برزت عيناي شاخصتين. فقفزت وركضت إلى باب غرفة النوم، غير أنني تعثرت بقائمة السرير وسقطت على رأسي فوق السجادة. وفيما وقفت على قدمي، سمعت صرخة من الخارج، ثم صوت زوجي، يجدف. فتحت باب غرفة نومي تماماً عندما فُتح باب غرفته. انتشر ضوء مصباح، وشخص ما خرج إلى القاعة. كانت سارة. خطوت خلف الباب، ووضعت خدي على خشبه، وأصغيت بينما أسرعت هي نحو ميدة الدرج.

انفتح باب آخر، باب الطبيب. تحدث إليها، وقد أجابت، لكنني لم أسمع ما قالا. كان ثمة مزيد من الضوء، وصوت حذاء زوجي الثقيل، ثم صوته. "لقد أشعلوا النار في المعصرة،" قال، ورد الطبيب لاندري، "سأرتدي ثيابي وأنضم إليك." ومن منتصف السلم ناداه زوجي: "ابق في سريرك، هناك أيد كافية."

كيف يمكن أن تُحرَق المعصرة؟ كنت أنظر باتجاهها بالضبط. تحسست طريقي إلى مزينتي أشعلت المصباح وذهبت إلى النافذة. كان ذلك صحيحاً. لم يكن ثمة لهب، بل وميض أحمر عميق بالعتمة في ذلك الاتجاه. سمعت صرخات أسفل الدرج، وظهر زوجي في الفناء، يركض، وجاء رجلان يركضان من الحي لملاقاته

ومعهما مشعلان. انفتح باب الطبيب ثانية، وتلاشى وقع خطواته بينما أسرع أسفل الدرج. وبعد عدة لحظات ظهر هو تحتي أيضاً يمشي بسرعة باتجاه الحريق.

خفق قلبي بقوة. حدث الأمر بتلك الطريقة في تلك الليلة: أصوات الأبواب تنفتح وتغلق، قعقعة أحذية على السلالم. غير أن الجو كان مختلفاً. كان صافياً وبارداً. وعندما نهضت وتطلعت إلى الخارج من نافذتي استطعت أن أرى ألسنة اللهب والدخان تتماوج فوق الأشجار. لم أرَ أبداً أبي يغادر المنزل، ولم أره ثانية. سمعت صوت أمي، ومن ثم صوت رجل لم أميزه، وأبواباً أكثر تُغلَق، وشخصاً ما يبتعد يمتطي حصاناً. قفزت من سريري، وعدوت إلى القاعة أنادي أمي، لكنها لم ترد. وجدتها في الرواق مع خادمة المنزل سيليستي، حول مصباح واحد. مضاء بينهما والغرفة باردة. وكانت صنارة الحبك تتلألأ بين المخرمات التي كانت تعمل فيها باهتياج، بينما كانت سيليستي ترهو جورباً. أردت أن أرمي بنفسي في حضن أمي، لكنني عرفت أنها ستؤنبني. "ماذا يحدث؟" قلت. تطلعت أمي، عيناها غائرتان، فمها في خط متجهم، ظلال من المصباح تلعب فوق خديها. إنها مذعورة، فكرت. إنها مذعورة أكثر مني.

"لقد قتلوه،" قالت.

"بابا!" صرخت وركضت إلى الباب.

"مانُن،" صاحت أمي، وقفزت على قدميها. "لا تخرجي إلى هناك." جاءت إليّ وأخذتني بين ذراعيها وأنا أبكي. لم أستطع أن أعرف ما حدث، سوى أن أمي قالت: "ذهب السائق لإحضار خالك،

Sample

ويجب أن نبقى في الداخل حتى يأتي."

نمت تلك الليلة في سرير أمي. وفي الصباح رفضت أن تنهض، ورفضت أن تأكل، كانت تشج وتغمغم باتهامات غاضبة متتابعة. "لقد جُنت حزناً،" قالت سيليستي. وصل خالي متأخراً بعد الظهر وسُمح لي بمغادرة المنزل. "ابقي بعيداً عن الحي،" قال، "وابقي بعيدة من المحلجة." كنت أريد أن أركض طوال الليل، وحالما صرت في الخارج ركضت بقدر ما استطعت من قوة وسرعة عبر المرجة نزولاً على الطريق إلى مصطبة النهر. أردت أن أواصل الركض إلى الأبد، لكنني وصلت إلى نهاية الرصيف. ودوّم الماء على قدميّ، وناديت ويداي فوق رأسي "بابا، بابا،" في خفة من المعاناة، ولم يكن هناك رد طبعاً، وأبي كان قد مات.

ماذا حدث بعدئذ؟ عتمة تغشى ذاكرتي. لقد مرضت لبعض الوقت. لكن قبل ذلك.

قبل ذلك، رجعت وشاهدت ولدين زنجيين يقفان على حافة الرصيف، يراقباني بفضول. كانا يرتديان ثياباً مرقعة، وحافيي القدمين. لبس أحدهما سترة خشنة مصنوعة من الخيش المحشو، والآخر عدّل كاباً مما يبدو بقية من بطانية حصان شده بإحكام حول كتفيه النحيلين. وقد حكمت أن يكونا في الثانية والثالثة عشرة من العمر، بعمري، على الرغم من أنني أطول منهما بعدة إنشات. لم أخف منهما. ولم أفكر بأنني رأيتهما قبل ذلك.

اقتربت من الولدين، وعندما صرت قريبة، قال الأطول: "مات أبوك."

"أعرف ذلك،" قلت.

قال الآخر: "لقد قُتِل في الحريق. سقطت عليه عارضة خشبية كبيرة."

"هل رأيتها؟ هل كنت هناك؟" سألته.

جثم الأطول على العشب وأخذ يفرك يديه من أجل الدفء، وقال: "تقول خالتي إن أباك هو من أشعل الحريق وأطلق النار على رأسه، ومات قبل أن تسقط العارضة الخشبية عليه."

"أنت كذاب،" قلت.

"ذلك ما تقوله خالتي،" أجاب وهو يحدق في صديقه الذي طأطأ رأسه بالموافقة.

كانت كذبة بالطبع. لا يمكن أن يفعل والدي ذلك الشيء. إنما سعيا إلى إثارة غضبي وإيذائي بتلفيق تلك الكذبة. وقد انقلب حزني واضطرابي إلى غضب. أردت أن أقتل الولدين وبدا أنهما عرفا أن عليهما أن يكونا خائفين مني، لأنهما عندما قلت: "الأفضل لكما أن تهربا،" فرّا مثل أرنبين مذعورين ولم يتوقفا حتى صارا خارج النظر وراء المنزل. أما أنا فوقفت على الرصيف، أهتز من الغضب.

بدأت السماء تمطر، لكنني لم أستطع الحركة. لقد وقفت هناك إلى أن تبللت تماماً وأخذت أسناني تصطك ثم وقفت هناك حتى أعتمت السماء وجاءت سيليستي ووجدتني. وفي الطريق إلى المنزل، كنت أهذي من الحمى.

لم أخبر أحداً بهذه الكذبة التي قالها الولدان لي. ربما لم تحصل أبداً وحلمت بها عندما كنت مريضة. فقد وافق الطبيب وخالي على

Sample

أن وفاة والدي كانت حادثاً. أما والدتي فكانت تقول دائماً إنهم قتلوه. ولم يكتشفوا أبداً كيف بدأ الحريق.

أكاذيب، فكرت، أكاذيب دون نهاية. نعيش عليها، نحن جميعاً، طوال الوقت.

صورة سارة وهي تغادر غرفة زوجي ملأت رأسي وهي تطرد هذه الذكريات التي لا تطاق. كان شعرها منفلشاً، وعيناها براقتين، وكانت ترتدي ثوباً فضفاضاً لم أره من قبل ومعطفاً ربط فوقه. كانت النظرة الأسرع إليها في ضوء القنديل، لكنني رأيت الشيء الكثير، وما شاهدته شاهده الطبيب، لم أشك بذلك، عندما فتح بابه وتحدث إليها. ماذا قال لها؟ بدأ رأسي يضرب كالمطرقة. كانت الغرفة حارة جداً وكنت أختنق. ترنحت إلى خزانة الأواني وصببت كأس ماء، شربت نصفها، ثم صببت الباقي على فتحة قميصي. كان الأمر كما لو أن أحدهم صفعني. وفي البعيد أمكنني أن أسمع الصياح وقرع الجرس. فأمسكت بالطاولة ونكست رأسي إلى الأمام وأنا أرتجف من رأسي حتى قدمي، وشعور من الخوف انسل إليّ لما عرفت أنني كنت أضعك.

❖❖ ❖❖ ❖❖

صليت طوال الليل لأترمل، ولإثبات أنه لا يوجد كائن أعلى يسمع دعواتنا، جاءت سارة إلى بابي ومعها رسالة فحواها أن زوجي ذهب إلى منزل أخيه ولن يعود حتى الغداء. يريد أن يستدين مزيداً من المال، فكرت، وسيكون في مزاج كريه عندما يعود. "هل ذهب

الطبيب أيضاً؟" سألت.

"أجل، يا سيدتي،" قالت.

"إذن لن أنزل. أحضري لي خبزاً وقهوة وقليلاً من جبن الكريول."

"نعم، سيدتي،" قالت ثانية وخرجت.

استلقيت بين المخدات وأغمضت عينيّ على صخب أفكاري. وعبر ذلك، استطعت أن أسمع الخدش نفسه في الجدار الذي لاحظته ليلة البارحة: فأر أو سنجاب يحدث ضرراً ما. هذا جيد، فكرت. كلّ قليلاً كل يوم حتى يسقط كل شيء حولنا. سمعت سارة على الدرج ونهضت. كنت أغسل وجهي عند الحامل عندما دخلت ومعها الصينية. "هل احترقت المعصرة تماماً؟" سألتها وأنا أغسل وجهي بيديّ.

وضعت الصينية على الطاولة الجانبية ووقفت دون أن تنظر إليّ، وقالت: "لا أعرف."

نشّفت وجهي بتربيتات خفيفة من منشفة اليد، وأنا أمعن النظر إلى ظهرها. هل عرفت أنني رأيتها ليلة البارحة، وهي تغادر غرفته؟ "أكره وضعك عندما تتظاهرين بالبلاهة،" قلت.

راق ذلك لغرورها، فقالت: "لقد أطفؤوا الحريق. احترق نصف السقف فقط وسقط الباقي بسبب الماء."

قلت: "سيئ جداً،" وتركتها تخمن ما إذا كنت آمل المزيد أو القليل من دمارنا.

جلست إلى طاولة زينتي، أمسح الدوائر السوداء تحت عينيّ بينما صبت هي القهوة وأحضرتها لي. وفيما انحنت لتضع الكوب المترع

في الفراغ الواضح الوحيد بين الزجاجات والدبابيس حجب وجهها وجهي عن المرآة. وقدَّمت عيناها المغضيتان، ويدها الثابتة، وخط التركيز الوحيد على جبينها الدليل على الشعور بشأن ما كانت تفعله. نظرة مختلفة تماماً عن تلك التي شاهدتها ليلاً عندما خرجت مسرعة من غرفة زوجي. فصعدت داخلي دفقة من الغضب عالياً إلى حنجرتي، إلى حد أنني تلهفت إلى الهواء. فرفعت يدي في ذعر، وإذ فعلت ذلك، صدمت ذراعها. فانقلب الكوب عن صحنه ورش القهوة على طاولة زينتي، وقفزت مبتعدة لئلا تجري إلى ثوبي، وأنا أصيح بها: "لمَ أنت خرقاء إلى هذا الحد؟" فانتزعت منشفة اليد وشرعت تزيل الفوضى بينما ذهبت إلى النافذة حيث شعرت بأن الجو قد أصبح حاراً، والسماء تلونت بلون رصاصي، فقلت: "لا أستطيع أن أتحمل المزيد."

❖❖ ❖❖ ❖❖

تبعاً لزوجي، أثبت الحريق أنه مدير لا يخطئ، وأنه أكثر ذكاء ومقدرة من أبي، الذي لو أخذ بنصيحة صهره لكان حياً.

أشعل الحريق رجل تعرض للجلد لبطئه في الحقل. أخبر اثنين من رفاقه بخطته وقد أبلغا كاتو، السائق، الذي جعل شغله أن يعرف مكان الناقمين في كل لحظة. وأخيراً، ليلة البارحة، عندما عرف كاتو أن المتآمر لم يشاهَد في الحي منذ العشاء، اتبع تعليمات زوجي المعطاة له. أسرع إلى منزل سترو وأمره أن يذهب إلى المعصرة حالاً. ثم أرسل رجلين لتنبيه زوجي وآخر لقرع الجرس، داعياً الجميع إلى

المشهد. أما المتهم فقد رتب لسحب عدة بالات من القش إلى داخل المعصرة وتبليلها بالكيروسين وإشعالها، لكن فيما كان يخرج من الباب أسرع السيد ستر بيندقيته وأطلق عليه النار. والآن هو مكبل بالأصفاد بانتظار العدالة. وخط أوعية الماء، الذي انتظم بسرعة، واصل إخماد اللهب. لم يكن السقف خسارة كبيرة، يؤكد زوجي، طالما كان يحتاج إلى إصلاح. وفي الواقع، كان الخشب قد قُطِع فعلاً.

"إذن كل شيء كما ينبغي،" علقت.

"أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً،" قال، مع نظرة خاطفة إلى سارة، ما عنى أنه لم يستطع أن يبلغني خبراً على درجة كبيرة من الأهمية أمام شاهد. وقد أزعجني ذلك. "تعالي إلى مكتبي عندما تنتهين من الأكل،" قال بجدية. "يجب أن أتحدث إليك سراً."

"كما ترغب،" قلت. وعندما ذهب، توانيت في تناول قهوتي. نظفت سارة مكانه وخرجت تاركة إياي وحيدة. كانت الغرفة هادئة، لكن ليس لوقت طويل. فسرعان ما أخذت نفساً عميقاً وزفرته في غضب على الكلام الغريب غير المفهوم والقعقعة خلف الأبواب مباشرة. كان ذلك والتر، أُطلِق في الفناء. لا توجد لحظة سلام واحدة في هذا المنزل، فكرت، ثم نهضت وذهبت لأسمع تقرير زوجي عن العالم الخارجي.

حالما دخلت إلى مكتبه، جعلني أغلق الباب. كان في حال مهتاجة، وغير قادر على الجلوس. وقد ألح على بقائي جالسة كما لو أنني لن أستطيع الوقوف أمام الخبر المروع الذي عليه أن يخبرني

Sample

به. كنت مضطربة من نقص النوم ولم أكن في مزاج لسماع أوهامه واعتداده بنفسه، لكن كان ثمة شيء غريب بشأنه، شيء ما جديد أثار اهتمامي. طبعاً بدا منهكاً، فقد أمضى الليل يكافح ضد الحريق إلى الصباح على ظهر جواده، لكنه لم يكن ذلك التعب الذي يورد خديه وينور عينيه على نحو رامح غريب. فجلست إرادياً ما وسعني ذلك وأعطيت انتباهي لخبره.

عندما كان عائداً إلى المنزل، قبيل الفجر، وقد أخمد الحريق واطمأن إلى أنه لن يغير مصيره، ميّز غلاماً ينتمي لأخيه تشارلز جاء راكباً ومعه استدعاء عاجل. توسل إليه أخوه تشارلز أن يذهب إلى مزرعته، تشاترلي، وأن يحضر معه الطبيب لاندري إذا كان ما يزال في مزرعتنا. ركب زوجي والطبيب معاً فوصلا في وقت وجدا فيه العائلة تتناول طعام الفطور، لكن يا لها من وجبة قلقة وسريعة كانت. فقد كانت ميبل، أخت زوجي، منهكة من الرعب والتعب، وكانت بناته يحزمن أمتعتهن للمغادرة من أجل السلامة إلى نيو أورليانز، وابنهما، إدموند، غلام في الخامسة عشرة من عمره، أقنع والده بأن يدعه يبقى.

وأمس الأول، سطا ثلاثة فارين على مخزن اللحوم في تشاترلي. وكان معهم أكياس من الخيش ملؤوها بما أمكنهم حمله. والطباخ الذي راقبهم من نافذة المطبخ قرع جرس الإنذار. وقد صادف أن كان تشارلز في الفناء يتحدث إلى الطبيب البيطري. فأشهر مسدسه وجاء راكضاً، وصل في وقت مناسب ليجرح أحد الرجال، مع أنه لم يكن جدياً كفاية ليمنعهم من الفرار. لجؤوا إلى الغابة،

وعلى الرغم من المطاردة السريعة بالكلاب والأحصنة، لم يُعثر عليهم. كان الأمر كما لو أن الغابة ابتلعتهم.

ومؤخراً ليلة أمس، ربما في الساعة عينها التي أُحرقت فيها معصرتنا (استأنف زوجي لهجته الأكثر مللاً ليذكرني بهذه المصادفة)، هاجم رجلان من هؤلاء الرجال بمناجل قطع قصب السكر صبياً يعمل في الاسطبل كان عائداً راجلاً إلى الحي في تشارلي. لقد ضربوه، ثم بتروا ذراعيه وساقيه وتركوه ليحتضر قائلين له: "قل لسيدك إننا فعلنا ذلك لأنه أطلق النار على أحد رجالنا." والمؤسف أن الغلام عاش فقط ليبلغ هذه الرسالة إلى المراقب.

"ماذا علينا أن نفعل؟" لخص زوجي المشكلة. "هل نفتح مستودعاتنا لكل فار مُتعَب من العمل لئلا يُقتَل هؤلاء المخلصون؟ ما النتيجة التي يمكن أن يتخيلها هؤلاء من هذه الوحشية العديمة الضمير؟"

لم أقدم رداً. في الحقيقة صدمني الخبر، وأخذت أحسب الوقت الذي يستغرقه رجل للسير من مزرعة أخ زوجي إلى مزرعتنا.

"افترضي أنه كان إدموند؟" أمعن زوجي فكره. "ذلك ما وضع ميبل المسكينة تحت رعاية الطبيب."

"ماذا ستفعل؟" سألته.

"طبعاً، سنجمع دورية ونلقي القبض عليهم،" قال. "اللعنة إنه توقيت سيئ. بين نقل الخشب وإصلاح المعصرة ليس لديّ ما يكفي من العمال، لكن ليس لدي خيار."

"وإذا فشلت الكلاب بالعثور عليهم قبل...؟"

وقف أمامي، وهو يمسد شاربيه، وقد ضاقت عيناه. كان يحاول أن يقرر ما إذا كان عليه أن يخبرني شيئاً ما أكثر. "وجدوا بناء في شجرة،" قال. "ضرب ما من منزل، مع كل أصناف الراحة، مفسلة، فراش، علبة تبغ، وحتى ورق لعب."

"إذن هم هناك منذ بعض الوقت."

"قدَّر الشريف أن هناك نحو مائة منهم."

"إنه رقم مضخم بالتأكيد!" استغربت.

ترك شاربيه وتطلع إليّ ممعناً، ثم قال: "أمل بأن تكوني على صواب."

❖❖ ❖❖ ❖❖

على الرغم من السرية المحكمة التي سيغلف بها المزارعون خطة انتقامهم لتلك الجريمة في تشارلز، فثمة بعض الشك بأن يعرف هؤلاء الزنوج كل شيء عنها قبل أن يمتطوا الجياد لملاحقتهم، وأن هناك من سيبلغ هؤلاء الفارين. وإلا فلماذا يجازفون ويحذرون الناس الذين يخططون لخطف انتباههم كي يسلبوهم؟ يستغرب زوجي همجيتهم، أما أنا فمندهشة من شجاعتهم. لابد أن هدفهم هو أن يغروا أعداءهم بالمجيء إلى جوارهم، حيث عرفوا بطريقة ما أن يبقوا أحياء، وأن يزدهروا، ثم يقطعونهم إرباً. الغابات المتاخمة لتشارلي ذات أرض منخفضة سبخة، ولا يمكن النفاذ عبر أعشابها النامية، ومليئة بالأفاعي والأجمات الشائكة وبكل أصناف

الحشرات الطنانة. يصعب سحب خشب كثير منها حتى **بالثيران**، كما لم يتوقف تشارلز أبداً عن الإشارة إلى ذلك، ولو أن **الأمر هو** نفسه هنا. وفي مكان كهذا يجب أن يكون الرجل **الراكب** حصاناً هدفاً سهلاً للرجل الذي كافح من أجل العيش على شجرة.

تلك كانت أفكاري في ما بعد الظهيرة عندما جلست في غرفتي مع أشياء الخياطة. وقد ملأتني بالخوف، لأنهم يفوقوننا عدداً هنا، كما في كل مكان على طول النهر، وعندما يذهب المزارعون معاً في رحلة صيد، تبقى بيوتهم وأسرهم دون حماية. وثمة أمل ضعيف للغاية أن يذهب زوجي ولا يعود أبداً. جعلت سارة تمزق ثوباً بالياً للحشو، وقطع صوت تمزيق الحرير المتكرر تأملاتي. أطلقت طفلتها أصواتاً محتقنة صغيرة في مهدها. استطعت أن أرى يدها السوداء وهي تتحرك على أضلاع المهد. لقد جلست وظهرها إليها، تمزق الثوب بانتظام، مستغرقة بعملها، أو هكذا بدت. تساءلت كم تعرف عن مهمة زوجي العاجلة. وهل شاركتني رغبتي الجبانة في أن تضع سيدها في خطر؟ لم أستطع أن أوجه إليها هذا السؤال، لكنني أردت أن أسمعها تتكلم. "ماذا قال الطبيب عن والتر؟" سألتها.

تطلعت إليّ، ثم إلى عملها، وكان لها سيماء قناع موت خالٍ من التعبير. "هو لا يسمع."

"هل قدم أية نصائح للمعالجة؟"

"كل ما قاله السيد هو أنه لا يسمع."

"وهل هذه تسمع؟" سألتها، مشيرة إلى الطفلة. وللإجابة، وضعت سارة الثوب في حضنها، واستدارت نحو ذلك الكائن، وصفقت

براحتيها، مطلقة فرقعة حادة، مثل طلقة. فرفعت الطفلة يديها فوق مهدها، وأطلقت صرخة ضعيفة من الدهشة. واستدارت سارة ثانية إلى عملها، وعلى فمها ابتسامة متكلفة مزعجة.

"لماذا لا تجيبيني؟" اعترضتُ، وكانت قد بلغت الحاشية من الثوب، التي مزقت الجزء السفلي منها مطلقة صوتاً يشبه صرخة طويلة.

❖❖ ❖❖ ❖❖

وفي ما بعد، سمعت وقع خطوات زوجي تتوقف أمام بابي لما صعد إلى الأعلى،كان قد شرب النبيذ والبراندي مع وجبة العشاء، كما يفعل غالباً عندما يكون مشهد قتل زنوج أمام ناظريه. رقدت ساكنة، أحدق في ممسكة الباب، لكنها لم تُدَرْ وتابع سيره إلى غرفته الخاصة سريعاً.

فقدت رغبتي الضئيلة بزوجي عندما وُلد والتر. عرفت أنه يأتي إلى سريري لخوفه من أن يكون قد صار والد الابن الوحيد الذي لن ينجب غيره. لقد أعماني الغضب وصار عليّ أن أبدأ محنة مواجهاتنا الزوجية باللجوء إلى شعور بواجب يتضاءل تدريجياً. لم أشك باشمئزازي الذي أظهرته. وقد منعني غروري الشديد من استجداء حريتي، وكان زوجي مستغرقاً في آلامه الشخصية الخاصة فلم يلاحظ معاناتي. وانقلب اشمئزازي إلى مقاومة واكتشفت أن ذلك أثاره أكثر، وأنه مفيد كوسيلة لجلب العملية البغيضة إلى خاتمة سريعة. وهكذا مارست مقاومة ساخرة. وبعدئذ كنت أبكي محبطة بينما ينهار زوجي اللاهث إلى جانبي، يقول "لا تبكي،

سأُرزّق بطفل، أنا متأكد من ذلك." ويريت على كتفي فيما يستدير لينام.

لم يمر وقت طويل بعد استشارتي الطبيب سانشيز حتى وجدت وسيلة تجعل زوجي يهجر فراشي، قدمها الطبيب سانشيز دون أن يتعمد ذلك في الحقيقة . هي الدواء المنوم. فقد وجدت أنه إذا شربت كأسين من البورت في العشاء وتناولت ملعقتين من ذلك الدواء الممتاز قبل أن أذهب إلى السرير، فلن أبالي بزوجي ويمكنني أن أتحمل ضماته دون شعور بأي شيء على الإطلاق. لم أشجعه ولا قاومته؛ أكون معه جسداً لا روح فيه. وقد أحبطه ذلك فوق ما يحتمل. كان يدفعني ويشدني ويردد اسمي، لكن دون جدوى. وفي ذات ليلة، بعد أسابيع قليلة فقط من تلك الحملة جرني بذراعي إلى الأعلى بخشونة وصفعني على وجهي بشدة. فابتسمت وسقطت على المخدة أتذوق دمي. ووضعت أصابعي على شفتيّ ولطخت خدي بقليل من الدم. ابتعد عني وجلس على حافة السرير، وأخذ يفرك وجهه بين يديه، ثم قال: "مأنُن، ماذا تفعلين."

فسألته بلهجة ودية: "هل انتهيت تماماً؟"

قال: "لا أريد ممارسة الحب مع جثة."

ضحكت. ما أغرب أن يسمي ما كنا نفعله "ممارسة حب،" ويا له من أمر يدعو للضحك أنه ركّز الحديث جثة. وقلت: "إذا كنت جثة فلأنك قتلتني."

استدار لينظر إليّ، وقال: "الطبيب محق، أنت غير متوازنة." ولدهشتي كان ثمة دموع في عينيه.

"هل هذا تشخيصه؟" سألته.

استدار مبتعداً، وانحنى ليلبس بنطاله.

فكرت، غير متوازنة. كان ذلك هو الاسم الذي يطلقونه على المرأة التي لا تستطيع أن تقبل بأن يكون الوغد شخصاً محترماً. أغمضت عينيّ وفتحتهما ثانية في مواجهة موجة من الغثيان. كان الطبيب محقاً.لم يكن المعيار دقيقاً. ربما الصحيح قليل من البورت وبضع قطرات أكثر من المخدر في المزيج. وقلت: "لا يهمني،" عندما انتعل زوجي حذاءه وذهب إلى الباب.

تطلع خلفه إليّ مرتبكاً.

قلت: "لا يهمني ما تفعل، ولا بما تفكر، أريد فقط أن تتركني وحدي."

قال: "ليكن ذلك،" وخرج.

❖❖ ❖❖ ❖❖

هناك كوليرا وحمى صفراء في نيو أورليانز. لدينا شائعات عنها، والطبيب لاندري، الذي توقف هنا هذا الصباح ليريح حصانه في طريقه إلى المدينة، أكد لنا ذلك منذراً. كانت الحالات تتضاعف بسرعة في الأسابيع الأخيرة، ولقي المئات حتفهم، وليس لديه شك في أن وباء شاملاً هو على الطريق. الحمى الصفراء أكثر خطورة على هؤلاء الذين لا يقيمون في المنطقة منذ مدة طويلة . الأمريكيون عرضة للإصابة بها على وجه الخصوص . لكن الكوليرا لا تحترم أية حواجز بل تحصد الزنوج ذوي المناعة ضد أمراض كثيرة تهاجم

البنية الأكثر رهافة من المستوطنين الفرنسيين. **وقد أمرني أن** أحضر أمي من البلدة.

أمعن زوجي التفكير في هذا الاقتراح مخفياً مشاعره الحقيقية. فزيارات أمي النادرة إلى هذا المنزل لم تكن ناجحة تماماً، لأنها تقدم نصائح غير مرغوبة لزوجي حول أمور المزرعة وتنتقد إدارته لحيواناتها، وخادمتها، بيك، لا تتسجم مع دلفين وتناكدها في المطبخ، والشيء الأسوأ بالنسبة له، لا أشك بذلك، هو حاجته إلى إخفاء حقيقة علاقته بسارة. فعندما كان والتر طفلاً، ويُبعَد إلى الحي ببساطة، كان الأمر أسهل، ولكن حتى عندئذ كان يُجبَر على كبح مزاجه وغض بصره بحضور سارة. وهي تكرر انتقادها أنه من غير المألوف أن تخدم امرأة الطاولة؛ وتسأل عن سبب عدم وجود خازن مناسب لدينا. ويسرني ارتباكه، غير أن المؤسف هو أن انتقاد أمي يمتد إلى سلوكي أيضاً. تشجعني على إبداء المزيد من الدفء لزوجي، حتى عندما لا أشعر به، باعتباره واجبي ومع الممارسة، يجب أن يصبح مسرتي. وتستشهد مراراً وتكراراً بقول مأثور ممل عن الذباب والعسل والخل، كما لو أنه ينطوي على حكمة العصور.

"سأرسل إليها في الحال،" قلت للطبيب لاندري، وكل ما استطاع زوجي أن يفعله هو إيماءة موافقة من رأسه. وعندما خرجا، ذهبت مباشرة إلى المكتب وكتبت الدعوة. لكن ما إن أنهيت الكتابة ووقفت أُهَوِّي الصفحة حتى سمعت قعقعة في المدخل. جاء غلام ملون، حافي القدمين، راكضاً إلى القاعة، منقطع الأنفاس

من الرعب. قال ثمة دوريات على الطريق أوقفته ثلاث مرات، طلبت جواز مروره، ودققت في شغله. لحسن الحظ أن طبيب أمي كتب "عاجل" على الرسالة التي كان يحملها وأنه ختم المغلف وجواز المرور بخاتمه؛ أو بطريقة أخرى، هتف الغلام، لكانوا احتجزوه وهو على ظهر حصان سيده.

أخذت الرسالة؛ شعرت بقشعريرة في عمودي الفقري عند لمسها، وأرسلت الصبي إلى المطبخ لتطعمه دلفين ويأخذ قسطاً من الراحة. نزعت الخاتم وأخرجت صفحة واحدة من ورق جيد يشبه الرق.

"عزيزتي مائن،" قالت الرسالة. "أنا آسف لإبلاغك أن أمك قد ألمّ بها المرض وهي في وضع سيئ. أخشى أنها لن تعيش أكثر من يوم أو اثنين. لقد طلبت مني أن أرسل إليك. الأفضل أن تغادري في الحال. بإخلاص، الطبيب ج. شابن."

دخل زوجي وأنا أعيد قراءة هذه الرسالة المختصرة. لم أستطع أن أتذكر أن أمي قد مرضت جدياً يوماً في حياتها. "إنها من طبيب أمي،" رددت على نظرته المتسائلة. "يقول إنها تحتضر."

"هل هي الكوليرا؟" سأل.

"هو لا يقول ذلك،" رددت.

عكّر تعاطف مزيف تعبير وجهه. رأيت عبر ذلك حسابه المعقد، الذي سددت إليه ضربة مدمرة أكيدة بقولي: "سأرحل حالما أحزم حقيبتي،" وأنا أمشي باتجاه الدرج. ثم، كما لو كانت فكرة تفسيرية، أضفت ملتفتة إليه، "سآخذ سارة معي."

القسم الثاني

في البلدة

لا شيء كان أكثر إثارة للضحك من المشهد المؤثر لرحيلنا: السيد يودع زوجته وخادمته، يرتعش خوفاً من أن إحداهما قد لا تعود. ولكن من منهما؟ هو يتمنى لو أقضي بالكوليرا، ويخشى من أنها قد تكون هي بدلاً مني. وأنا أتمنى لو يُقتَل وهو يطلق النار على الزنوج المتمردين. آما هي فتتمنى الموت لي وله. هو عملياً اغرورقت عيناه بالدموع. أخذ يدي ونظر إليّ نظرة رقيقة موحشة، وقال: "اكتبي إليّ لأطمئن أنك وصلت بأمان." دخلت روز وهي تحمل طفلة سارة، مشهد جفف دموعه بسرعة كافية. المسكينة تصبح أبشع يوماً بعد يوم، فصار شعرها كثاً وأشعث وأحمر. رفعتها سارة إلى صدرها وريتت على ظهرها بذهول. "ما الذي يمكن أن يحدث لنا؟" قلت.

قال: "لست متأكداً إن كنت ستصبحين أكثر أماناً هناك أو هنا. لقد وصلنا إلى حالٍ لا تطاق." نظر إلى العربة المنتظرة. وللحظة أشفقت عليه. فهو مرتبط أشد الارتباط بأكاذيبه الذاتية؛ ويستطيع أن يلعب على المشاعر التي يفكر أن عليه أن يقدمها. وقد استرق نظرة متلهفة من فوق رأسي إلى سارة، فتلاشت شفقتي في موجة

معتادة من المرارة. قلت: "ينبغي أن نغادر،" وأنا أشير إلى الغلام كي يدخل من أجل صندوق الأمتعة. تقدمتني سارة حاملة الطفل وحقيبة سفر صغيرة. لحق زوجي بي. وإذ صعدت إلى العربة وضع يده تحت مرفقي ليساعدني على الركوب، وقال: "مانن، اهتمي بنفسك." فوضعت البسمة الأكثر لطفاً على شفتي وأنا أستقر على مقعدي وأرتب حواشي ثوبي وسط الصخب الذي سببه اندفاع صندوق الثياب إلى المكان، وروز ترفع صرة من البسكويت و اللحم المدخن، والسائق يأخذ مكانه على مقعده ويتحدث إلى حصانيه، وصرير الجلد، وصريف السوط، ورجة وصليل الحديد على الخشب بينما بدأت العجلات بالدوران وابتعدنا. رفعت يدي إلى زوجي الذي وقف على الدرج، ملوحاً ببلاهة. خرج والتر من الأجمات وركض نحوه، وذراعاه تضربان الهواء، وشعره الأحمر مثل نار متقدة فوق رأسه. رمى نفسه على ساقي والده، يصرخ، من الفرح أو الألم، لم يكن ثمة حكي، وقد اضطر زوجي أن ينحني فوق الطفل ليحافظ على توازنه.

قلت لسارة التي كانت تراقبه أيضاً بعينين نصف مغمضتين قبالة الشمس: "إنها الصورة المثالية التي يجب أن تذكرني بمفاتن البيت."

❖❖ ❖❖ ❖❖

كانت العربات التي تغادر المدينة أكثر من تلك القادمة إليها، مع أنه لحق بنا طبيبان على حصانيهما طمأناني أن الخطر ليس كبيراً إلى الدرجة التي يخشاها السكان. وأكد لي الطبيب بتري

من دونالدسنفيل. "إنهم يضخمون كل شيء في نيو أورليانز. فهذا ضرب من متعة العيش هناك." ولكن عند الغسق، عندما وصلنا البلدة، عرفت على الفور أن الطبيب بتري هو من كان يبالغ. كم تغيرت البلدة وصارت بيوتها معتمة وموصدة، وكم هي رائحة هواء الشوارع كريهة. كان ثمة مشاعل متوالية على الطريق انتشر منها دخان فوسفوري مثل بطانية صفراء قذرة مرفوعة فوق الأبنية. ولمعي فقد مررنا بعربة محملة بجثامين، كانت ملفوفة بالكتان ومغطاة بأقمشة القنب الثقيلة، أقدامها مزرقة ومنتفخة واقفة في الخلف والجوانب كما لو أنها ما تزال تسعى إلى خطوتها الأخيرة في هذا العالم. والسائق، رجل متقدم في السن، زنجي شبيه بهيكل عظمي، كاد لا يرفع ناظريه عندما عبرناه، استطاع أن يكيِّف نفسه مع الموت. بالتأكيد لم يكن أبعد من حمولته كثيراً عن القبر. ماذا لو كانت أمي في عداد هؤلاء؟ فكرت. أغمضت عينيَّ ونذرت ألا تكون بينهم، وإذا كان لا بد أن تموت، فسأنقلها إلى المقبرة بعربتي بدلاً من أن أراها محمولة على هذا النحو المشوش.

كانت طفلة سارة تموء، ثم، وفيما حاولت أمها تهدئتها، أطلقت عويلاً عالياً نرفزني وودت لو أرميها إلى الشارع. لكنني قلت بعد دقائق قليلة: "ألا تستطيعين تهدئتها؟"

قالت سارة: "إنها جائعة،" وهي ترفعها إلى كتفها. اتسعت عينا سارة دهشة، وتبللت شفتها العليا بالعرق، وجلست شبه منتصبة وذقنها مضغوطة إلى عنقها، وفتحتا أنفها منكمشتان كما لو أنها تعاني من مشكلة في التنفس. فكرت أنها خائفة إلى حد الموت.

ستكون مفيدة مثل قطة عندما نصل إلى هناك.

وأخيراً استدرنا إلى شارع سانت آنْ وتوقفنا عند كوخ أمي. كان موصداً أيضاً؛ نادراً ما رأيته مغلقاً هكذا بالكامل. قفزت من العربة وتسلقت عدة درجات راكضة وشددت حبل الجرس بفارغ الصبر. استطعت أن أسمع الجرس يرن في خلفية المنزل، ثم توقف. وقد خشيت للحظات أنني كنت أقرع جرساً في قبر، ثم سمعت وقع خطوات قادمة إلى الباب.

كانت بيك، طباخة أمي. فتحت الباب الداخلي مترددة، وعندئذٍ، وقد رأتني عبر المصراع، سحبت المزلاج ورتاج الأرضية لتدعني أدخل. تسللت سارة الدرج ووقفت إلى جانبي ولفلتها مهتاجة على صدرها. "سيدة مائن،" قالت بيك. "أمك أفضل قليلاً هذا اليوم."

"ارجعي وهدئي الطفلة،" قلت لسارة. "كل ما يحتاج إليه المريض هو طفل يبكي في المنزل." دخلت إلى الرواق. كم كان موحشاً ومعتماً، وكم كان هادئاً. واصلت سارة سيرها عبر غرفة الطعام إلى المسكن. ووقفت بيك على الدرج منتظرة السائق ليفكّ صندوق ثيابي. وقعت عيني على صورة مؤطرة لأبي فوق الطاولة. قدّمها لأمي في بداية زواجهما. قال إن المصور قد جمّله، فشعره لم يكن كثيفاً أبداً، وفكه لم يكن بارزاً هكذا، غير أن أمي حفظتها كصورة كبيرة الشبه به. قلت: "كم أتمنى لو كنتَ هنا. إني أفتقدك كثيراً." ثم مشيت عبر غرفة الطعام إلى باب غرفة أمي.

❖❖ ❖❖ ❖❖

أمي ليست مريضاً سهلاً، وأنا بالتأكيد لم أُعدّ لأستمتع بواجبات العناية بمريض. إنها ضعيفة جداً لأن تتحمل، ونكدة وبكّاءة، وغير قادرة على تناول أي شيء غير حساء خفيف. لقد زارها الطبيب شابن بانتظام وأعلن البارحة أنها ستتحسن، لكنه أسرّ لي عندما غادرنا غرفتها أن لاغرابة في أن يستجمع المريض قواه لعدة أيام في هذا المرض ثم يموت فجأة. أما رأيها الشخصي فكان أن الطبيب يقتلها. وفي الحقيقة، ترتكز معالجته على الفصد والمسهلات، التي، يصر على أن تُعطى في فترات متقاربة كي تكون فعالة. وفيما تلاشت حمى أمي، ورقَّ هو، كانت النتيجة تعافي مريضتنا تدريجياً. "ابقيه بعيداً عني،" كانت أمي تقول كل مرة يرن فيها الجرس. وتفضل كمادات بيك والشاي الذي تعده ذا الرائحة القوية الكافية لطرد شيطان من الغرفة.

أما أنا فكنت أتطلع إلى زيارات الطبيب عندما لا تفعل أمي. إنه يجلب الأخبار من خارج المنزل. فخطر الحمى الصفراء يتراجع بشكل عام لأنها، حسب تعبيره، تفقد سيطرتها على السكان. وحصدت الكوليرا ما يربو على مائة نسمة هذا الأسبوع، معظمها من الزنوج، بنفقة باهظة للجماعة. فقد اكتظت المقابر، ولا يوجد ما يكفي من حفاري القبور تلبي الطلب. ولا يخرج أحد من بيته إلا لجلب الطعام، ولا تقام الحفلات ولا التجمعات العامة من أي نوع. والمدينة كما لو أنها تحت حصار عدو. ومع ذلك، فكما تتسل الأيام، أجد نفسي في سلام على نحو غريب. أنام في غرفتي القديمة في واجهة المنزل، وأتناول وجباتي وحيدة في فناء الدار.

Sample

اشترت أمي هذا المنزل الصغير بعد وفاة أبي، لتكون على مقربة من أمها، التي كانت مقعدة بسبب الشيخوخة. كنت في الثالثة عشرة عندما انتقلنا إلى هنا. وعندما شاهدته لأول مرة، ظننت أنه سيكون صغيراً جداً للراحة أو الخصوصية، فثمة أربع غرف فقط في واجهة المنزل، واثنتان على الشارع، واثنتان في الخلف، غير أن الغرف واسعة وهواءها طلق، وقد صُمِّمت لتكون كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى. وهناك مجموعتان من النوافذ البابية تتفرعان من غرفة الطعام وتتفتحان على طول فناء المنزل المغطى برواق نصفي يمتد بين المطبخ وغرفتي المنزل المكون من أربع غرف. ويخلق هذا شرفة مريحة مسقوفة معتدلة طوال الوقت. وهناك عمود رخام قديم جميل يقسم المكان بين قوسين مهيبين، وهناك خلفه بركة تتغذى من ماء الحوض. كنت أقوم بالخياطة هناك في أوقات بعد الظهيرة، وكنت أستطيع سماع جرس أمي عندما كان يجب إيقاظها من القيلولة. أما سارة فتجلس على درج المطبخ تقشر الخضراوات أو تستخلص شيئاً من تخميرات بيك العلاجية المزعجة. أو تشاهد وهي تهز سرير طفلتها بقدمها في مكان ما. حتى صليل هذه الأداة الدائم لا يزعجني؛ وفي الواقع، شعرت بتأثيره المهدئ، كما لو أنه يُهَزْهِز لي لأنام.

طبعاً يخطر لي أن على أمي أن تتكئ وتموت بمرضها، وأن هذا البيت سيكون لي.

❖❖ ❖❖ ❖❖

لقد عشت كابوساً حقيقياً.

دخلت لأطعم أمي بعض الحساء. بدت كما لو أنها قد تحسنت كثيراً. طلبت أن توضع في كرسيها، وكانت قوية كفاية لتتنقل إلى هناك بالتمسك بذراعي، والتقدم بخطوات صغيرة. أرادت مخدات مختلفة لتوضع كما طلبت بالضبط، ثم شكت من أن الحساء ليس ساخناً، فذكّرتني بزوجي. ناديت سارة لتأخذه إلى المطبخ وتعيد تسخينه. وعندما دخلت سارة، رمقتها أمي بنظرة طويلة، كما لو أنها لم تتعرف عليها. وسألتني بعد أن خرجت: "لماذا جلبت تلك معك؟"

"ولِمَ لا أجلبها؟ إنها ملكي،" قلت.

"ومن يخدم زوجك؟"

"روز، على ما أظن. إنها كبيرة كفاية. لقد غادرت بسرعة إلى درجة أن ذلك كان آخر ما يدور في بالي."

"إذن لا يوجد لديك خازن محدد بعد،" قالت أمي.

"ليس لدى زوجي رغبة في أن يكون لديه خازن."

ظلت صامتة للحظة، وهي تتأملني بطريقة جعلتني أشعر بعدم الراحة، ثم قالت : "ألا يستطيع أن يتحمل نفقة أحدهم؟"

"لا أعرف. لا أتدخل في شؤونه المالية." لقد كذبت.

"لماذا اختار العمل بالسكرة؟" بدت قلقة على نفسها أكثر مما هي قلقة عليّ. وأضافت، "لا يوجد ربح أكيد فيه."

"لا، لا يوجد،" وافقت معها. "القطن عملي أكثر."

"أظل أسمع طفلاً يبكي. هل يوجد طفل هنا؟" سألتني فجأة.

"إنها بنت سارة. لا تزال رضيعة،" قلت.

"لماذا أحضرتها إلى هنا؟" سألتني ثانية. أقلقني إلحاحها، ولم أرد.

فكرت أنها تهذي بسبب مرضها.

"بنت من؟" سألتني مجدداً.

"بنت سارة،" قلت.

"فهمت،" قالت بقلق. "أعرف ذلك. لكن من هو أبوها؟"

"كيف لي أن أعلم؟" قلت. فحدجتني، كما لو أنني صفعتها.

"مانن، ظننت أنك ستديرين أمورك أفضل مما فعلت. إنك تتجاهلين واجباتك، وبالتالي لا تملكين السيطرة على بيتك،" قالت.

لم أستطع تحمل محاضرة أخرى عن فشلي كزوجة. "كم من الوقت يستغرق تسخين زبدية من الحساء؟" قلت وأنا أنهض من مقعدي. وتماماً عندما وصلت إلى الباب، ظهرت سارة مع الصينية. "أخيراً،" قلت. "ما الذي جعلك تبطئين إلى هذا الحد؟" وخرجت لآخذ الصينية، لكن فيما فعلت ذلك رأيت أن سارة كانت تنظر إلى ما ورائي بتكشيرة مشمئزة. فتراجعت تاركة الصينية تنزلق من أصابعها وتقع على الأرضية، وتطاير شيء من الحساء الساخن إلى تنورتي، وحرقت بعض القطرات كاحلَي. فصرخت وأنا أستدير مبتعدة لآخذ منشفة من قرب المغسلة، و، فيما فعلت ذلك، رأيت مشهداً مرعباً إلى حد سيسكن أحلامي طالما أنا على قيد الحياة. كانت أمي تجلس كما تركتها، مستندة على مخداتها، وقد ضمت يديها في حجرها، بينما أخذ سائل أسود يتدفق من فمها وأنفها وعينيها وأذنيها. صرخت. ركضت سارة وهي تنادي بيك.

أخذت منشفة وذهبت إلى أمي، وشرعت أضغطها على فمها وأنفها. لم تقاوم. ربما كانت قد ماتت. "يا إلهي،" قلت وأنا أمسح السائل اللزج مرة وأخرى، لكن دون جدوى. رفعت يدها لأجد أن أظافرها قد اسودت وتبللت، وعندما نظرت إلى الأسفل، شاهدت بقعتين تفتحتا مثل وردتين سوداوين عند أصابع خفها الكتاني. "هل يمكنك أن تسمعينني؟" قلت، فيما صارت المنشفة زلقة في يدَيّ. دخلت بيك تركض وتجر مجموعة من المناشف، ذهبت إلى المغسلة مباشرة، ملأت زبدية بالماء وجلبتها لي. ومعاً غسلنا وجه أمي وعنقها بأفضل ما أمكننا. سرعان ما اسودّ لون الماء في الزبدية، وظل السائل يرشح من عينيها وفمها، وازرقّ جلدها، كما لو كانت تختنق، وبرزت الأوردة في عنقها ويديها فوق اللحم مثل مجسات منتشرة. "أمي،" توسلت إليها. "أرجوك تحدثي إليّ. أرجوك جرّبي أن تكلميني." وضعت بيك يدها على ذراعي وقالت: "لقد ماتت، يا سيدتي. لا يمكنك أن تفعلي شيئاً أكثر."

انهارت ساقي وسقطت على يدي وركبتي على السجادة. "أمي،" قلت. سقطت جديلة غير مربوطة بإحكام على خدي. كان طرفها أسود ومبتلاً إلى درجة أن قطرة كثيفة تحدرت على أصابعي المنبسطة. كان ثمة آخر في الغرفة، عرفت ذلك. شخص ما دخل. تطلعت إلى سارة وهي جالسة القرفصاء عند الباب، تجمع الصيني المكسور وتضع القطع في الصينية. "دعي ذلك،" قلت. "ودعيني أيضاً." رفعت رأسها لتنظر إليّ، كنا في المستوى نفسه على الأرضية. كانت تعض على شفتها السفلى بأسنانها العليا، وتنظر

إليّ شذراً، فكرت، بتعاطف مثل سحلية. سمعت بيك تبكي خلفي. وإذ نهضت سارة وخرجت، قلت: "بيك، ساعديني لأنهض."

❖❖ ❖❖ ❖❖

غسلت أنا وبيك جسد أمي، وألبسناها رداء كتانياً نظيفاً، ومددناها على سريرها. انتفخ وجهها بلون قرميدي، وشخصت عيناها واصفر بياضهما مثل لب الليمون. حاولنا أن نغمض عينيها، ونغطي الخط الأسود بين شفتيها بالبودرة، وأثبتنا أن جهدنا عقيم. لم أستطع أن أتحمل مشاهدتها مشوهة إلى هذا الحد، فوضعت غطاء وسادة على رأسها وغادرت الغرفة أخيراً.

بعثت رسالتين، واحدة إلى خالتي وأخرى إلى زوجي، أخبرهما بوفاة أمي المفاجئ. كانت خالتي تقيم في منزلها الصيفي قرب البحيرة، ولذلك فكرت أن أسمع منها رداً قبل الصباح. أكلت بعض الشوربة والخبز فحسب، ثم ناديت سارة لتجلس معي في القاعة وتساعدني في خياطة قطعتي قماش كفناً. أما بيك فكانت تحرق شيئاً من جلد حصان وحافره، ما قيل إنه وقاية من أنفاس الميت الناقلة للعدوى. وقد ملأ ذلك هواء الغرفة برائحة سيئة كافية لتعاقب الحي على بقائه حياً. وكانت بيك، التي هي في العادة ثرثارة، صامتة، تحرك نارها بعصاً، وتمسح دمعة من عينيها من وقت إلى آخر. إنها خائفة من السؤال عن مصيرها، فكرت، ولم أستطع سؤالها عما إذا سألت هي في الواقع، وأنا لا أعرف ما جاء في وصية أمي.

أنهينا عملنا عندما خبا ضوء النهار، فطلبت من سارة أن تشعل مصابيح الرواق ودخلت إلى المنزل. كنت متأكدة من أنني لن أنام لأنني نسيت دوائي المنوم بسبب سرعتي بالمغادرة. ولم أستطع تحمل فكرة الاستلقاء مستيقظة في غرفتي، ولكن ماذا أفعل؟ كنت متعبة من الخياطة، وأفكاري مضطربة حتى لقراءة مجلة، وبدا أنه ليس من اللائق أن أعزف على البيانو، الذي ربما كان غير مدوزن. فذهبت إلى مكتب أمي بقصد ترتيب أوراقها، مع أنها كانت أكثر الأشخاص المسنين الذين عرفتهم تنظيماً وشككت أن أجد أي شيء في غير موضعه. سمعت ابنة سارة تصرخ من المطبخ، فقلت: "أحضري لي كأساً من البورت، واجلبي تلك الطفلة وتعالي اقعدي هنا. أتوقع وصول رسالة من خالتي، وأريدك أن تردي على الجرس."

ملأت كأساً من البوفيه وجلبته لي. وفتحت درجاً أخرجت منه دفتر حسابات أمي. وقفت سارة إلى جانبي، تراقبني وأنا أقلب الصفحات. "ما هذا؟" قلت، فلم ترد وخرجت. مررت بأصبعي على عمود من الأرقام في الهامش.

بعد وفاة أبي، باعت أمي المزرعة ومعظم العبيد، واستخدمت جزءاً من الربح لشراء منزلها، واستثمرت الباقي لخلق دخل صغير. وقد ظلت تلاحق كل بنس. وأدركت في الحال أنها كانت تعيش جيداً بذلك الدخل وأنها، في الواقع، كانت تزيد رأسمالها على مر السنين. لو وضع زوجي يده على هذا المال، فكرت، فسوف يذهب في غضون شهر. وتذكرت سالي بمبرلي، التي رتبت لإنقاذ مهرها من تبذير زوجها، وعزمت على معرفة اسم محاميها.

ثم وجدت ثلاث رزم من الرسائل رُبطت بشريط أسود في درج جانبي. كانت اثنتان من شقيق أمي، والثالثة من جدتي. وشاهدت في الخلف ما بدا أولاً أنه دفتر حساب قديم آخر. كانت أطرافه مهترئة، وغلافه الجلدي البني باهتاً كثيراً. دخلت سارة مع طفلتها وجلست على الأريكة قرب الباب وأنا أفتحه. كانت الطفلة تئن بلطف، ولكن ما إن حلت أمها ثيابها حتى هدأت، ومن حين إلى آخر كانت تطلق أصوات تلمظ من شفتيها، مثل رجل يتذوق وجبته. برعشة، ميزت كتابة يد أبي، كتب صفحة بعد صفحة في مواعيد متقاربة، وأرّخ كل مدخل فيه. كانت يوميات، بدأت قبل سنتين من وفاته. يا لها من ثروة، فكرت، لكن لم يكن لديّ لحظة لأقرأ حتى جملة واحدة قبل أن يقرع الجرس، وتنهض سارة مبعدة الطفلة عن صدرها، وتزرر الجزء الأعلى من ثوبها في طريقها إلى الباب. أغلقت يوميات أبي، وأنا أفكر بتفحصها في وقت ما أكثر هدوءاً. عادت سارة إلى الغرفة، يتبعها صبي عرفت أنه من خدمنا. "يريد أن يمكث الليلة هنا،" قالت. "فقد تأخر الوقت كثيراً بالنسبة له ليعود."

"هل لديه إذن مرور؟" سألت.

أخرج الصبي قطعة ورق مقوى من جيبه قدمها لي وقال بجرأة: "قال السيد عليّ أن أبقى. فالسيدة ستبعث رسالة معي صباحاً."

قلت: "لقد سبق وكتبت إليه، ذهبت رسائلي."

نكس الصبي رأسه، وهو يسترق نظرة إلى الغرفة في الوقت نفسه.

"حسن،" قلت، وأنا أزيل خاتم الرسالة. "يمكنك البقاء."

"نعم، سيدتي،" قال.

قرعت الجرس لـ بيك، التي دخلت مغطاة بالطحين، فقلت لها: "سيمكث هذا الصبي هنا الليلة."

"أين سينام؟" قالت بيك وهي تعاين الصبي. "هل على طاولة المطبخ؟"

"دبري له آي مكان،" قلت، وأنا أخرج الصفحة الواحدة من المغلف الذي جلبه. وفيما لحق الصبي بـ بيك إلى مملكتها، اقتربت أنا من المصباح لأقرأ كتابة يد زوجي غير المقروءة. ليت كان لديَّ مثال من أسلوبه في الكتابة قبل أن أوافق على الزواج منه. لكنه كان حذراً في إرسال الرسائل الأكثر إيجازاً، يبلغني فيها بمواعيد قدومه ورحيله المتوقعة إلى البلدة ومنها فحسب. وعلى نحو أحمق حسبت أن إيجازه دليل على أنه رجل قضايا، بيد أنني الآن أعرف أن ذلك بسبب غبائه ولأنه لا يستطيع أن يفكر إلا ببضع كلمات يجب أن يقولها. وهذه الرسالة الخطية، رغم قصرها، كانت استثنائية وصريحة وبليغة:

عزيزتي، مأسف،

أكتب إليك لأخبرك بالأحداث التي وقعت بعد رحيلك. كما حدثتك شاركت في الدورية إلى تشاترلي. وقد ألحقنا هزيمة منكرة بـ ١٥ زنجياً في المستنقع. قتلنا عشرة، وينتظر خمسة المحاكمة. كان القائد خلاسياً شريراً من بليكماينز هرب من سيده قبل أربعة أعوام. لم يُصَب أحد منا بأذى جدي، غير أنني آسف لأبلغك بأنني

سقطت عن جوادي وقد تأذى كاحلي بشكل سيئ. وأستعيد عافيتي ببطء. أنا واثق من أنك وصلت إلى البلدة بأمان، وأدعو الله أن تكون صحة أمك قد تحسنت. تصلنا بعض التقارير المقلقة. أتوقع أن تصلني رسالة منك مع هذا الرسول وأتطلع إلى عودتك المبكرة.

مع مشاعري المُحبة،

كان توقيعه، كما هو دائماً، مكوناً من حروف اسمه الأولى مخربشة لتجعله غير مفهوم بالكامل.

طرحت الرسالة فوق يوميات والدي، ثم دفعتها خارجها، كان إحساسي قوياً أن أحدهما يجب ألا يلمس الآخر. أَرَحت رأسي بين يدي، وفجأة ثارت شجوني، وضاق صدري، واتقد وجهي. فقد روعني كل شيء في الرسالة: النبرة ذات المظهر المتنازل، والإعجاب بالنفس الخالي من السحر، والأمر بلهجة متواضعة في النهاية، والتوازن بتظاهر سخيف بدفء التحية والإنهاء. كانت رسالته نموذجاً مصغراً عن النصب التذكاري للزيف الذي صنعه في حياتي. اغرورقت عيناي بالدموع، ولم أبذل جهداً لأحبسها. فليس ثمة أحد ليساعدني. عندما كانت أمي على قيد الحياة، كان لدي أمل، مهما كان تافهاً، بأنها قد تتفهم ما أتحمله، وتقف إلى جانبي، وقد انتهى هذا الآن. كيف لي أن أرتب مراسم دفنها؟ فكرت باهتياج. لماذا لم تكتب خالتي لي لتخبرني ما عليّ أن أفعل؟ نظرت حولي بقنوط، وأنا أمسح عينيّ بكمي.

كانت سارة هناك في الظل، تراقبني. وكان الجزء الأعلى من

فستانها منفتحاً، وصدرها عارياً، والطفلة ترقد ساكنة في حجرها تتنفس بسلام، فمها الأسود ينفتح على لسان قرنفلي منبسط. ألقت رأسها على ظهر الأريكة، وغضت نظرها، وأرخت كتفيها. بَرنَزَ ضوء المصباح الخافق بشرتها ولألأ عينيها مثل حجارة مبللة سوداء. وهي هادئة جداً.

مسحت آخر دموعي وأنا أنظر إليها، ورأسي مُثقَل بالألم. لماذا تركها تحتفظ بتلك الطفلة؟ فكرت. ماذا فعلت لتجعله يوافق، ما الصفقة التي أبرمتها، وما الوعد الذي قطعته له؟

وبعدئذٍ، وكما لتجيبني، تشكلت قطرة بيضاء عند حلمتها وعلقت هناك. لم تقم بحركة لتمسحها، وفي الحقيقة بدت كأنها لم تشعر بها. أغمضت عينيها ثم عادت وتطلعت إليّ بثبات.

وعدت أن تقدم له المتعة التي يطلبها، فكرت.

كانت الغرفة تختنق، وبدا الهواء ثقيلاً جداً إلى درجة يكاد يسد فتحتي أنفي. توهمت أنني أستطيع شم التفسخ الذي أخذ يجري في جسد أمي هناك في غرفة نومها، مع أننا غسلناها أنا وبيك بالعطر قبل عدة ساعات فقط. عندما نهضت، دار كل شيء حولي فتمسكت بالكرسي. *تلقينا تقارير تثير القلق*، فكرت، وكان بإمكاني سماع صوت زوجي الشبيه بالنخير. ثبّتُ نفسي وقمت بعدة خطوات نحو الظلال حيث قعدت سارة، وقلت: "ضعي الطفلة جانباً."

انحنتْ إلى الأمام، وهي ترفع المخلوقة النائمة من على كتفها وتزلقها إلى الوسادة بجوارها، حيث همهمت بصوت ضعيف، وحركت إبهامها إلى فمها، وعادت ثانية إلى النوم. *آسفة لأنك*.

Sample

العالم زوجي مليء بالتقارير. لقد رتّب ليستخدم الكلمة مرتين في رسالة من عشرة أسطر. تصورته وهو يعرج في غرفة الطعام على كاحله المتأذي. عندما سنعود سيستخدم سارة لمساعدته. لو كان هو الميت، فكرت، وقلبي يتألم في صدري.

جلست سارة وهي منحنية ويداها مضمومتان في حجرها وعيناها مستقرتان على الطفلة. كانت قطرة الحليب ما تزال عالقة على حلمتها السوداء، وقد بدت لي مثل شيء عجيب لأنها كذلك. جثوت على السجادة أمامها وأرحت يديّ على معصميها. شعرت برقة عظامها الناعمة المدورة تحت نسيج كميها الرقيق. وانحنيت إلى الأمام حتى صار فمي قريباً من صدرها، ثم مددت لساني لأغتنم تلك القطرة.

ذابت بسرعة، لم تترك إلا أثراً من حلاوة. رفعت يدي، وكوّرت ثديها مثل كوب، الذي كان أخف مما فكرت. بدا أنه ينزلق من بين أصابعي، غير أنني أدرت الحلمة إلى شفتي ومصصتها بلطف. لم يحدث شيء. أخذت الحلمة أعمق إلى فمي ومصصتها. هكذا يفعل، فكرت، وفجأة ضربت دفقة حادة ودافئة حنجرتي وقد بلعتها لأتفادى الاختناق. كم كانت مركزة وكم كانت حلوة! غمرني إحساس مطلق بالغرابة، وصارعت لئلا أضعف. استطعت أن أرى نفسي أركع هناك، وخلفي الغرفة حيث كان يرقد جسد أمي، ومع ذلك بدا لي أنها لم تكن متوفاة، تقدم شاهداً مريعاً على فعلي. ووراء ذلك استطعت أن أرى زوجي في مكتبه، وهو يرفع رأسه عن كتبه بشك لا يبعث على الراحة أن شيئاً هاماً لم يكن يُجمَع. وهذه

الرؤية جعلتني أبتسم. فأغمضت عيني وأنا أمص حليبها بشراهة. أدركت أنني أسمع صوتاً وآهة، لكنني لم أكن متأكدة عمن كانت صادرة عني أم عن سارة. كم شعرت بالروعة، وكم أحسست بالحرية. تلاشى صداعي، واتسع صدري، وشعرت بوخز مكمل في ثديي. فتحت عيني ونظرت إلى هيئة سارة. كانت ترفع ذقنها أبعد ما يمكنها مني، وأخذ فمها شكل خط دقيق وحاد، وعيناها مركزتان بدقة على ذراع الأريكة. كانت خائفة من النظر إليّ، كما ظننت. وكانت على صواب في فعل ذلك. فلو نظرت إليّ، لصفعتها.

أطلق الجرس صوتاً شديداً إلى درجة أننا، كلتينا، وثبنا على قدمينا. استدرت نحو المكتب، وأنا أمسح فمي بيدي، أما سارة فزررت ثوبها بسرعة وذهبت إلى الباب وهي تنظر إلى الخلف لترى أن طفلتها آمنة على وسادتها. سمعت المزاليج تُسحَب وصرير مفصلات المصراع، ثم صوت خالتي قادماً نحوي. "يا عزيزتي المسكينة،" قالت وأنا أتقدم نحوها وضمتني. " لا بد أنك مررت بوقت عصيب. انظري، إنك شاحبة كالأكفان. لقد أتيتُ فور تلقيّ رسالتك."

❖❖ ❖❖ ❖❖

ليس سهلاً ترتيب جنازة محترمة في بلدة نصف سكانها أموات والنصف الآخر في رعب دائم من الموت، وعلى نحو يدعو للشفقة هيأت خالتي نفسها للمهمة فوراً. فأرسلت إعلاناً إلى الجريدة، وطلبت تابوتاً وعربة نقل موتى خاصة، وأعلمت المقبرة بمراسم الدفن

المقترحة. كنت سأفضل أن أدفن أمي في سانت فرانسيسفيل مع أبي وشقيقيّ الصغيرين، لكن لم يكن ثمة وقت، ولا مكان لها هناك، وهكذا يجب أن ترقد هنا لتستريح في سرداب كنيسة بتري مع أمها وجديها من طرف أمها. وضعت أنا وخالتي قائمة بأقارب أمي وأصدقائها، وبينما خرجت هي لتدعو الكاهن، أرسلت أنا البطاقات إلى هؤلاء الناس، وأضفت اسم جويل بوردن لأنه كان لطيفاً مع أمي، وكانت هي مغرمة به. وقد شككت أن يكون في البلدة، فطلبت أن يُعلَم عند عودته.

كنا قد انتهينا للتو من طعام الغداء عندما وصلتني رسالة ثانية من زوجي. كانت بأسلوبه الرسمي، كما لو أنه أحد معارفي منذ وقت قصير، فقد أشار إلى أمي بالسيدة غراي. قرأت، باطمئنان، أنه لن يكون قادراً على حضور الجنازة بسبب الأذى الذي لحق به مؤخراً والحاجة الماسة إلى إصلاح المعصرة. كم بدت حياتي معه نائية منذ وقت طويل وأنا أقرأ بصوت عالٍ تعبيره عن الأسف وتعاطفه مع خالتي.

ولاحظت خالتي: "هذا جيد، لا نريد أن ينتزع هذا الطاعون شخصاً آخر. ويجب أن نغادر جميعاً حالما ندفن أختي المسكينة إلى أن تتغير الأحوال الجوية."

لكن ليس لديّ رغبة بالرحيل.

ذهبت أنا وخالتي لتكفين جثمان أمي عند الغسق. وقد ضغطت خالتي على ذراعي وقالت بطريقة مهيبة: "مانن، لقد رأيتُ كيف يشوِّه هذا المرض ضحاياه. أرجو أن تتفهميني إذا قلت إنني أفضل ألا

أرى وجه أختي."

"لا أستطيع أن أتمنى لأي شخص يهتم لها أن يشارك الذكرى التي لديّ،" قلت بصدق، وهي تمسح خدي بتعاطف. تركنا غطاء الوسادة يغطي وجه أمي، وزلقنا الكفن فوق جثمانها، وغرزناه عند قدميها.

جلسنا في الرواق وقمنا بأعمال الخياطة إلى أن حلَّ الظلام. لقد كنت مرهقة وأفسدت عملي جداً، وشققت كثيراً من الغرزات بينما أتحدث. فالحت خالتي وهي تراقب فشلي أن أذهب إلى النوم. وفيما عبرت غرفة الطعام سمعت بيك وسارة تتحدثان بهدوء في القاعة. كانت بيك لا تزال تبكي، كان ثمة شيء من الدموع عالق في صوتها. ما لم تكن أمي قد رتبت خطة أخرى لها، فكرت، فهي لي الآن. وكانت سارة تخبرها أن حياتها ستكون صعبة عندما تأتي إلى الريف. في الحقيقة كرهت أن أحضرها إلى المزرعة لأنها لن تتفق مع دلفين، مع أنهما تتشابهان كثيراً. لسنا بحاجة إلى طباخ مشاكس. "وفم آخر لنطعمه،" قلت وأنا أنهار على السرير، في نوم دون أحلام.

❖❖ ❖❖ ❖❖

كانت الأبخرة الكريهة في غرفة المريض إعداداً غير ملائم لرائحة الطاعون المزعجة في المقبرة، ومع هذا فقد بادرنا الزنوج الأحرار، الذين برزوا كممونين لفطائر اللحم وشراب اللوز، بالكلام عند البوابة. تبادلنا أنا وخالتي نظرات مشككة، ونحن

نضغط محارم اليد على أنفنا تحت نقابنا، بينما لحقت عربتنا عربة الموتى إلى ما بدا لي أنه المدخل عينه إلى جهنم. فحيث نظرنا، كان ثمة نعوش من خشب الصنوبر غير المصقول مبعثرة في مجموعات، بانتظار حفاري القبور. وقد تحطم بعضها وانفتح عند رميه من العربة معرضاً ما احتواه لأسراب هائلة من الذباب. شاهدت صندوقاً، انقلب على جانبه، خرجت منه حزمة من الشعر الأسود إلى الوحل. كان هناك أهرامات من العظام عند كل معبر، أُخرِجت وكُدِّست لتفسح مكاناً للواصلين الجدد. وقد عمل الحفارون الإيرلنديون الأجلاف، وهم يلعنون الأموات، برفوشهم بكد في المياه العميقة حتى الركب. أشارت خالتي بلهفة إلى زوجة وزوج في ثياب الحداد، وقد أخفت الزوجة وجهها بين ذراعي الرجل، وهو ينظر بعينين دامعتين إلى زنجيين وقفا عند نهايتي نعش عائم يحاولان أرجحته في القبر المائي. كم كنت ممتنة أن عائلة أمي تمتلك مدفناً، اشتراه جدي بعد فيضان ربيعي أرسل الأكفان طافية إلى شوارع بلدة كاريه. ففي مدينتنا، كما يقول عمي، تحت الأرض يعني تحت الماء.

لم يكن المشهد في هذا المبنى أقل ترويعاً. فقد كان هناك غربلة عامة للأموات في المداهن ورُميت العظام إلى الممر، وهكذا اضطررنا إلى الترجل من عربتنا بانتباه لئلا نكنس بعض الأصابع أو عظام الفخذ بحواشي ثيابنا في الطريق. ولخلاصنا، وصل الأب فرانسوا، وكان المدفن مفتوحاً، ووقف ثلاثة من الزنوج مستعدين لنقل رفاة أمي إلى مكانه. تمسكت خالتي، التي أضعفتها الشمس

وأمرضها الجو، بذراعي عندما اقتربنا، فأسرع الكاهن إلى مساعدتها، وهو يهمهم بعزائه إليّ حتى عندما أشار إلى الرجال لنقل الجثمان من عربة الموتى. لم أستطع الكلام. فكرت كم أحبت أمي المسكينة الأب فرانسوا، ويشكّه في ما سماه هو "خرافة أمك." عمل الزنوج خلفنا فرفعوا التابوت على أكتافهم، ثم دفعوه إلى مكانه بكثير من التأوه والتعرق، وتراجعوا بعيداً، وحرص رئيسهم على المرور قريباً كفاية من خالتي ليستلم الفاتورة المطوية بعناية التي أخرجتها من كمها. تلا الكاهن بعض الصلوات باللاتينية، ورسم إشارة الصليب، التي قلدناها أنا وخالتي مثل القردة، ثم انتهينا، وكل منا يتوق إلى مغادرة المكان بأسرع ما يمكن، خشية أن نستشق ما قد يبقينا هناك إلى الأبد. وحالما أخذنا مكاننا في العربة، أغمضت عيني وأبقيتهما مغمضتين حتى شعرت بأن الأحصنة تحرك خطواتها عند البوابة.

كانت ثمة كتل من غيوم داكنة تلتف من الشمال، ووميض برق تبعته أصوات رعد خفيضة وبعيدة. وفي الوقت القصير الذي استغرقته العودة إلى البلدة، احتجبت الشمس وانخفضت درجة الحرارة بشكل ملحوظ، وانتشرت بعض القطرات على عتبة النافذة. رفعت خالتي برقعها ونظرت إلى الخارج مفعمة بالأمل، وقالت: "ربما استجيبت صلواتنا." الأمر الذي أضحكني. يصلي الناس دائماً من أجل تبدل المناخ و، كما ينبغي في النهاية، يستخلصون أنهم كانوا مؤثرين في ما هو أمر محتوم عملياً. زوجي يحثني دائماً على الصلاة من أجل المطر أو، بعد أن يأتي، للصلاة من أجل إيقافه.

Sample

ثم تساقطت قطرات أكثر وأكثر. وعند انعطافنا إلى شارع القديسة آنّ كانت السماء تمطر وابلاً. شكمنا الأحصنة حيث انزعجت من رؤية الباب مشرعاً على مصراعيه وسارة واقفة خارجاً تحت ظلة الباب، في محادثة عفوية مع خلاسي لم أعرفه. "يا للدهشة، إنه السيد روجيه،" لاحظت خالتي. ورفعت حاشية ثوبها استعداداً للنزول.

"ومن هو السيد روجيه؟" سألت خالتي متجهمة من هذا الشخص الذي كانت لديه الوقاحة لتتكيس قبعته لي قبل أن يستدير ويمشي مبتعداً. أما سارة فقد انسلت إلى ظلال المدخل.

"إنه الشخص الذي أراد أن يشتري سارة من عمك،" أجابت. "كان شخصاً مزعجاً تماماً في الموضوع، ومع ذلك كرهت فقدانه. إنه شخص ودود ومعماري ممتاز. يجب أن تري رخامه الصناعي، إنه رائع." وبعد أن تركتني مع هذا الخبر، الذي أغفل رد عمي على دعوى السيد روجيه، نادت على الحوذي ليأخذ يدها، وقفزت برشاقة عبر الوحل إلى الرصيف.

❖❖ ❖❖ ❖❖

سقط المطر بشدة طوال الليل، وفي الصباح كان الهواء بارداً والسماء زرقاء شاحبة والمدينة في مزاج احتفالي. تطلعت إلى الخارج أمام الباب لأرى جيراني وهم يشربون القهوة في شرفتهم بينما يهتز منزلهم بصليل الأبواب والنوافذ التي كانت تُفتَح حولهم. وفي الحقيقة، كان ثمة ترجيع صدى صليل المفصلات وطقطقة الخشب

على الخشب ونداء التحية من حين إلى آخر كما لو أن الجيران رأى أحدهم الآخر لأول مرة منذ أسابيع على طول الشارع من أوله إلى آخره. دخلت خالتي بثياب الكنيسة، تضع قمازاتها وأعلنت مبتهجة: "سأذهب إلى القداس لتقديم الشكر، ألن تذهبي معي؟ سيكون الجميع هناك."

"لا، شكراً،" قلت.

"لا أدري كيف تتدبرين شؤونك بدون عزاء الإيمان."

"ومع ذلك فأنا أتدبر أموري،" قلت وأنا أبتسم غير راغبة بإزعاجها. لقد امتدح أبي الخالة ليليا وقال إن باستطاعتها أن تمارس فضيلة الدين، وكان ذلك تقديراً عالياً.

فقالت وهي قادمة لتقبل وجنتي: "حسن، سأصلي لك، يا عزيزتي، ولروح أمك المسكينة التي صعدت إلى السماء." دخلت سارة تحمل صينية الفطور. "في غرفة الطعام،" قلت ملوّحة لها أن تعود. ولحقت بخالتي إلى الباب وشاهدتها تنضم إلى تيار الراجلين عند زاوية الشارع، الذين لبسوا ثياباً أنيقة، وحيّوا بعضهم بعضاً بابتهاج. فكرت، لن يعترف أحد بالسبب الحقيقي لابتهاجه ويقول ما يشعر به للآخر: "لقد مات الآخرون، لكنني ما زلت حياً." عدت إلى غرفة الطعام وأخذت شريحة خبز من الصحن. وناديت سارة، التي ظهرت في الباب، وقد غضت طرفها.

ظلت تتحاشاني منذ ليلة وفاة أمي، تختبئ في المطبخ أو تبقى في غرفتها الحارة مع طفلتها، وتظهر فقط عندما تُنادى. بلعت الخبز وأنا أراقبها. بدت أنها تجسأ أمام عيني لتصبح حجراً، حتى أن

عينيها لم تطرفا؛ إنها لعبة تمارسها. قلت: "يجب أن تعلمي أنه غير مسموح للخدم أن يستقبلوا زوارهم عند الباب."

"نعم، سيدتي،" قالت، وهي تحرك شفتيها ليس إلا.

جلست إلى الطاولة واقتطعت قطعة صغيرة أخرى من الخبز، وقلت: "صبي لي بعض القهوة."

رفعت الإبريق وانحنت فوقي وهي توجه التيار الأسود الحار إلى كوبي. كنت متأكدة من أنها تعلم أنني عرفت كل شيء عن السيد روجيه، ومع هذا سألتها: "من الرجل الذي كنت تكلمينه البارحة؟"

"اسمه السيد روجيه،" قالت، ونظرت حولها نظرة خانعة وهي تتوقع الأسوأ.

"وما الذي جاء به إلى هنا؟"

وضعت الإبريق على المنصب بحذر ثم تراجعت إلى حيث لا أستطيع رؤيتها، وقالت: "أرسله أخي ليخبرني أنه حصل على عمل في المرفأ."

"من الذي حصل على عمل؟ هل السيد روجيه؟"

"لا، يا سيدتي، أخي. لقد استؤجر من سيده ليعمل في المرفأ."

"وما اسم أخيك؟"

"كلارينس."

رشفت شيئاً من قهوتي. آخ، فكرت. يا له من اختراع ذكي. وتساءلت عما إذا اخترعته لتوها أو إذا كانت قد اخترعته مع السيد روجيه. "دعيني،" قلت. "اذهبي وقولي لـ بيك أن تساعدك في فتح

مصاريع الأبواب والنوافذ."

❖❖ ❖❖ ❖❖

تُركت ملكية أمي لي بالكامل، وكانت أكبر مما توقعت. فقد احتفظت بورثة صغيرة لي لا أعلم عنها شيئاً، وقد نمت على نحو مثير للإعجاب. وبالتالي سأحصل على البيت والأثاث وعلى دخل كافٍ لأعيش براحة، وعبدين: بيك وغلام اسمه إسيّا الذي أجّرته أمي لخباز في البلدة. كل هذا لي، وليس لي أيضاً، لأن زوجي يستطيع، دون ريب، أن يتصرف به حالما أستطيع الحصول عليه. "ألا توجد طريقة للحفاظ عليه لي شخصياً؟" جادلت المحامي.

"لا، ليس ثمة طريقة ما لم تطلقي زوجك،" قال. "وذلك قد يستغرق سنوات. وفي ذلك الوقت سيملك السيطرة على الممتلكات."

جلست خالتي إلى جانبي، وقد زمت شفتيها بشدة، وحاولت أن تسد الطريق على كلمة "طلاق" بإغماض وفتح عينيها.

"وطبعاً عندما يموت زوجك ستؤول الملكية لك،" طمأنني المحامي.

"إذا بقي شيء منها،" قلت.

وفيما غادرنا مكتب المحامي قدمت الملاحظة التالية لخالتي: "القوانين مصممة في هذه الولاية لتحرض المواطنين على القتل."

فرمقتني خالتي بنظرة مستهجنة، وقالت: "ملكية المرأة لزوجها، هكذا هو الأمر في كل مكان."

"زوجي لا يريد بيك. ماذا عليّ أن أفعل بها؟"

"بيك مشكلة،" وافقت. "تعالي واشربي القهوة معي، وسنناقش المسألة."

طلبت وصية أمي أنه يجب ألا تباع بيك في السوق، أو توجر لأية مؤسسة، وبالتالي ألا يطلب إليها أن تغادر المدينة، وكما، كتبت أمي، "تعاني بيك من رهاب الحياة في الريف."

"ليس لدي رغبة باستبقائها،" أخبرت خالتي عندما جلسنا في غرفة جلوسها. هل تأخذينها لخدمتك؟"

"لا،" قالت. "فخادمي إينس طباخ ماهر. والحقيقة غير المشجعة هي أن بيك ليست رئيسة طهاة بارعة."

"تقول دلفين: إنها تستطيع إتلاف الحليب بمجرد النظر إليه،" قلت.

ابتسمت خالتي. "اعتادت أمك المسكينة أن تستعير إينس لحفلات عشائها مرتين وثلاث في الشهر، وكلما تناولنا أنا وعمك العشاء خارج البيت."

"كان ذلك كرماً منك،" قلت.

"كان ذلك تبادلاً،" أوضحَتْ خالتي. "كانت بيك تقضي المساء في مطبخي الكبير تقوم بالطبابة لنا جميعاً. لا أحد يستطيع أن يتحمل البقاء في البيت عندما كانت تقوم بذلك."

"كانت أمي تثق بطرق علاجها،" وافقت.

"أستخلص شيئاً مفيداً من صندوق أشرتها باستمرار."

"إنها لا تفعل أي شيء غير أن تبكي،" قلت. "ظن أنني سآخذها إلى بيتي وأجعلها طباخة للعاملين في الحقل."

"قد يسبب ذلك عصياناً من حين إلى آخر،" ضحكت خالتي ضحكة خفيفة.

"هل تعرفين كم عمرها؟"

"لم تكن بنتاً عندما جلبتها أمك، وكان ذلك منذ عشرين عاماً. أخمن أن يكون عمرها خمسين أو خمس وخمسين سنة."

"لن تجلب مائة دولار في السوق."

"لا،" وافقت خالتي. "ليست ذات قيمة."

رشفنا قهوتنا. شعرت بالطمأنينة والبهجة، مثلما فعلت ذات مرة. فالأثاث والسجادة في غرفة جلوس خالتي كل ذلك ذكرني بأوقاتي الأكثر سعادة. وحتى النموذج الورقي على صحن القهوة بدا وكأنه صُمِّم خصيصاً ليبعث السرور في نفسي. "يجب أن تبقى مع شخص ما مثل أمي،" أجملت القول. "أرملة، تعيش وحيدة."

"وشخص لا يهتم بالطعام،" أضافت خالتي. "لا أفكر بأحد في العائلة."

قلت: "أفترض أنه يجب أن يكون ثمة أحد ما نقدمها له."

"ذلك يبدو السياق الأفضل."

"هل يوجد أحد ما بين الجيران؟"

بعد لحظات قليلة من التفكير، ردت خالتي: "لا أعرف أحداً. لكن يمكنك أن تسألي بيك، ربما كان لديها فكرة ما عما ستفعل هي نفسها."

❖❖ ❖❖ ❖❖

ولدهشتي، كانت خالتي محقة. فعندما دعوت بيك إلى الرواق، وكنت مستعدة لمشهد من الدموع والحزن، لكن حالما أخبرتها بشروط وصية أمي، جفت دموعها وأظهرت اهتماماً شديداً بمصيرها، وقالت: "ستأخذني السيدة فافروت للعناية بأمها. بيتها على مبعدة ثلاثة مبانٍ من هنا."

"كيف يمكنك أن تكوني واثقة من ذلك؟"

"ابن أختي يعمل في منزلها. وقد تحدث عني فقالت سيدته أنها ستأخذني، لكنها لن تدفع ثمناً عالياً."

"هل تعرفت على هذه السيدة؟"

"جلبت دواء لابنها ذات مرة. كان يعاني من الخناق. وقد شعر بالتحسن في حين لم يستطع الأطباء فعل شيء له."

"بيك، هذا ممتاز،" قلت. "سأكتب لهذه السيدة اليوم، وأنت ستنقلين الرسالة." فطأطأت رأسها عدة مرات وخرجت، وهي تطوي منديلها وتسوي تنورتها، دون أن تكترث بتقديم كلمة شكر واحدة.

❖❖ ❖❖ ❖❖

كان الجو بارداً في المساء إلى درجة أنني أوقدت النار في القاعة. وقد جلست في مكتب أمي بقصد مراجعة يوميات أبي. ولأول مرة شعرت أنني مالكة البيت، وهو إحساس مريح، لا يشبه أي شيء عرفته سابقاً. أخرجت الدفتر الجلدي وفتحت على الصفحة التي كتب فيها أبي التاريخ واسمه، مطبوعان بأحرف كبيرة متقنة، ج.

بيرسي غراي. سرت رعشة من فرح في حبلي الشوكي، كما لو أن أبي كان هناك في الغرفة، مع أنه غادر هذه الأشياء منذ خمسة عشر عاماً.

عدت إلى المدخل الأول وقرأت وصفاً لحالة الجو، والعمل الذي جرى في الحقول، والفواتير المدفوعة، وإشارة موجزة لزيارة من أحد الجيران. غطى هذا المدخل نصف صفحة. وكانت التالية مماثلة في الأسلوب والمحتوى. ومضيت قدماً في مطالعة يوميات أبي ووجدت أن المداخل متماثلة كثيراً في الطول وتحمل العناوين نفسها - حالة الجو، المحاصيل، الصيد البري أو صيد السمك، أمراض الحيوانات والعبيد، النفقات، الحاجات التموينية المشتراة. يوماً بعد يوم. شعرت بالإحباط من بلادة هذا السجل. كان أبي مفعماً بالطاقة، وبدا لي مستحيلاً أنه لن يقدم وصفاً متميزاً عن حياته أكثر من قائمة العمل هذه والانشغال في هذه الأمور البيتية. ولكن لِمَ احتفظت أمي بهذا الدفتر، إذا لم يكن ثمة فائدة فيه؟ قلبت الصفحات وأخذت أقرأ على نحو عشوائي. خبر عن حريق في معصرة أحد الجيران. العاملون بقطاف القطن التافه لا يعملون جيداً. ثلاثة أيام من المطر الغزير تفسد الحبوب المخزونة. زيارة من طبيب، وأخرى من وكيل تجاري. لا إشارة إلى أمي أو لي، كما لو أننا لم نوجد. فرقعت إحدى حبات الفحم وأطلقت شرارة إلى القرميد. تطلعت إلى النار تاركة الصفحات تسقط حيثما اتفق، وعندما عدت للنظر ثانية قرأت هذه الجملة: *لقد اعتذرت لزوجتي العزيزة عن فشلي، لكنها تقول إنها لا* تستطيع أن تغفر لي اليوم ولن تفعل في المستقبل.

بالنسبة لفشلي. قرأت المدخل باهتمام: ٢٣ أيار، الجو صحو، برودة غير معتادة في الصباح. رمي القطن في هذا الجانب من الخليج الصغير. إعادة زراعة الذرة. أفسد قمل النبات قسماً من المحصول، أكل كل الأجزاء العلوية، وتوقفت عن النمو. جاء الطبيب وايت لمعاينة مرضاي، سبعة بالعدد. أخشى أن العجوز برنز لن يتعافى. لقد اعتذرت لزوجتي العزيزة عن فشلي، لكنها تقول إنها لا تستطيع أن تغفر لي الآن ولن تفعل في المستقبل.

اهتم المدخل التالي والذي تلاه بالمحصول وحالة الجو ورحلة صيد سمك ورحلة إلى البلدة من أجل عمل لدى هيئة المحلفين. صفحة أخرى أشارت إلى كلب بالكاد تذكرته: كلبي العجوز المقعقع قد أقعد تماماً، لقد اضطررت إلى قتله دون ألم. أين الله الذي سيخلصنا من تعاستنا. تطلعت أكثر، وأنا أتصفح الصفحات، لكنني لم أجد ما يشير أكثر إلى هذا الفشل. وعند النهاية كان هناك مدخل أجمل: *زوجتي العزيزة، الغاضبة كثيراً لن تغفر لي.* كان ذلك بعد ستة أشهر. شغلت اليوميات نصف الدفتر فقط. والمدخل الأخير كتب قبل أيام قليلة من موته وحسب، وقد قرأت: *برد، رطوبة، بذر الشوفان، عدد من الأوز البري، حرق مجموعة من جذوع الأشجار، ثلاثة مصابين بذات الرئة، بؤس في الأكواخ والمنزل، مطر في الليل.*

أغلقت الكتاب. عندما مات أبي لم تغفر له أمي شيئاً ما، فشلاً ما، والآن لن أعرف ما هو أبداً.

بعد موته، لم يكن لدى أمي ما يعزيها. ومرّ شهر قبل أن تتكلم

إلى أحد غير أختها وغيري. وقد أصرت على أن الحريق لم يكن حادثاً عفوياً، وأن أبي قد قتل عمداً. نمت في غرفتها وسمعتها تنادي اسمه في منامها كل ليلة. وأفقت ذات مرة لأجدها واقفة فوق سريري، وهي تصارع لتحل ياقة ردائها العليا وتهمس بقسوة: "بيرسي، بيرسي،" كما لو أنها قد فكرت أنه يخنقها.

أعدت الكتاب إلى الدرج وانتقلت إلى كرسي أقرب إلى النار. وكان ثمة صورة لأبي فوق الطاولة المجاورة لي، شاب أمريكي وسيم، شعره الذهبي الكث مضفور فوق جبهته الناعمة، وعلى شفتيه ابتسامة مترددة. كان لتوه قد تزوج امرأة جميلة من أصل فرنسي، ضد رغبة عائلتها، وانتقل معها إلى مزرعة صغيرة اشتراها في غرب باريش فيليزيانس. كان لديه قليل من المال، لكنه امتلك الطموح، كان شجاعاً وغير مؤمن وذا مبادئ ولطيفاً. وقد حقق نجاحاً في مشروعه، ليس ثروة، بل مؤسسة وطيدة، ليست مدينة. ما هو ذلك الفشل الغريب الذي أدين به ولم تجد أمي في قلبها مغفرة له؟ هل فشل في أخذ رغباتها في جميع المسائل التي تتعلق براحتها؟ هل فشل في مسامحة تدينها الذي صدمه باعتباره خرافة مؤذية؟ هل فشل، ربما، في جلب هدية ما لها عندما ذهب إلى المدينة؟ كم مرة رأيته ينهض عن الطاولة ليقطع لها شريحة من الخبز أو يجلب لها كوباً من القهوة، صارفاً الخادم لأن خدمتها تمنحه الفرح، كما قال؟ هل مضى أي يوم لم يطرِها فيه، أو يذعن لها، أو يسأل عن خيارها أو رأيها؟ كيف كان ممكناً أن تدعه يعيش مجرد ساعة من الوقت مع التأكيد على أن لديها شكوى ضده؟

Sample

جثمت الرسالة الأخيرة من زوجي إلى جوار صورة أبي، أمر مقنع قليلاً للعودة فوراً إلى بيته وجلب مال أبي معي. تذكرت آخر كلمات أمي لي، شكواها من أنني فشلت كزوجة لأنني تجاهلت واجباتي لزوجي. كيف أمكنها أن تعنفني، في حين أنها وجدت خطأ مع زوج لم يسبب لها القلق للحظة واحدة، والذي كان مخلصاً، ثابتاً، مجداً، محباً، كل ما يفتقده زوجي؟ لا، لا أعترف بواجب اتجاه الرجل الذي أجبرني على العيش هذه السنوات العشر في عصفورية جشعه وانحرافه وشبقه. كانت النار في الموقد تشتعل ببطء لكنني لم الاحظها. شيء آخر كمن في قلبي. جلست إلى وقت متأخر في الغرفة الباردة أرعاه وأطعمه حتى أشعلت الشرارات المادة الجافة السريعة الاشتعال في غيظي، وكان ذلك كما لو كنت أجلس في فرن.

❖❖ ❖❖ ❖❖

لا يوجد خلاص، ومع ذلك كيف يمكنني أن أكيّف نفسي، في الوقت الذي ينكرني فيه العالم ويضايقني بالإغراء والمنع عند كل منعطف في حياتي. عند العصر، في الوقت الذي وقفت فيه وكماي مرفوعتان أراقب تنظيف المنزل، تلقيت رسالة من خالتي تدعوني للعشاء. *جويل بوردن زارني هذا العصر*، كتبت على ظهر البطاقة. *وسينضم الينا بعد العشاء ليقدم تعازيه اليك.*

"اذهبي إلى خالتي في الحال،" أمرت بيك. "بلغيها أنني سآتي في الساعة السابعة. واطلبي منها أن تعيرني شالها الكشمير الأسود." ثم

أوقفت سارة عن نفض السجادات وأمضيت بقية اليوم أغسل شعري وأجففه.

سررت على نحو أحمق لشعوري بخفة غير ملائمة كما لو أنني ذاهبة لحضور مناسبة احتفالية، لكنني ما إن جلست إلى جانب عمي في غرفة طعام خالتي حتى تُبْتُ إلى رشدي. كان قد عاد لتوه من زيارة مستوطن يعمل وكيلاً له ولا يزال تحت عبء صدمة وفاة أمي المفاجئ. أخذ يدي بإحدى يديه، ويجفف بالأخرى عينيه بمنديله، وقد جاهر بالحقيقة العلمية المعروفة جيداً أن المنحدرين من أصل فرنسي نادراً ما يقوضون بالحمى الصفراء. هذا هو السبب الذي قدمته خالتي لتلكئها في دعوته إلى منزلهم عند البحيرة. أشارت خالتي، بعينين دامعتين، إلى أنها فقدت ابن أخت في وباء عام ١٨٢٢. وأشار عمي إلى أنني محظوظة لأنني وصلت في الوقت المناسب لأودع أمي.

سببت كل إشارة إلى أمي أن أعيد إحياء الدقائق الأخيرة من حياتها، الأمر الذي جعلني أصمت، ويسيطر عليّ الذعر، لكنه لم يدفعني إلى توسل موضوع جديد. لن يتحدث جويل عن أي شيء إلا عن فداحة ما فقدت، وعلاقته المخلصة مع أمي وتعلقه بها. ماذا سيفكر إذا قلت إنني أفضل سماع الشائعات عن آخر مهرجان حضرة؟ كنت هادئة تماماً خلال العشاء، أكلت قليلاً ولم تبد خالتي ولا عمي ملاحظة على ذلك، وعزّيا ضعف معنوياتي وتراجع شهيتي إلى فقدان أمي. وفي النهاية أخذنا قهوتنا إلى غرفة الجلوس، قُرع الجرس، ورافق خادم جويل إلى غرفته.

أي تأثير غريب كان لمرآه عليّ. بدا قوياً وذكورياً بمزيج من تراخٍ ومرح مغرٍ، ومع ذلك فقد اتسمت ملامحه بتعبير من التعاطف الصادق. وحينما قابلت عيناه عيني لم أجد أثراً لسخريته المعتادة، بل مجرد حزن واهتمام بمشاعري. جاء إليّ فوراً، مادّاً يديه. وفيما نهضت لاستقباله شعرت بالضعف جراء موجة حزن غير متوقعة، إلى درجة أنني تمسكت بيديه لدعمي. غمر الأسى ذهني وانطلق عبر حنجرتي نشيج وفاضت عيناي بالدموع. ولثلا أنهار وأنا أعانق جويل عدت إلى مقعدي. وهناك، انحنيت على ركبتي وأنا ما أزال ممسكة بيديه، ومنحت نفسي لعاصفة من البكاء. حرر جويل إحدى يديه ليفرك خدي ويمسد شعري ويهمس برقة: "يا مانن المسكينة، يا فتاتي العزيزة المسكينة." وعبر نشيجي سمعت خالتي تقول: "لقد تحلت بالشجاعة،" وعندئذ ذكّر عمي، بعد أن نفث أنفه في منديله، جويل بأنه ليس في العادة أن يصاب المتحدر من أصل فرنسي بعدوى الحمى الصفراء، ومن الغريب جداً أن تكون أمي أُصيبت بها. استعدت السيطرة على نفسي واستقمت في جلوسي، وركزت على إخراج منديلي من كمي. "أرجو أن تعذرني،" قلت.

"دائماً،" قال جويل.

"لا يوجد شيء لغفرانه في الشعور الطبيعي،" قالت خالتي. نهض عمي وذهب إلى البوفيه، وأخرج الكؤوس. صب براندي مع ماء لي، وقال إنه "مقوٍ،" واشتبن دون ماء له ولجويل. "فقط مقدار كشتبان من شرابي المنعش المصنوع من العليق،" طلبت خالتي. جلب جويل كأسي إليّ وأخذ كرسياً بجوار خالتي. ظلت محادثتنا تدور حول

حزن المناسبة، ثم انتقلت إلى خططي للمستقبل. "ماذا ستفعلين بالمنزل؟" سألني جويل. "إنه مكان صغير رائع. وقد أمضيت ساعات كثيرة سعيدة في زيارة ذلك المكان."

"من العار الانفصال عنه،" قال عمي.

"سأغلقه في الوقت الحاضر،" قلت.

"سيكون مسكناً مؤقتاً ممتازاً،" اقترحت خالتي.

"إنه كذلك حقاً،" قال جويل. " بموقع ساحر مثل هذا، ربما يمكن إغراء زوجك ليغادر قصب سكره من حين إلى آخر وينضم إلينا هنا فترة العطلة."

أخذت بلعة كبيرة من البراندي، وأنا أنظر إلى جويل من فوق حافة الكأس. هل أمكنه ألا يخمن كيف شعرت نحو زوجي؟ أو كانت ملاحظته مجرد تهذيب استهدف صرف انتباه خالتي وعمي؟ قابلت عيناه عيني، مفكراً ومستمتعاً، وكان ثمة أثر من ابتسامة على شفتيه.

"زوجي لا يحب نيو أورليانز،" قلت.

كبرت ملاحظة جويل العرضية في ذهني وأنا أعمل في ثياب أمي، وأصنف بعضها للصدقة وآخر للتعديل. كان لديّ يوم واحد فقط لأحزم أمتعتي وأغلق المنزل قبل أن أعود إلى المكان الذي كرهته لفترة لم أستطع التكهن بها. شعرت مثل السجين الذي اقتيد من زنزانته المظلمة إلى ضوء النهار، الذي بدا عالماً مرحاً، حياً، ومشمساً، وقيل له: كل هذا لك، وتستطيع أن تراه ثانية متى أمكنك أن تقنع سجانك باصطحابك. وقد أعادني الحنين إلى

Sample

الماضي والندم على التوالي وأنا أعمل، صانعة من كل قرار ضرباً من تعذيب، كما لو أن قدر منديل أو قرط ينطوي على تضمينات جدية إليّ. كانت سارة وبيك تدخلان وتخرجان، وترفعان السجاد وتضعان الأغطية على الأثاث، وتصقلان الفضيات وتخزنانها في حقائب مصنوعة من اللباد. ماذا سيحدث لي؟ فكرت وأنا أقلب بروشاً من العقيق الأحمر في يدي، وتذكرت شكل وحجم العلبة التي جاء فيها بالضبط، ولون القوس المخملي النبيذي العميق، ونظرة أبي السعيدة نحوي فيما سحبت أمي الشريط بلهفة. كيف انتقلت على نحو لا يرحم من تلك اللحظة المشرقة إلى هذه الحال؟

تعشيت مساء مع خالتي وناقشنا تدابيري للغد. ولما غادرت آلحت خالتي على إرسال خادم مع مصباح ليرافقني في العودة إلى البيت، الذي كان لا جدوى منه في وقت كانت فيه كل الشوارع مضاءة جيداً والمسافة مجرد عدة بنايات مخفورة جيداً. كانت ليلة صافية وباردة، وبينما مررت تحت شرفات جيراني سمعت أصوات الحديث والضحك الخافتة، وصرخات الفرح من آن إلى آخر عندما فاز أحدهم بورق اللعب أو إبهاج الجماعة بشيء من إشاعة مشينة. كم بدا بيتي الصغير بسيطاً وهادئاً بالمقارنة، ومع ذلك شعرت ثانية بوخز باعث على الفرح للملكية وأنا أضع المفتاح في القفل وأفتح الباب على الردهة المعتمة. أشعلت المصباح وأغلقت الباب ورائي. كانت الغرفة قد اتسمت بمظهر شبحي ومهجور. كان الأثاث مغطى بأغطية فضفاضة ذات لون سمني، والموقد مكنوساً ومجففاً. وقد ذهبت بيك إلى سيدتها الجديدة، وسارة، كما افترضت، نائمة.

عبرت إلى غرفة نومي، التي لم تكن معتمة بالكامل أبداً بسبب ضوء الشارع المتسرب من الأباجورات. كانت ثياب نومي موضوعة على الكرسي، والإبريق مملوءاً بالماء، والشراشف مقلوبة على نحو مغرٍ. خلعت ثيابي بسرعة، وانزلقت تحت اللحاف. غداً، فكرت، لن أجد مكاناً مريحا يرحب بي هكذا.

ولكن ما إن أغمضت عيني حتى تركزت أفكاري المتدفقة على صوت من الهمس. بدا في البداية صادراً من مخدتي. صوت، ثم آخر، ثم توقف. استدرت على ظهري، ورقدت صامتة، وأنا أصغي. لم يكن ثمة أي شيء. من بعيد سمعت حوافر حصان يقترب من الزاوية، ويستدير نحو **بليس دارمز**. أغمضت عيني. وعلى الفور بدأ الهمس ثانية. كان الصوت ملحاً هذه المرة، هل كان رجلاً أم امرأة؟ لم تكن المشكلة في طريقة تركيزي؛ لم أستطع جمع كلمة واحدة. كان قادماً من الأرضية. بعد توقف لبرهة قصيرة رد الصوت الأول بشيء من الطول. جلست في سريري. هل كان ذلك الأرضية أم الجدار؟ هذا يشبه صوت امرأة. كانت منزعجة ومصرة. انزلقت من سريري، وركعت على الأرضية العارية. توقف الصوت؛ لم يكن ثمة جواب. مرت دقيقة لم أسمع فيها غير تنفسي. وتماماً عندما قررت أن أعود إلى سريري، بدأ الصوت الثاني ـ الذي فكرت أنه يجب أن يكون لرجل ـ ثانية، خفيضاً، مسترضياً، ويحاول أن يهدئ الأول. كان قادماً من الجدار، طبعاً. كان هناك مجاز ضيق بين منزلي والمنزل الأكبر التالي من البلدة. ومع ذلك كنت متأكدة من أن الصوت يرتفع من بين الألواح بين ركبتي. كان الجو تحت البيت

مفتوحاً على ذلك الجانب، لكن ذلك كان منخفضاً، وعلى الرجل أن ينحني لينزل إلى هناك. همس، همس. وبعد طول انتظار، جمعت كلمة "خائف،" وكلمة أخرى تكررت، كانت إما "أبداً" أو "أفضل." سقطت على يديّ وضغطت أذني على الأرضية. وفي الحال صمت الصوت.

إنني أَجَنّ، فكرت.

القسم الثالث

عصيان

أملت بأن يكون زوجي مشغولاً بمشروع سقف المعصرة ويكون لدي وقت فراغ لأغير ثياب السفر دون رؤيته، لكن ما أن انعطفنا أخيراً إلى المدخل حتى راح يمشي جيئة وذهاباً على الشرفة، ملوحاً بعصا المشي التي كان واضحاً أنه لا يحتاج إليها. كان يصرخ على السيد ستر، الذي كان على صهوة حصانه، وفي اللحظة التالية انطلق الرجل بالفرس، وقد تجاوزنا دون أن يتفوه بكلمة كأن الشيطان يطارده. وجاء زوجي إلى الدرج ليشهد وصولنا.

كان يرتدي بدلة بيضاء مجعدة دون ربطة عنق وجزمة ركوب وقبعة مزارع كبيرة حشرت شعره الأحمر في كتلة فوق حاجبيه، كان مشهده مثل باب ينغلق بعنف في وجهي. وكأني سمعت سقاطة المزلاج، مع أنه ربما كان صوت طفلة سارة وهي تزدرد بقوة، صنعت سارة عجينة من خبز الذرة في راحة يدها وكانت تطعم الطفلة بأصابعها. ويبدو أن المخلوقة لم تستطع الحصول على كفايتها منه. لاحظت سنين بيضاوين تبرزان من فكها السفلي. وإذ نظرت إليها تلمظت بشفتيها وابتسمت ابتسامة عريضة مرحة مضحكة. ستجد القليل لتكون سعيدة لفطمها، فكرت، وقرأت الشيء نفسه في

وجه سارة الطويل أيضاً.

كبح السائق الأحصنة وهدأ اهتزاز العربة عندما تباطأت قليلاً إلى مشى. كنا قريبين كفاية من زوجي ليخلع قبعته ويلوح بها لنا، فقلت في سري: "أريد أن أستدير وأعود." وحشت سارة اللقمة الأخيرة من العجينة في فم الطفلة، وتخلصت من البقايا من فوق حافة العربة. ولما توقفنا، قفز سائق العربة من مقعده، وفي لحظة وقفنا في الوحل وجهاً لوجه. وكان كل ما فكرت به هو أن يكون مشهد الترحيب بالعودة إلى البيت مقتضباً.

"الحمد لله أنك آمنة،" هتف زوجي، وهو يأخذ حقيبة سفري. وأضاف: "كنت قلقاً جداً." أنزلت سارة كيس بياضات أمي وانسلت بعيداً عنا إلى البيت. فكرت، الأَمَة في نعمة، فهي معفاة إلى الأبد من واجبات الترحيب. وقلت لزوجي: "أنا آمنة، لكنني متعبة جداً. وإذا لم تمانع، فسأذهب فوراً إلى غرفتي وأستريح حتى العشاء."

"بالطبع،" قال، وظللني صاعداً الدرجات وعبر الباب بنوع من الرقص القلق المضحك، ولكن يجب أن أبلغك بالتقرير الذي تلقيته لتوي من السيد ستر. ثمة مجموعة من الهاربين تجمعت في باس مانشاك، وخطتهم أن يتحركوا من مصب النهر ويحشدوا المتطوعين على طول الطريق، ومقصدهم هو الانضمام إلى مجموعة أخرى في دونالدسنفيل. وقد طلبوا مساعدة من الميليشيا هناك. أنا مندهش أن الدوريات لم تحذرك على الطريق. قال السيد ستر أن عبداً في أوفرتُن أخبر مراقب العمال بالمؤامرة أمس، فالعصيان مخطط له هذه الليلة بالذات.

نرفزت قائلة: "وهذا المخبر هو رجل حر اليوم. ألا يخطر لأحد بأن هذه المؤامرات لا توجد إلا في عقول الناقمين الذين أدركوا بأنهم يستطيعون أن ينالوا حريتهم بترويعنا إلى حد فقداننا صوابنا!"

وقد أسكته هذا ما يكفي لأصعد الدرج. صعدت إلى غرفتي دون تعليق إضافي فوجدت سارة تفك الأمتعة، والطفلة نائمة في مهدها. قلت: "دعي هذا، واذهبي قولي لِـ دلفين أن تعد لي كأس شاي، رأسي يكاد ينفجر." وعندما خرجت، انهرت على الكرسي الهزاز، وأخذت أفكر بخبر زوجي عن الميليشيا. في الواقع لم ترَ أية دوريات، ولا عربة أخرى للتحدث في هذا. رأينا زنجياً يركب بغلاً وآخر يأخذ معزاة بقطعة من حبل. وكان الوباء قد انتهى في المدينة، والجو جميلاً، غير أن طريق النهر خالٍ وساكن. هل صدق الناس هذه الإشاعة إلى حد الخوف من الحركة؟

إذا كان هناك حقاً مؤامرة في شمالنا، ولديهم نية الالتقاء بأنصارهم في دونالدسنفيل، فسيكون عليهم أن يعبروا النهر. وكيف سيفعلون ذلك؟ والمجال الأضيق والعَبّارة الأكثر أماناً تعمل جنوب مزرعتنا تماماً. فهل خططوا للاستيلاء على العَبّارة؟

دخلت سارة ومعها صينية وضعتها على جانب الطاولة. راقبت ظهرها عندما صبت الشاي وحركت السكر. لقد صدمني أنها تعرف عن هذه القصة أكثر مما أعرف، ذلك أنها ودلفين تستطيعان على الأرجح تسمية المخبر وقائد الفارين أيضاً. عندما أحضرت لي الكوب درست وجهها، وعينيها الخفيضتين، وفمها الخالي من التعبير، واستنتجت أنها تشعر بالنكد.

"سيقفل علينا في الأعلى هذه الليلة،" قلت وأنا آخذ الكوب، وعيناي على وجهها. نظرت إليّ نظرة ثاقبة مفاجئة ثم استدارت بعيداً. شربت الشاي. وعمل القلق في رأسي كحد السيف، وعرضه مفتوحاً وصريحاً. وقد قرأت في نظرة سارة السؤال نفسه الذي كان يجول في بالي: كم تعرفين؟

❖❖ ❖❖ ❖❖

ماذا أكلنا تلك الليلة؟ يبدو أن ذلك نقطة الانطلاق. كان هناك حساء الباميا، لكن من أي نوع؟ كانت تلك هي اللحظة السارة الأخيرة، رفعت سارة غطاء السلطانية وملأت الرائحة الطيبة الغرفة. لقد أعده طباخ خالتي، إينس، كثيراً في البلدة، لكن برأيي، لا أحد يعده أفضل من دلفين. هل كان مع الدجاج؟ وبعد ذلك كان هناك طبق آخر وآخر، لكن ماذا؟

تحدث زوجي برتابة عن المحصول، لأنه فكر أن من غير الحكمة مناقشة خطر العصيان أمام الخدم، مع أنه لم يكن هناك غير سارة. ويجب أن يكون قد تصور سارة تتحدث إلى دلفين أو روز، اللتين ستخبران عابراً ما، وهكذا سيجد الخبر طريقه إلى الحي، كما لو أن كل زنجي في الخمسين ميلاً لا يعرف كل شيء عنه تماماً.

شربت كمية كبيرة من الخمر. أشعلت سارة المصابيح وقدمت القهوة. بدت لي الغرفة مدخنة وخالية من الهواء. وعندما خرجت سارة نهض زوجي، وارتج مصراعي النافذة مما جعل الغرفة تبدو مثل

سجن. قلت: "أرغب بكأس من البورت." واقترح زوجي أن لديه زجاجة من النوع الفاخر في مكتبه، فتبعته إلى هناك.

"هل ستنضم إلى الدورية؟" سألته عندما صبّ ملعقة مائدة من البورت.

قال: "ليس الآن، ستنطلق الدورية من باس وتسلك هذه الطريق." وقدم لي الكأس.

"أريد كمية أكبر من هذه، إذا لم تمانع،" قلت.

بدا مرتبكاً، ثم فهم قصدي، ثم قال وهو يملأ الكأس: "أعرف أن هذه المكائد ستتلف أعصابك."

قلت: "بالعكس، إنه يعطيني شيئاً أفكر فيه بالإضافة إلى عمل إبرتي."

تجاهل هذه الملاحظة، وقال: "في الحقيقة، ليس لديّ رغبة بمغادرة المنزل. لا يمكنني أن أثق بأي شخص ليقوم بالحراسة. إذا كان بلاغ المخبر صحيحاً، فسيتسرب خبر هذه المكيدة إلى كل مساكن العبيد، من **بوانت كوبي** إلى المدينة على جانبي النهر." ثم فتح خزانته وأخرج مسدسين.

فعلقت: "لا يملكون فرصة للنجاح مع استدعاء الميليشيا. ما الذي يأملون بإنجازه؟"

قال: "يريدون أن يقتلوا قدر ما يستطيعون منا. لا يفكرون بأبعد من ذلك."

أخذت رشفة من كأسي، وأنا أفكر بهم يتجمعون حول نيرانهم في ليلة ما، وقد استثار عواطفهم القوية أحد الدعاة، يضعون الخطة

الأفضل لقتلنا جميعاً. ولم يتوقف الأمر على الرجال في الحقل. ففي نيو أورليانز، سمعت عن سيدة أمريكية اكتشفت محاولة خادمتها لتسميم أهل البيت جميعاً بمزج السكر مع الزرنيخ. ماذا يفيدها موت سيدتها، ما دامت ستُباع ثانية، ربما لسيدة أكثر قسوة؟ لقد حيرني ذلك. وقلت: "أفترض أنها أرقام وحسب."

رمقني زوجي بنظرة متسائلة، منشغلاً عني بحشو البودرة في أحد مسدساته.

فأوضحت: هم لا يفهمون لماذا لا يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون ما داموا يفوقوننا عدداً."

وقال زوجي: "ذلك لأنهم متوحشون شريرون."

رفعت حاجبي، وقلت: "ربما أنت على حق."

وضع مسدسه جانباً وانتبه إليّ، وقال:مالك، هناك أمر آخر أتمنى أن أحدثك عنه. هل تصغين إليّ؟"

فكرت، سيحدثني عن ميراثي. وكنت على وشك أن أكتشف كيف خطط لتبديد أموال أبي. فقلت: "أنا مع راحتك."

رفع ساقاً وهكذا كان نصف جالس على طرف مقعده، وقال: فكرت بك كثيراً بينما كنت بعيدة، بل أكثر مما أفعل عندما تكونين هنا."

"الغياب يجعل..." لوحت بيدي على الباقي.

"ليس الأمر كذلك. لقد عرفت أنه إذا استطعت أن تشقي طريقك الخاص، فلن تعودي أبداً."

لقد باغتتني هذه العبارة المباشرة عن الحقيقة البسيطة، فوضعت

نظاراتي على طرف الطاولة وأخذت نفساً عميقاً. كانت فرص الحوار الصادق بيننا نادرة وقد صممت أن أستغل هذه الفرصة وأطوّر خطة، حلماً، وضعتها في طريق العودة من البلدة حقاً والحقيقة، قلت: "لا. لو لم يكن لديّ التزامي لما عدت إلى هنا أبداً."

كاد يغمض عينيه كأنما آلمه اعترافي، مع أن ذلك لم يكن غير متوقع، وكما لو عقّب على تأكده من تقضيلي، ناشدني: "الا توجد طريقة نستطيع بها أن نرأب هذا الصدع فيما بيننا ونعيش كزوج وزوجة؟"

كان واضحاً أنه تخيل أن هناك شيئاً ما يمكنه قوله يقنعني بدعوته إلى غرفتي، الفكرة التي لم ترق لي على الإطلاق. فقلت: "لا."

تأملني للحظة، وكان جلياً أن برودي أربكه، فقال: "والأمر بهذه البساطة، هل هو كذلك؟"

قلت: "أجل، هو كذلك. لكن بما أنك أشرت إلى هذا (الصدع) كما سميته، فلدي اقتراح يتعلق به."

فقال: "أريد أن أسمعه."

"اقترح أن نتفق على قضاء وقت أطول بعيداً عن بعضنا. والآن ما دام لديّ منزل أمي، أستطيع أن أبقى في البلدة لبقية الفصل. سيكون عليّ أن أحضر طباخاً بديلاً عن بيك التي ذهبت، فآخذ سارة معي، وهكذا يمكنك أن تعمل كما نصحتك أمي مراراً وتكراراً وتشتري خازناً مناسباً."

فقال: "ظننت أن فقدانك أمك سيلين قلبك نحوي، لكنني أرى

Simple

أن التأثير معاكس."

قلت: "أنا يتيمة، من يدافع عن مصالحي إذا لم أفعل ذلك أنا شخصياً؟"

قال: "لن أوافق على اقتراحك أبداً."

توقعت هذا الرد، وقد خططت له فعلاً، متكئة على ورقتي الرابحة مثل مقامر حقيقي، وسألته: "وإذا تركت سارة هنا، فماذا ترى؟"

وضع يده على ذقنه وبدأ يصقل شاربه، وحدق إليّ بـ حيرة شديدة. يمكنه أن يدرك ذلك. سيحتفظ بسارة وأكون قد ذهبت. فكر بالأمر ملياً بالتعبير نفسه الذي كان يظهر على ملامحه وهو يعاين قائمة الطعام في مناسبات نادرة تعشينا معاً في مطاعم، فأغاظه احتمال الإقدام على اختيار خاطئ، أعلن أخيراً: "أنت زوجتي."

قلت: "هذا من سوء حظي."

قام، وعاد بانتباهه إلى مسدسه، ثم قال: "لا أرى أننا نستطيع تحمل الاحتفاظ بمنزل والدتك. أرى أن يبحث محاميّ عن مشترٍ له."

خانني عزمي، وامتلأت عيناي بدموع لا نفع فيها، وقلت: "لا، لن أوافق على ذلك."

ابتسم برقة، وهو يدوّر مسدسه في يديه، وقال: "حسن، مانُن، لا تبكي. سنناقش الأمر. هناك الكثير من الوقت."

عارضته: "إنه بيتي."

لم يزعج نفسه بالرد على إصراري، وقد جعلني ذلك أُدرك أنه مخادع. وجفت عيني بكمي.

قال: "أفترض أن نرى أولاً إذا كنا سنمضي هذه الليلة دون حادث. أريدك وسارة أن تبقيا في غرفتك، لكن اتركي الباب مفتوحاً. أخطط أن أسهر الليلة على الأريكة على ميدة الدرج. وأريد أن أكون قادراً على سماعك إذا ناديت لمساعدة."

صدمني هذا كخطة غبية. غير أنني شعرت بالهزيمة إلى درجة لم أعترض أيضاً، أنهيت كأس البورت ونهضت، لم يفاجئني أنني كنت دائخة. جاء زوجي إلى جانبي وحاول أن يمسك ذراعي، لكنني انسحبت بعيداً بسرعة. تبعني عدة درجات، ثم تراجع، وهو يقول: "لدي عمل يجب أن أنهيه هنا،" كما لو أنني كنت مهتمة بمخططاته. وأردف: "سأصعد عندما أتأكد من أن المطبخ مقفل."

جررت نفسي إلى غرفتي حيث وجدت سارة نمّ شال أمي على فراشها. وقد استلقت الطفلة على بطنها قرب قدميها تحاول أن تزحف لكنها لا تقدر على الحركة إلى أي مكان. فكرت ستذهب تلك الطفلة قريباً، على الأقل. ذهبت إلى النافذة وتطلعت خارجاً إلى الظلام. كان الجو بارداً وصافياً. كان هناك نسيم رطب من الشمال جعلني ألفّ شالي فوق صدري بإحكام. فكرت عليّ إغلاق النافذة قبل أن أذهب إلى السرير، أو أن أضع بطانية أخرى. ناقشت هذه المسألة التافهة للحظات وأنا أتكئ على مرفقي وأتطلع إلى النجوم. كان ثمة قمر غير تام. كم سيكون المشي جميلاً تحت الأشجار، غير أن ذلك بالطبع شيء لا يمكن التفكير به. "لا أرى أية إشارات لانتفاضة هنا في الخارج،" قلت لأُسلّي نفسي.

ألقيت نظرة على سارة ثانية، التي كانت تجثو على ركبتها،

تتطلع إليّ، وقد قطبت حاجبيها كما لو أنني خاطبتها بلغة لم تفهمها. عدت إلى الليل، ووبخت نفسي لأنني تكلمت بعدم جدية. والحقيقة هي أنني في تلك اللحظة لم أرد شيئاً أكثر من سرد قصة تعاستي لشخص ما يحبني، لكنه لم يكن ذلك الشخص. سيبيع بيتي، فكرت، وأقع في الشرك هنا حتى أموت. تفحصت جذور الشجرة متذكرة تلك الليلة التي رأيت فيها رجلاً هناك يعود للتطلع إليّ. لم أخبر أحداً، لرغبتي بأن صمتي قد يخلق عقبة لزوجي أولاً. ولخوفي من أن يستخدم المعلومات لتقوية يقظته الهستيرية ثانياً. وفكرت: دائرتي الصغيرة هي من الأمل إلى الخوف وهكذا دواليك.

سمعت صوت طائر ليل يصيح وارداً من قرب المطبخ. وغمر ضوء باهت الجو في ذلك الاتجاه. كانت دلفين مستيقظة، محبوسة هناك مع والتر وروز. لا بد أنه أفلت الكلاب خارجاً قبل أن يدخل. كان الحي تحت حظر تجول صارم: لن يجرؤ أي رجل أو امرأة أو طفل أن يظهر وجهه حتى الصباح. سيذرع السيد المكان حول قلعته طوال الليل، موجهاً مسدساته على الحشرات وهبات النسيم والفئران، وفي الصباح سنتناول الفطور كالعادة.

قررت، إحضار بطانية أخرى. كان الجو بارداً ولم يكن هناك بعوض. سآنام دون مزلاج. واستدرت لأخبر سارة بإخراج بطانية من الخزانة. كانت تلف الطفلة بإحكام في شالها. صدمني هذا مثل شيء غريب. وضعت طية فوق رأسها فبدت مثل طفل هندي كالذي رأيته في سوق البلدة، معلقاً على ظهر أمه بحزام جلدي. بابوس ـ طفل هندي. وقع نظري على المشهد السار للزجاجة الزرقاء التي تحتوي

على دواء نومي وخطوت عدة خطوات باتجاه الطاولة. أحسست بحركة عند المدخل واستدرت لأرى ما هي.

عالياً أمام عضادة الباب، القسم الأعلى من وجه أسود يظهر عيناً واحدة حدقت إليّ. وفي اللحظة نفسها التي رأيته فيها، انسل بعيداً، وتركني لا أصدق ما رأت عيناي. تبعثرت أفكاري في كل الاتجاهات باحثة عن تفسير ما معقول: كان زوجي قد قرر أن يقوم بدور الحارس الجدير بالثقة داخل البيت بعد كل ذلك، أو أن هذا كان رسولاً مع أخبار هامة من البلدة. ليس لديّ مثل هذه الشكوك السخيفة. لقد ترك الدم الذي اندفع إلى دماغي ركبتيّ ضعيفتين ورأسي خاوياً مثل شارع اكتسحه إعصار. فالحدث الذي خاف معظمنا منه قد بدأ ولم يكن هناك مفر منه. انهرت على السرير، وفتحت فمي، لكن دون صوت. نهضت سارة وهي تحمل الصرة التي صنعتها من طفلتها. وذهبت إلى النافذة. وعندما عدت أتطلع إلى البوابة، كانت هناك العين الوحيدة ثانية تراقبني.

"سارة، أين أنت؟" قلت بهدوء، وأنا أستدير، ببطء وحذر، إلى النافذة. كانت منحنية إلى الخارج، تحمل طفلتها قريباً من صدرها وتتطلع هذا الاتجاه وذاك. رفعت الصرة بصمت فوق عتبة النافذة ورمتها. أصغيت لصوت الارتطام والبكاء، لم أسمع شيئاً.

ما معنى هذا؟ استدارت من النافذة، عيناها متسعتان، تنظر أبعد مني إلى الشبح في البوابة. لقد رأته هي أيضاً. لم يطمئن عقلي أكثر لهذا الكشف. التفت وأنا أتشبث بقائمة السرير، ومع ذلك شعرت باستعادة قوتي. كان الوجه هناك، والآن ظهر شيء آخر منه ، جزء

من الأنف والخد. كم من الوقت ينوي أن يتجسس علينا بهذه الطريقة السخيفة. "ماذا تفعل هنا؟" سألته. كم كان صوتي هادئاً!

للإجابة خطا بجرأة إلى البوابة. كان رجلاً طويلاً، فاحم السواد، عاري القدمين، يرتدي قميصاً قطنياً فضفاضاً، وبنطلوناً خشناً. يحمل في إحدى يديه سكين قصب سكر وفي الأخرى ساطوراً. لقد وقف واستدار بقدميه إلى الخارج، وقلّص كتفيه، وشرد بعينيه على نحوٍ غريب، كما لو أنه يقدم نفسه للتفتيش. لم أفكر أنني رأيته من قبل. كان من العاملين في الحقل، هارباً من مكان ما، ولم تسنح لي فكرة للأخذ والرد فيها. أين كان زوجي مع مسدساته؟ لقد تحقق هاجسه أخيراً، ولم يكن ممكناً إيجاده في أي مكان. فخطر لي أنه قد مات.

"هو ليس وحده،" قالت سارة، وأجبت، "لا، لا أظن ذلك. تعالي قفي قريباً مني."

انتقلت إلى جانبي ووقفنا هناك، بينما غدا الهواء أثقل مع القتل الحتمي. سمعنا الطلقة الأولى، وصيحة، ثم طلقة أخرى. بدا آسرنا غير مبالٍ. كان كل شيء ساكناً، وحدها الستارة أحدثت حفيفاً بفعل النسيم. وفجأة بدأ القضم في الجدار، عالياً وعاجلاً، كما لو أن الصمت كان شديداً لتتحمله تلك القوارض. استطعت أن أسمع تنفس سارة السريع بجواري، والنبض المتسارع في أذني. انحنى الرجل إلى الوراء باتجاه القاعة، وهو ينظر باتجاه ميدة الدرج. نادى صوت يصعد الدرج "أنزلهم." فخطا إلى الوراء، وأشار إلينا أن ننزل إلى القاعة بسكين قصب السكر.

كان نبضي يتسارع، لكن إلى أين؟ لقد اهتم زوجي بنا كثيراً فأغلق المنزل، والواضح أنه أغلقه علينا مع القتلة. رفعت سارة المصباح وسبقتني خارجاً إلى ميدة الدرج. ولحق خاطفنا بنا، وقفز ظله إلى الجدار أمامي، وهكذا شعرت بأنني محاصرة. وعلى ميدة الدرج قال: "انتظري." فتوقفت. واستدارت سارة إلى الخلف، انتظرنا بينما تفحص هو المنظار. شدَّ انتباهي سعال حيث سقط ضوء من غرفة الطعام على مقدمة الدرج. كان هناك رجل آخر، أصغر، وأكثر سواداً، يحمل مسدساً على جنبه ويبتسم لي، قال: "انزلن إلى هنا، أيتها السيدات. وتقدَّمْن ببطء."

أسندت يدي على الدرابزين ونزلت، وأنا أتوقف عند كل درجة، وجاءت سارة خلفي، تحمل المصباح وهكذا تحددت ملامحي في الضوء. كان رأسي يطفح بالأسئلة. أين زوجي؟ ماذا حدث لطفلة سارة؟ هل دلفين آمنة في المطبخ؟ كم عدد الرجال هناك؟ كيف دخلوا؟ وفوق كل هذا، كيف أستطيع النجاة؟ رأيت في نهاية القاعة أن الباب الأمامي مفتوح، وهناك رجل ثالث واقف فيه. وقد رفع بندقية فوق كتفيه ونظر خارجاً إلى الظلام. تراجع الأول الذي تكلم، من اعتبرته قائدهم، ليدعني أمرّ، وقال مشيراً إلى غرفة الطعام: "ادخلن مباشرة إلى هناك." ففعلت كما أمر وتلقيت صدمة قاسية: كان هناك أربعة منهم أيضاً. كان الأول متمدداً على كرسي جانبي غير مبالٍ، دون قميص، وركع آخر أمامه، يشد قطعة قماش حول ذراع نازفة لرجل جالس. لقد فتحوا كل الأبازجورات والنوافذ. واتكأ رجل آخر، يحمل سكيناً قصيرة، على

Simple

أحد المداخل وينظر إلى الخارج، بينما وقف الأخير، المسلح بسيف، خارج الغرفة تماماً يحدق إلى الداخل. تجاوزتني سارة ووضعت المصباح على البوفيه. كان هناك مصابيح كثر على الطاولة، مع بقية من لحم فخذ ونصف رغيف مرمية هناك دون عناء وضعها في طبق، قطعوا الفخذ بسكاكينهم، وخلفوا طعنات بليغة في الخشب. خربوا الطاولة، فكرت، وقد أغضبني ذلك، وجعلني جريئة. فسألت قائدهم، الذي وقف في فتحة الباب: "أين زوجي؟"

دخل القائد الغرفة، جذب كرسياً، وجلس، ومنحني ابتسامة آسفة، وقال: "هذا ما أود أن أعرفه تماماً. لقد جرح طائري هناك". أشار بيده إلى الرجل الجريح - "وركض مباشرة خارجاً من الباب الأمامي."

وبالتالي نجا. "إذن سيحذر الدورية،" قلت.

ضحك الرجل الجريح، وقال القائد: "لا أظن ذلك."

قال الرجل الجريح: "لقد تلقى طلقة في ظهره."

قال القائد: "أعتقد أن زوجك يجثم قريباً، أيتها السيدة. إنه مراوغ ولن يترك زوجته. أظنه سيأتي مباشرة إلينا."

فقلت: "عليك أن تهرب طالما باستطاعتك ذلك."

ولكي يجيب، تفحص الكابتن مسدسه، وأداره في يديه. كان مسدس زوجي، وقد استعمله تماماً كما يفعل زوجي، كمساعد للتفكير. نظرت إلى سارة التي وقفت وظهرها إلى البوفيه كأنها تتوقع أن تُدعى لتقديم القهوة. وانطلقت صرخة في الخارج، واندفع الرجل الذي يحمل السيف عبر الشرفة وأقحم نفسه في أجمة الأزاليا.

قال القائد: "ذلك هو الآن."

كان هناك صرخات أكثر، صوت مشاجرة، تراجع رجل إلى الشرفة، وجثم، وتحرك بعنف، ثم أسرع إلى الأمام، وسقط بتهور عبر القرميد. وصرخ صوت: "لقد نلت منه،" وضحك رجل آخر. "ما هذا؟" قال الصوت نفسه. نهض القائد وذهب إلى الباب فيما دخل الحارس وهو يدفع أمامه والتر العاري، والقذر، والمنتفض، والصارخ. "كن حذراً منه،" قال الحارس، "إنه يعض."

"اطلقه،" أمر القائد. وحالما لامست قدما الصبي الأرض، حاول أن يندفع خارجاً، لكن الحارس أعاد توجيهه بركلة فقفز وأخذ يدور حول طاولة الطعام.

"هل هو ابنك، أيتها السيدة،" سألني القائد.

"إنه قرد أصفر صغير،" قال الرجل الجريح.

اكتشف والتر لحم الفخذ وبدأ يحاول أن يجد طريقه إلى الطاولة. اقترب القائد منه، اقتطع قطعة خبز من الرغيف، وقدمها للمخلوق، الذي هز رأسه بعنف، وأطلق أنيناً عالي النبرة ومدّ ذراعه إلى لحم الفخذ.

"إنه لا يريد الخبز،" علّق الرجل الجريح.

"ما اسمه؟" سألني القائد.

"والتر."

"قولي له أن يتوقف عن هذا الضجيج." فهززت كتفي بلا مبالاة.

"إنه لا يسمع،" قالت سارة.

نظر إليها القائد عن كثب، واستخلص الاستنتاج الواضح،

Sample

وضحك. ثم قال: "حصلت السيدة هاي يلو على قرد صغير أحمر الرأس." ورفع عقب المسدس وضرب رأس والتر ضربة شديدة. فتدحرج الطفل على السجادة، رفس برجليه إلى الأعلى مرة، وأنَّ مرة، ثم استلقى ساكناً.

لم يتكلم أحد. أدركت أن راحتي يديَّ كانتا رطبتين، وفمي جاف إلى حد غريب. تطلعت إلى سارة، التي وضعت يدها على فمها وأغلقت عينيها، ثم حدقت بالرجل الجريح. أنهى مرافقه التضميد. فذهب القائد إليه ومسَّد رأسه، وسأله: "كم هو سيء؟" نظر الرجل في وجهه بابتسامة مربكة، ورفع ذراعه عدة إنشات، فأجفل، وقال: "ليس سيئاً كثيراً."

"أين ذلك الشيطان الذي جرح غرابي؟" سأل القائد، وابتعد متبختراً لينضم إلى رجليه عند الباب. حرك والتر ذراعه، وفتح عينيه لكنه لم يصدر أي صوت. وهكذا فهو ليس ميتاً.

وقف القائد بين رجليه، وحدق إلى الليل في الخارج. كان رجلاً أنيقاً، ذا ساقين مقوستين ورأس كبير، وعينين أكثر سواداً وأقصر بنصف قدم من رفيقيه. كان يركض مباشرة إلى المشنقة وقد عرف ذلك. وكل ما تمنيته هو أن أعيش لأرى ذلك اليوم.

استطعنا سماع صوت حوافر حصان لا تخطئ قادماً عبر العشب، يعدو سريعاً. "تباً،" قال القائد وركض إلى الشرفة، ملوحاً بمسدسه. وتبعه أحد رجليه، واستدار الآخر إلينا، يطعن الهواء بسكينه مهدداً، وقال مشيراً إلى الطاولة: "اذهبا إلى هناك." فعلنا أنا وسارة كما أمرنا ووقفنا قبلة الجدار، لا تجرؤ إحدانا على

النظر إلى الأخرى. سمعنا طلقة بجانب المنزل. وركض الرجل الذي كان يحرس الباب الأمامي عبر نافذة بابية.

كان الحصان قد أصبح قريباً جداً، وتوقعت أن أراه في اللحظة التالية يقتحم الغرفة. شعرت أن أحدهم يشد تنورتي ونظرت أسفل إلى والتر. كان فمه ينفتح وينغلق وجدول من لعاب ينسكب على السجادة.

أُضيء مشعل في الخارج، ورأيت الحصان مندفعاً باتجاه المنزل، رأسه الكبير مرفوع، ويقاوم الشكيمة. وتماماً عندما كان على وشك أن يرتطم بأعمدة الشرفة، غيَّر اتجاهه، وغاص في أجمة الأزاليا. لقد كان حصان زوجي الكميت المخصي، الذي لا يُركب، وقد رُبط زمامه على سرجه. استعاد رسوخ قدميه بسرعة، وتراجع خارج الشجيرات، ووقف يرتجف على الطريق. ثم جاء المشعل خلفه.

وقف كل منا في تلك الغرفة ثابتاً، مرتعباً، يحاول اكتشاف المواقع الدقيقة للرجلين السائرين في ضوء المشعل. كان الأول هو القائد، صدره منتفخ، ويداه على وركيه. وكان الآخر زوجي، يمشي مشية غريبة متثاقلة، ويرفع مشعلاً في يد، ومسدساً موجهاً بثبات نحو رأس أسيره في الأخرى.

❖❖ ❖❖ ❖❖

لقد تجاوزا الحصان، الذي سار بتمهل بعيداً في الظلام، وجاءا عبر المدخل إلى البيت، وحالما دخلا الغرفة، أقحم زوجي المشعل

بالحارس المتبقي الذي تراجع بعيداً بعصبية. كان كل الرجال مثبتين بتهديد المسدس، غير أنني كنت مسحورة بالتغيير في زوجي. كان ملطخاً من رأسه إلى أخمص قدميه بالوحل والدم، رقبته مجروحة وسال الدم على صدره، وبلل قميصه الذي كان ممزقاً. كان شعره مشعثاً، يقف من جهة وتغطيه طبقة من الوحل في الجهة الثانية. اشتعلت عيناه بالإثارة. لطم صدغ أسيره بالمسدس وقال: "الآن لا تتحرك البتة." جلس الرجل الجريح إلى الأمام في كرسيه وقال: "أواه، يا ربي."

"افعل ما يقول وحسب،" أمره القائد.

"هذا صحيح،" قال زوجي. وأضاف: "مائن، تعالي قفي خلفي." فنفذت ما قال. سينقذني، فكرت، وشعرت بارتباك شديد. كنت أنظر إلى ظهره، الذي كان مدمى في أسفل الخصر. ساد الهدوء الجميع ما عدا والتر، الذي تأوه سريعاً، وأمسك رأسه بيديه وقام.

"سنمشي الآن إلى الخارج،" قال زوجي. "ثلاثتنا فقط." نظرت للوراء إلى سارة، التي كانت عند طرف الطاولة، وعيناها على الزنجي الجريح. هل عنى زوجي سارة؟ لكن لا، لقد عنى القائد؛ كان هو ثالثنا. ضغط زوجي مخزن المسدس على أذن القائد وأعاده باتجاه الباب.

ثم كنا في الخارج، نمشي على طريق المدخل. وقف الحصان بعيداً في المرج، يقضم العشب بهدوء. وفيما اعتادت عيناي على الظلام، مشيت إلى الأمام، وأنا أرفع تنورتي فوق ساقي. كانت هناك فكرة واحدة في رأسي، وهي أن أمتطي الحصان. كان

القائد يتكلم، وأدركت بطريقة ما فحوى رسالته، أننا نفوقكم عدداً، ولا فرق كبيراً بين ما إذا كان قد قتل أو بقي حياً، فزوجي لن يبقى على قيد الحياة، إنه رجل ميت.

"أنا. بل أنت الميت،" ردّ زوجي. "إنه مجرد سؤال من سيموت أولاً."

"هذا صحيح،" قال القائد. "هذا صحيح."

تماماً، فكرت. إنهما متفقان.

خبا ضوء المشعل لحظة بعد أخرى. استطعت أن أرى أبواب غرفة الطعام وشخصاً في الداخل يتحرك باتجاهنا. أين الرجل الذي يحمل بندقية، وهرب إلى العتمة عندما سمع صوت الحصان؟ تفحصت الأجمات. وبقدر ما ابتعدنا عن المنزل، أصبح أكثر إعتاماً. إذا امتطيت الحصان، فأي طريق عليّ أن أسلك؟ سمعت أصواتاً من البيت، ارتفعت، مقلقة، ثم صوت تحطم كأن أحدهم أسقط صينية من الكؤوس. جاء صوت خطوات سريعة باتجاهنا عبر المرج. توقف زوجي، تطلع إلى الخلف، يرفع مسدسه قريباً من أذن القائد، تطلعت أنا أيضاً. اندفع شخص شاحب مخيف باتجاهنا، لا تكاد قدماه تلمس الأرض.

كل شيء حدث بسرعة بعد ذلك، مع أنني أشعر به كما لو أن الزمن نفسه سقط مفتوحاً مثل كتاب، واستكمل كل انطباع جديد وحتى أعيد تجميعه قبل أن يبدأ التالي. والتر، لأنه بالطبع كان هو، رمى بنفسه على ساقَي زوجي بقوة جعلته يتعثر، ويجدف، فانتهز القائد عدم توازن زوجي وضرب المسدس من يده. فجثوت على ركبتيَّ، وحاولت الوصول إلى المسدس. رفسني القائد في وجهي بقوة

Sample

وسقطت على الأرض. وفجأة كان هناك آخرون يركضون في كل الاتجاهات. ظهر الحارس، يلوّح بساطوره في الهواء كأنه يقطعه إلى شرائح، وسعى وراء زوجي، الذي هز والتر من ساقيه وتخلص منه وولّى هارباً. وعدت أنا أجثو على يديَّ وركبتيَّ. ظهرت سارة خارج أبواب غرفة الطعام، شعرها يتطاير وتنورتها أيضاً، وقد اتجهت إلى جانب البيت. اختفى زوجي داخل خميلة من ورد الآس، ولحق به مطارده. وقفت على قدمي وخطوت عدة خطوات باتجاه الحصان. فصوّب الكابتن المسدس الذي استرده نحوي صارخاً: "ابقي هناك." جاء شخص آخر يخرج راكضاً من جانب البيت، صرخت سارة، وركض الاثنان، كل باتجاه الآخر. غيّرت سارة الاتجاهات، غير أنها لم تبدل خطواتها الواسعة، وتابعت في اتجاه الحصان. "أين الرجل؟" سألني القائد بلهجة اتهامية. جاء حارس آخر، رجل ضخم، ملوحاً بسكين قصب السكر، يتحرك متثاقلاً من لا مكان، محكماً الإطباق على سارة. وكي تتملص منه استدارت نحوي. كان وجهي وذقني مبللين. وضعت يدي على خدي وشعرت بجرح بليغ في وجهي. لا بد أنه ظفر إصبع قدمه، فكرت. كان الدم يسيل من فمي. عضضت على شفتي عندما سقطت. وفيما اقتربت سارة مني، توقف مطاردها ليضيء مشعلاً.

ظهر الكثير في وهج الضوء. اصطدم والتر بسارة وتشبث بتنورتها. رأيت وجهها، غيظها ويأسها عندما جاهدت لتحرر نفسها. "دعني أذهب،" صرخت، وهي ترفس المخلوق، الذي أطلقها، منتحباً بأسى. كان شيء ما يتحرك في الظلام وراء الضوء تماماً. استدارت

سارة وأشارت إلى العتمة، وصرخت إلى الحارس الذي كان قريباً جداً منها "إنه هناك." مشى القائد بعيداً عني، حاجباً عني الرؤية للحظة. وفي اللحظة التالية رأيت لوحة جهنمية.

كان زوجي على ركبتيه، يصارع لينهض، والرجل الكبير يمسك بشعره. وقفت سارة قريباً منه، مثبتة طفلها بإحكام على كتفيها، وعيناها على سكين قصب السكر التي رفعها عالياً فوق رأسه. وسقطت السكين في اللحظة التالية. كان هناك صوت الفولاذ الذي يثير الغثيان يقطع العظم، وسقط رأس زوجي إلى الأمام على صدره بوضعية مستحيلة، امتدح القائد رفيقه الذي تراجع خطوات ليعجب بما فعلت يداه. ظل زوجي ساكناً للحظة، كما لو أنه سينهض ثم انهار جانباً على العشب. كانت سارة تركض مباشرة باتجاهي، وفي ذهولي فشلت في رؤية أنني وقفت بينها وبين الحصان، ولكن في الوقت الذي دنت فيه مني أدركت ذلك وقطعت عليها الطريق، وأمسكت بمرفقها. فاستدارت إليّ بغضب وانهالت على وجهي بيدها الطليقة، وحفرت أظافرها الحادة في خدي المجروح للتو. "هم لن يؤذوكِ،" قلت لها. "دعيني أذهب أولاً. سيقتلونني إذا لم تفعلي" فرهستني، ورمتني جانباً. ولكنني أمسكت بها ثانية من كتفها، غير أنها التفت بسرعة، وتحررت من قبضتي، وغرزت أسنانها في يدي، فصرختُ وأفلتها، وتركتني وراءها راكضة بأقصى ما تستطيع إلى الحصان. ذهبت وراءها، وقد أوشكت أن أمسك بها مرة ثالثة. ولما ركضت سمعت الرجال يضحكون. سبقتني سارة، وقفزت على صهوة الحصان، فأجفل

Sample

وشبّ، ونزل، وسار هذه الجهة ثم أخرى. وبطريقة ما، أحكمت شدّ الطفلة إلى بطنها، وأمسكت بعنان الحصان، ورفسته بقوة فانطلق، وتطايرت تنورتها خلفها.

أربكني صوت حوافر الحصان تقتلع العشب، ومشهد انحنائها فوق رقبته. وصرفت أسئلة سخيفة انتباهي عن الخطر المحدق بي. أين تعلمت ركوب الخيل بتلك الطريقة؟ أي اتجاه ستسلك؟ هل ستطلب النجدة؟ ثم أعادني صوت خطوات بشرية تسحق الأرض إلى ما بقي من حواسي. عرفت ما يكفي فقط لأركض، وأظل أركض. سمعت صراخ القائد، وصوت المسدس، الذي لم يبدُ عالياً، كان بعيداً، وفي الوقت نفسه أيضاً كان هناك ألم حارق حادّ في كتفي، وأدركت أنني مصابة.

تابعت الركض. لم يكن هناك مخبأ، ولم تكن لدي فكرة أين كنت، وأي اتجاه أسلك، كان البيت في مكان ما خلفي، أتسابق مع قتلة. إذا استطعت الوصول إلى الحي، فسيحميني أحدهم بالتأكيد. كان الجو معتماً، والأرض مقطعة بالجذور التي جعلتني أتعثر وأعشاب القراص جرحت قدمي كالموس. لقد فقدت حذائي المهلهل في مكان ما على الطريق. وبالتدريج بدت الأرض تنحدر تحت قدمي ورقت الأعشاب وأصبحت الأرض مبللة وباردة. وأخيراً كان هناك أغصان، وشجيرات، وأماكن للاختباء. استطعت سماعهم، هم لا يزالون يطاردونني، وهكذا أسرعت، أتحسس طريقي بالتشبث بالأغصان والبحث عن الأرض الأكثر جفافاً بقدمي. علقت تنورتي بنبات العليق، وتوقفت طويلاً لأشدها بين ساقي

وأعقدها فوق ركبتي. تكاثرت الحشرات حول رأسي، أطبقت يدي على شيء ما متلوّ وجلدي. فتراجعت وفقدت توازني، وجلست بصعوبة على جذر شجرة. استطعت سماع أصوات الرجال، لم تكن قريبة جداً، لكنها ليست بعيدة. تابعي السير، قلت في سري، ونهضت على قدمي. قفز شيء ما بسرعة عبر الأرض، طنّ خفاش فوق رأسي، تقدمت عدة خطوات، رافعة يدي أمامي. كنت أقف على بعد إنشات قليلة من الماء. طريق خاطئ، فكرت، وبدلت الاتجاه، ولكن الخطوات التالية أوصلت الماء المثلج إلى ركبتي. اتجاه خاطئ فكرت وغيرت اتجاهي أيضاً، وهذه المرة وجدت قدماي ماء أقل، ووحلاً أكثر، وصل إلى ساقيّ. ومع هذا خضت فيه. غدت كتفي كتلة تضربني بقوة وسرعة، جعلتني أئن مع كل خطوة. طارت الحشرات إلى فمي وعينيّ، تئز أعلى وأعلى إلى درجة لم أستطع سماع أي شيء آخر، وفكرت، ستأكلني وأنا حية.

سأموت حيث أقف، ثم خطر لي حل بأعجوبة، حل رأيت الزنوج يستخدمونه، وأثار قرفي. انحنيت وغرست يدي في الطين البارد، ثم لطخت به وجهي وذراعي وشعري. وقلت في سري، ضعي منه كثيراً، وانحنيت أكثر لأحصل على قبضة أخرى. خمد الطنين، وتابعت سيري، وأنا أتحسس طريقي. كنت خارج الطين على أرض ملساء، ثم وجدت قدماي رقعة من السراخس الباردة التي بدت كسجادة ملقاة تحت قدمي. توقفت وأصغيت، سمعت تشكيلة من ضجيج، ولكن ليس أي صوت من أصواتهم. وفكرت لن يضيعوا ما تبقى لهم من وقت قليل في هذا العالم لتفحص المستنقع من أجل

امرأة جريحة.شعرت بتعب شديد. كانت ساقاي ثقيلتين ومنهكتين، ولم أستطع رفع رأسي. رأيت جذع شجرة بلوط كبيرة أمامي تماماً، كبيراً مثل حجرة. مشيت مترنحة إليها، متعثرة في متاهة جذورها السطحية، التي امتدت في كل الاتجاهات، صانعة أعشاشاً مغطاة بطحالب شتى. جلست في أحدها، قريباً من الجذع. لقد بدا مكان راحة مثالياً. عندما حركت ذراعي، جعلني الألم أصرخ عالياً، والتصق ثوبي بظهري من كتفي إلى خصري. كم فقدت من الدم؟ تساءلت. سمعت صوتاً ينطلق فوق رأسي، وصوت تكسر أغصان شجيرة قريبة. لم أستطع التذكر لماذا كنت في الغابة ليلاً. ألمّ بي صداع. فتحت فمي وأغلقته. شعرت كأن فكي مكسور. رأيت وجه سارة وشفتيها تتكششان عن أسنانها مثل كلب يزمجر عندما صارعتني. "سيقتلونني،" قلت، لكنها لم تكن تصغي، أو لم تسمع. لا، فكرت، لقد سمعتني جيداً، وكانت أمنيتها أن يقتلوني.

"غير أنني لا أزال على قيد الحياة،" قلت بارتياح. ثم بدا الظلام حولي بقدر ما كان خلف عينيّ كان أمامي، فأقلعت عن محاولة الرؤية خلاله.

❖❖ ❖❖ ❖❖

عندما فتحت عيني ثانية، شاهدت يداً سوداء. كان الضوء ناعماً قرنفلياً، وثمة أزيز قادم من مكان ما خلفي، بدا مثل صفير مختلف الطبقات. حركت أصابعي وأدركت أن اليد هي يدي، كان الطين على راحة يدي يتشقق عند فتحها، ويظهر البشرة الشاحبة تحته.

وكان فمي جافاً كالطين، ورأسي دائرة صغيرة من ألم يصدر من داخلها، ثم ينتشر إلى كتفي، حيث يغدو ناراً. عندما حاولت النهوض، لم يحدث شيء. طرفت عيني، وتطلعت عالياً إلى متاهة من الأغصان والأوراق فوق وجهي. لابد أنه كان الفجر، فكرت. حاولت الاستدارة إلى جانبي، بعيداً عن كتفي المحترقة. نجحت هذه المرة. نهضت على ذراعي السليمة. عرفت أين كنت، وتذكرت كيف وصلت هنا. ولكن ما هذا الصفير خلفي، أدرت رأسي بحذر، ذكرت أن وجنتي ممزقة، وفكي في هيئة جديدة جعلته ينبض مثل قلب منهك. نظرت إلى جسد عارٍ، مكدوم، ملتف في تجويف بين جذرين، قارب ذراعيه وساقيه مثل جنين، جانب من رأسه متورم، مدمى ومكدوم، فمه فاغر، يشخر بسلام كأن الطحالب فراش من ريش. إنه والتر.

أثارت جلبة طيور أبو زريق الزرقاء في شجيرة قريبة في الرغبة بأن أمسك رأسي بإحكام، غير أن يدي اليمنى لم تستجب لأمري. لاحظت جدولاً صغيراً يجري قريباً. تلألأ الماء عندما توهجت الشمس فوق الأشجار ونفذت أشعة ساطعة عبر الغابة من كل الاتجاهات. أمسكت بغصن منخفض يمر بالقرب من عشي، وسحبت نفسي إلى قدمي. لم أكن ثابتة، وكنت في أشد حالات كربي، ولكنني استويت على قدمي.

"والتر، انهض،" رفعت صوتي لأنافس طيور أبو زريق. وتذكرت أن رفيقي النائم لن يسمع بندقية تطلق نارها عند أذنه. كيف وجدني؟ هل عرف طريقه في هذا المكان؟ نزعت كتلة من الطين

عن يدي وقذفتها عليه، فضربت ساقه. انفتحت عيناه، سعل، ثم بدأ بالبكاء. كان عليّ أن أتركه وحيداً لبعض الوقت، فكرت.

كان الجدول يجري باتجاه النهر على الأرجح، ويجب أن يكون طريقي في الاتجاه المعاكس. خطوت خطوة، ثم أخرى، وقد أحسست أن كل واحدة منهما ربما تكون الأخيرة. وقف والتر بين الجذور ثرثر بسخافات. "اهدأ،" قلت، وأنا أبحث لأرى مباشرة مساحة أكبر من الضوء. أسرعت حريراة إلى قدمي، وتوقفت أخرى على جذر أمامي وحدقت إليّ، مرة من هذه الجهة من رأسها ومرة من الجهة الأخرى. عالم من المعتوهين والمسوخ، فكرت، وبقيت لأقص حكايتي.

كان الهواء رطباً، ونفذ البرد إلى عظامي. لقد بدا لي أن هناك أرضاً مقطوعة الشجر وراء أجمة العليق، لكنني لم أستطع رؤية كيفية الوصول إليها، فيما كانت الأجمة طويلة مثل بناية في مدينة. وقف والتر على قدميه وابتعد في الاتجاه الآخر، نحو ما ظننت أنه النهر. هل علي أن أتبعه؟ لقد اختفى وراء الشجرة التالية، ثم سمعت صوت خطوات سريعة. فشققت طريقي ببطء وألم إثره، أتجنب كتلة متشابكة من الأغصان المكسورة والمعترشات، ثم درت حول جذع شجرة غار كبير، وإذ بي أقف على المرج أنظر إلى جانب المنزل. ركض والتر أمامي عبر العشب، باتجاه ما بدا وكأنه كومة أليسة. انكسرت الشمس فوق سطح البيت، وغسلت المشهد بـ حِدة لا تتلاءم مع ما كان متوقعا أن يُرى. كان الجو مشرقاً، بارداً، وساكناً. رأيت أسراباً كبيرة من الذباب فوق جسد زوجي المجعد.

وصل والتر إليه. انحنى فوق الجسد وشرع يصارع لرفع الرأس، ويصرخ طوال الوقت.

لا تفعل ذلك، قلت في سري، لا تلمسه. ظلت أبواب البيت الأمامية مفتوحة، ونوافذ غرفة الطعام كلها مفتوحة جزئياً، لكن لم تكن ثمة إشارة لمقيمين أحياء فيها. وهكذا نهض العمال على صوت الجرس وذهبوا إلى أعمالهم، سعداء لأنهم لم يعرفوا أن سيدهم ملقى على المرج ورأسه مقطوع تقريباً. لم يأتِ السيد ستر لينضم إلى القتال، وتخطت الدورية المتبجحة بيتنا في مطاردة المتمردين. هل هذا محتمل؟

جررت نفسي باتجاه المدخل، أتوقف كل بضع خطوات لألتقط أنفاسي. ظننت أنني قد أموت من العطش قبل أن أصل إلى الباب. لو دلفين هنا وحسب، تمنيت. دخلت عبر القاعة، ونظرت على عجل إلى غرفة الطعام ما يكفي لأرى أنها كانت محطمة، والكراسي مكسرة، والزجاج المهشم في كل مكان، ولحم الفخذ بقي على السجادة قرب باب القاعة على نحو غامض. ذهبت عبر القاعة، إلى فناء المنزل الخلفي، وعبر الفناء الضيق إلى باب المطبخ. كان مغلقاً. حاولت فتح المزلاج، كان مقفلاً. انحنيت عليه، وناديت: "دلفين، هل أنت هناك؟ دعيني أدخل." تحركت الستارة على النافذة الضيقة، ألقت روز نظرة مختلسة، صرخت، وأسدلت الستارة. "دعيني أدخل،" قلت ثانية، "أنا لست شبحاً لكنني قد أصبح سريعاً إذا لم تفتحي الباب." تحركت الستارة ثانية. تطلعت دلفين خارجها هذه المرة، وقالت: "هل هذه أنت، سيدتي؟"

قلت: "أنا على قيد الحياة. لم يقتلوني." فسحبت المزلاج وتأرجح الباب أمامي مفتوحاً. "يا إلهي، سيدتي،" قالت دلفين، وهي تقودني إلى الداخل. "ماذا حدث لك؟"

"لقد هربت،" قلت. "اختبأت في الغابة. لكنهم أطلقوا عليّ النار." أشرت إلى كتفي. رأيت في العملية ذراعي الملطخة بالطين، وأكمامي الممزقة والدامية، وتذكرت أنني كنت مغطاة بالطين. "أحضري لي بعض الماء،" قلت، وأنا أغوص في كرسي على الطاولة. "فأنا أكاد أموت من العطش."

كانت النار مشتعلة، وكانت هناك قدور تغلي، ورائحة لحم وخبز زكية. وضعت دلفين أمامي كوب ماء فشربته بجرعة واحدة، وقلت، "أريد آخر،" وأنا أرفع الكوب. أحضرت روز الإبريق وملأت الكوب ثانية. ذهبت دلفين إلى الغلاية وصبت ماء ساخناً في زبدية، ثم جلبته إلى الطاولة وأضافت إليه بعض الماء البارد من الإبريق. وأخذت قطعة قماش، وضعتها في الماء، وعصرتها. وقالت: "لا أعرف من أين أبدأ." فأخذت قطعة القماش ومسحت وجهي، وقد أجفلت عندما وجدت الجرح البليغ في خدي. "جرح سيء،" لاحظت روز. وفكت دلفين ثوبي من جهة الظهر، وقالت: "كل قطع القماش تلك ملتصقة بالجرح. وسوف يؤذيك نزعها لأنظفه."

"لا أستطيع أن أرفع ذراعي،" قلت.

سمعنا صوتاً ينتحب قادماً من البيت، وفي لحظة تعثر والتر إلى داخل الفناء. كان يمسك وجهه بيديه، ويبكي. كانت يداه وصدره العاري ملطخاً بدم داكن. توقف، عرفنا، ومدّ ذراعيه، وجرت

دموعه ممتزجة بالدم على وجهه. كان جبينه متورماً إلى درجة أغمض إحدى عينيه.

قالت روز، "أيها الطفل المسكين، وذهبت إليه. وأردفت: "ماذا فعلوا بك؟" رفعته ودفن وجهه في عنقها.

"إنه يبكي لأن والده هناك في الخارج ميت على المرج،" قلت.

كان هناك سكون قصير لاحظتا أثناءه أنني تكلمت عن زوجي كوالد والتر. أخذت دلفين قطعة القماش مني وشطفتها في الحوض، وقالت بلطف: "السيد ميت."

قلت: "روز، اذهبي ابحثي عن السيد ستر، وقولي له أن يأتي إلى المنزل في الحال." وضعت روز الطفل، ناولته قطعة خبز، وخرجت، تنظر بعجل حول الفناء بعصبية، مبتدئة بالدجاجات. جلس والتر قرب قدمي، وهو يمضغ خبزه بيد وينزع الطين الجاف من بين أصابع قدمي بالأخرى. قلت: "توقف عن فعل ذلك،" وأنا أدفع قدميّ تحت الكرسي.

❖❖ ❖❖ ❖❖

كان السيد ستر ميتاً أيضاً، فقد توقفوا عند بيته أولاً، وتسللوا عبر النافذة، وقطعوا حنجرته. عندما وصلت روز إلى هناك، وجدت الباب مفتوحاً على مصراعيه وكاتو، السائق واقفاً في الشرفة. أخبرها: "لا تدخلي، ويلغي السيدة أن السيد ستر قُتِل في فراشه."

"أرسلي ولداً ليحضر الطبيب،" أخبرتها لدى سماعي هذه الأنباء، فعادت إلى الحي. كانت دلفين تملأ حوض الاستحمام بماء فاتر.

وقالت: الأفضل أن أقص ذلك الثوب بالمقص."

"تخلصي منه وحسب،" قلت بسأم. "لا أبالي كيف تفعلين ذلك."

ففكت التنورة وكانت تقصها من الأمام عندما سمعنا وقع خطوات ثقيلة آتية بسرعة عبر البيت. فقلت: "اقفلي الباب،" لكن قبل أن تستطيع دلفين النهوض على ركبتيها، نادى صوت ذكوري عميق: "مرحباً، هل من أحد هنا؟"

تبارك الله، فكرت. لا يزال هناك رجال بيض أحياء. وصرخت: "في الداخل هنا، في المطبخ." وخرجوا واحداً إثر آخر إلى الفناء. كان هناك أربعة منهم يرتدون معاطف عسكرية بالية، وينتعلون أحذيةً عالية الساق، ويتسلحون بسيوف ومسدسات. أين كانوا عندما كنت بحاجة إليهم؟ اتسعت عيونهم عندما اكتشفوا أنني أجلس في مطبخي، مغطاة بالطين، وجهي منتفخ وينزف، وذراعي عديمة الفائدة ترتاح في حجري. ميزت أحدهم، من معارف زوجي، محام اسمه أومالي، قال بوقار: "سيدة غوديت، واجبي التعيس أن أخبرك بأن زوجك قد قُتِل."

لم أعرف ما إذا كان علي أن أضحك أو أبكي. كان الأمر كما لو أنني في بلد أجنبي، في أرض يحكمها الجنون، وعدت لأجد أن لا شيء قد تغير سوى فهمي. نظرت إلى دلفين. بدت مرتعبة مع أن ملامحها كانت هادئة بصورة خانعة. كانت قلقة مما سيحدث لها الآن، فكرت. نحن جميعاً. كل دقيقة في كل ساعة. وقف السيد أومالي منتظراً ردي. ربما كان قلقاً من أن أُجَنّ وعليه أن يتعامل مع الأمر. فقلت بهدوء: "أعرف ذلك، لقد كنت هناك."

وكان واضحاً أنه شعر بالخلاص.

❖❖ ❖❖ ❖❖

مرت ساعات قبل أن أنسج خيوط القصص المتنوعة وأقدم النسيج المعقول. لم أهتم بذلك، لكنه كان نوعاً من خياطة، اعتدت عليه، وكالعادة، لأبقي رأسي بعيداً عن معاناتي الخاصة، التي كانت شديدة. كان هناك أولاً الألم الذي سببه انتزاع دلفين قطع القماش عن الجرح في كتفي وتنظيفه بالكحول. وقد أُعجب الدكتور لاندري بمهاراتها التمريضية وتحملي عندما وصل أخيراً، ثم باشر بتحديد حدوده القصوى. انتهى مفعول جرعات البرانديّ التي شربتها في الوقت الذي أخرج فيه ثلاث كرات من الرصاص وأعلن أن هناك اثنتين فقط عليه أن ينتزعهما. وبكيت قائلة: "لا أستطيع التحمل لحظة واحدة أكثر. أليس لديك شيء أقوى من البرانديّ؟" فصب كأساً أخرى، وقال: "رأيت جنوداً لم يستطيعوا الصمود مثلك." إطراء شعرت معه بلامبالاة. وبعد ما بدا أنه ساعة، استخرج كرة بملاقطه وأسقطها في حوض غسل الوجه بتنهيدة. ثم قال: "يبدو أن عليّ أن أترك الأخيرة في الداخل، إنها مدفونة عميقاً جداً في العضلة." رفعت يدي السليمة لأمسح العرق عن جبيني. وقلت: "هذا هو الخبر الأفضل الذي سمعته منذ أيام." ثم أبلغني الخبر الأسوأ، وهو أنني لن أستردّ استخدام ذراعي أبداً. فإحدى الرصاصات هشمت العظم وأذت وتراً في أعلى كتفي، وقال: "ستكونين قادرة على استخدام يدك جيداً. وأخيراً ربما تكونين قادرة على رفع الذراع

قليلاً." وعندما أصبت بدوار بسبب هذا التشخيص، أخرج الإبرة والخيط وأخذ يعمل على وجهي.

شغل أومالي ورجاله أنفسهم بإصلاح المنزل. فجمعوا جسد زوجي ونقلوه إلى غرفة الثلج. وكان السيد ستر قد أُحضر إلى هناك أيضاً ملفوفاً ببطانية وهكذا لم يستطع أحد من العبيد أن يراه، فالمعروف أن رؤية المراقب القتيل تثير الزنوج. ظل اثنان من الحراس في الأسفل طوال الليل، يطوفان دون توقف مع أنه لم يكن هناك خطر من عودة المتمردين. وبعد أن خربوا البيت وانتزعوا كل شيء من أدوات الطعام إلى الأحذية كما لو أنهم عزموا على أن يقيموا مزرعتهم الخاصة في المستقبل، تحركوا إلى طريق النهر في وقت مناسب ليلتحقوا بالدورية.

كانت المطاردة عنيفة وطويلة، معظمها في الأراضي المنخفضة، حيث عقّد الطين والظلام النتيجة. فأصيب أحد أفراد الدورية بطلقة في الساق، وطُعن آخر في عينه. وقُتل أربعة من الزنوج، بمن فيهم القائد، وأُسر اثنان آخران وقيّدا للشنق. أمضت الدورية نصف الليل في الملاحقة وقضت النصف الآخر بنقل الأسرى إلى أسفل النهر، حيث انضمت إلى دورية ثانية آتية من الشمال أعلمتهم بأن المعركة دائرة في دونالدسنفيل والرجال جميعاً مدعوون. لم يتذكر السيد أومالي حتى الصباح رؤية ملاعقي تومض في الطين وفكر بالتحقيق في مزرعة غوديت.

وعندما انتهى كل ذلك، كانوا قد أسروا خمسين زنجياً أعدموا بالرصاص أو شنقاً في الأيام القليلة التالية. ولم تكن الإصابات بين

المزارعين كبيرة، أصيبت دزينة منهم وقتل اثنان: زوجي والناظر، السيد ستّر.

❖❖ ❖❖ ❖❖

وصلت خالتي في الصباح التالي من البلدة، تبعتها عربة يجرها بغل تحتوي تابوتين أرسلهما أخو زوجي من تشارلز تشارلز غوديت، الذي وصل مع ابنه إدموند بعد الظهر. رفضت أن أرى أحداً، فقد كنت مريضة جداً لأغادر سريري، وقامت خالتي بكل الترتيبات، وهذا ما لاءم الجميع. أرسلت لي خادمتها الخاصة، وهي ممرضة بارعة، أعطتني أدوية مختلفة وأطعمتني الحساء والشاي والكاسترد. ومع أن الأكل آلمني، كنت عصبية أيضاً. أصغيت طوال النهار للباب الأمامي ينفتح وينغلق، وهمهمة الأصوات، التي كانت في البداية خفيفة، ولكن، عندما امتلأت الغرفة وقدمت خالتي وجبة مفتوحة مع كميات من النبيذ، غدت أكثر حيوية بالتدريج، وتميزت بالضحك أحياناً. كانت خالتي تعودني كل ساعة لتصف تقدم الجنازة. حضر كل المزارعين من مسافة أميال على طول النهر، وحتى أولئك الذين لم يحبوا زوجي، أو الذين لم يكونوا معارف، تفهموا أهمية الوقوف أمام قبره. وقد مشوا إلى المقبرة بعد الظهر لمراسم قصيرة وعادوا إلى المنزل لتناول المزيد من الطعام والنبيذ. سمعت كل ذلك عبر حاجز من الألم. ومع حلول الظلام بدؤوا بالرحيل، وكذلك فعلت أنا، إلى نوم محموم. وعندما استيقظت كان الوقت صباحاً وكانت خالتي جالسة بقرب سريري

مع ظرف في حضنها.

"كيف تشعرين، يا عزيزتي؟" سألتني.

كانت هناك لحظة وضوح مقبولة عرفت فيها أن زوجي كان قد مات ودُفن، تبعتها سورة ألم قوية جداً إلى درجة طردت كل شيء آخر عداها. قلت: "لم أكن أسوأ أبداً."

"ماذا يمكنني أن أقدم لك؟" أومأت إلى طاولة الأدوية.

"بعض الماء فقط."

صبت كأس ماء ورفعته إلى شفتي. "هل الرسالة لي؟" سألتها، عندما جرعت رشفات قليلة.

"إنها من جويل بوردن. طلب مني بشكل خاص أن أحضرها لك."

"دعيني أراها،" قلت. ناولتني خالتي الظرف وقمت بعمل آخرق بفتحه في حضني.

فضضت الصفحة وقرأت:

عزيزتي مانن،

إن فداحة سوء حظك صاعقة إلى درجة لا أعرف أية كلمات يجب أن أكتب. أمك العزيزة أولاً، والآن هذا الفقدان وسوء الحظ الفظيع. إذا كان بإمكاني تقديم أية مساعدة لك في الأيام القادمة، استدعيني رجاءً. وإذا لم تكن ثمة حاجة، فآمل أن يكون في تلقي تعاطف وحب صديقك المخلص بعض الراحة.

جويل

قلت: "رسالة لطيفة جداً." ثم ذكرني الألم الشديد في وجهي

بالأذى الذي لحق بي. وضعت راحة يدي على الضماد فوق خدي، وقلت: "ماذا سأشبه عندما يتعافى وجهي؟"

أكدت خالتي لي أن "الدكتور لاندري جرَّاح ممتاز، فقد وضع سبعاً وعشرين غرزة في جبين خادمتي إينس ويكاد لا يكون هناك أثر لندبة."

"ولكن فمي،" قلت، وأنا أتفحص الخيوط الشائكة التي تمر من داخل شفتي إلى أسفل ذقني.

لم تجب خالتي، ربما لأنها فكرت أنني تافهة، مع أنني أشك بأن أية امرأة تستطيع أن تفكر في احتمال التشويه برباطة جأش. طويت الرسالة وأعدتها للظرف. كان عليّ استخدام يدي اليسرى لتحريك يدي اليمنى إلى وضع مفيد. ما الذي سيبدو أسوأ، تساءلت، وجهي أم يدي الضعيفة المعلقة إلى جانبي؟

قالت خالتي: "مانن، أين سارة؟"

"ألم تعد؟"

"لم يرها أحد."

"لا."

نظرت إلى يدي، كان هناك ثلاث علامات لكدمات خلف إبهامي. "لقد عضتني،" قلت.

"يا رحمة الله،" قالت خالتي.

"أخذت حصان زوجي وانطلقت به. وقد توسلت إليها كي تدعني أهرب، لكنها لم تفعل."

"ثم هربت بعيداً،" استنتجت خالتي.

Sample

"لكن إلى أين؟" تساءلت.

"لا تستطيع أن تذهب بعيداً. ربما تختبئ في البلدة. سأتفاجأ إذا لم يعرف السيد روجيه شيئاً عن مكانها. سأكتب إلى عمك ليجري تحقيقات حالاً."

مات زوجي، فكرت. ما الذي يجعلها تهرب الآن، وقد أصبحت في مأمن منه؟ لكن ذلك لا يفسر شيئاً.

"أخذت طفلتها معها،" قلت.

"سيسهل هذا إيجادها."

استطعت رؤية وجهها ثانية، وقد انسحبت شفتاها عن أسنانها، وجُثّت عيناها وتوهجتا في ضوء المشعل عندما كشفت عن مكان زوجي لقاتليه ووقفت قريباً حتى وقع السيف على عنقه.

وافقت، "أجل، سنجدها."

❖❖ ❖❖ ❖❖

أرسلت إلى دلفين أسألها عن سارة، ولأكتشف ماذا عرفت عن تلك الليلة. قالت إنها ذهبت إلى الفناء بعد العشاء لترمي الماء الوسخ وعندما عادت رأت ثلاثة من الهاربين يقفون في المطبخ. وبالتالي فقد كانوا في المنزل عندما كنت أتكلم مع زوجي في مكتبه. فانسلت دلفين من الفناء وزحفت على طول فناء البيت الخلفي إلى نافذتي، حيث رمت حصى إلى أن نظرت سارة إلى الخارج. "فأخبرتها ما رأيت،" قالت دلفين، "وطلبت أن أنتظر حتى تمرر لي طفلتها نزل، وهكذا اختبأت بجانب الحائط ثم لفت الطفلة وأنزلتها لي."

"لكنني نظرت إلى الخارج بعدئذٍ ولم أرَ أحداً. قلت.

قالت دلفين: "لقد رأيتك، سيدتي، لكنني كنت خائفة من التكلم وتصورت أن سارة أخبرتك، لذلك بقيت ساكنة حتى أنزلت نزل. ثم ركضت حول الجهة الأخرى من البيت وكان ذلك عندما تطايرت الطلقات. وقد اختبأت في أجمة إلى أن ركضتم جميعاً خارجاً على المرج.

"وأعدت الطفلة لسارة."

قالت دلفين: "نعم، سيدتي، لقد نادتني، وبعدئذٍ ركضت إلى المطبخ وقفلت على نفسي فيه مع روز حتى جئت."

"أين تظنين أن سارة ربما تكون قد ذهبت؟" سألتها. مع أنني لم أتوقع جواباً صادقاً. أمالت دلفين رأسها، وقالت: "سيدتي، ليس لديّ فكرة."

قلت بثقة: "ليس مهماً. لن تذهب بعيداً. وإذا لم تعد خلال أسبوع فسأنشر إعلاناً في الصحف، وسوف يجتذب ذلك صائدي العبيد مثل الذباب إلى السكر."

لم تقدم دلفين أي ردّ. وقد اعتبرت أن المعلومة الأخيرة ستنتقل إلى سارة. وقلت: "أرسلي لي روز، ستخدم في الطابق العلوي حتى تعود سارة."

❖❖ ❖❖ ❖❖

ما كان أبي ليحتفظ بأي عبد آبق، ولم يدع أياً منهم يبقى بعيداً أيضاً. فلو استغرق منه الأمر ستة أشهر وكلفه ذلك أكثر من ثمن

العبد، سيتحمل تلك الخسارة بسرور فالمثال هو أن يرى الآخرون الناقم العائد بالقيود وبيعه مباشرة في السوق. ويتأكد هو من أن كل عبيدنا قد بُلِّغوا بشرط الكفالة، لأن أياً كان مشتري العبد فيجب أن يعرف بأن لديه آبقاً لا يمكن الوثوق به، وبالتالي ستنخفض قيمته. وقد أثمرت هذه السياسة انخفاضاً كبيراً بمعدل الفائبين من مزرعتنا. واستهجن والدي لين جيرانه الذين سمحوا لعبد أن يختفي ليومين أو ثلاثة أحياناً، ودائماً عندما كانت المحاصيل في وضع حرج، ثم يعود ليُعاقَب بالجلد وينضم ثانية إلى رفاقه مع حكايات عن ذكائه في التملص من الأسر. وقد سالت دموع أبي من الضحك عندما أخبرونا عن سياسة السيد هامبتون أوف لافروتش باريش الذي خصص عدداً محدداً من السياط لكل يوم يتغيب فيه العبد: خمسة عشر سوطاً ليوم واحد، ثلاثون ليومين...الخ. وسمى والدي هذه الخطة "إجازة الثلاثة أيام" لأنها كشفت عن أن معظم الفارين من مزرعة السيد هامبتون الاعتياديين كانوا يعودون عند منتصف ليل اليوم الثالث، الذي استشهد به هذا السيد كبرهان على فعالية نظامه.

كان خدم البيت أمر آخر. أستطيع أن أتذكر مثالاً واحداً فقط لهارب من بيتنا. وقد حدث ذلك بعد التمرد المرعب أسفل النهر عندما كنت فتاة. لم نكن في خطر منه، وذهب والدي إلى المدينة بعدئذٍ تماماً وأخبرنا عند عودته عن الحالة المرعبة التي يعيشها الريف. جُنَّ خمسمائة عبد ببساطة وتحركوا إلى الطريق أسفل النهر باتجاه نيو أورليانز، يقرعون الطبول بعنف ويلوحون بالرايات. قتلوا ابن الميجر

أندري وجرحوا الميجر نفسه، وأشعلوا النار في المطاحن ومخازن الحبوب، وأغاروا على البيوت الأكبر، فهربت عائلات معظم المزارعين بعربات من شتى الأنواع التي استطاعوا إيجادها بسرعة، وسبقوا المتمردين إلى البلدة.

وقد استغرق الأمر عشرة أيام تقريباً للتغلب على الزنوج واستدعى الحاكم الميليشيا وكل الحرس في نطاق خمسين ميلاً. وكلفت الولاية كثيراً إلى درجة أن الخزينة أفلست، واضطرت إلى تقسيط التعويضات. وأخبر أبي أمي، عندما فكر أنني نائمة، مع أنني كنت أُصغي دون تنفس على ميدة الدرج، أنهم علقوا رؤوس قادة المتمردين في الأشجار على طول النهر من نيو أورليانز إلى مزرعة الميجر أندري، وأخذ معظم المزارعين زنوجهم ليروا هذا العرض.

اختفت خادمة المنزل سيليست في ذلك الوقت. وقد عاد والدي إلى المدينة وقام بتحريات حتى علم أن أخاها بين المتمردين. كان في الحقيقة واحداً من القادة. حجز والدي غرفة في الفندق وأمضى أياماً يتتبع كل إشاعة، وفي النهاية وجد سيليست مختبئة في مطبخ المطعم الذي تعمل فيه أمها طباخة. "لقد تبادلتما الراحة،" أخبرها الوالد، "غير أن الوقت قد حان لتعودي إلى المنزل." لم تقاوم، عادت إلى منزلنا وعاشت معنا، دائماً مفيدة ولطيفة إلى أن مات والدي.

شككت بأن تكون سارة مطواعة بالعودة. وإذا جعلتني أنفق كثيراً من الوقت أو المال في تعقبها، فلن أكون متساهلة.

❖❖ ❖❖ ❖❖

كيف كان عليّ أن أتذكر بالضبط ماذا كانت ترتدي؟ كنت أهرب من أجل حياتي. لم يقدم زي سارة نفسه كعلامة بارزة في تلك الأمسية. قلت لخالتي: "كان لديها ثلاثة أثواب متشابهة. ماذا يهم ذلك؟"

"حسن، هذا سيساعد،" قالت خالتي، بانزعاج يشير إلى أنها كانت قلقة من متاعبي، مع أنها ليست مثلي. وأردفت: "يسألون عن ذلك عادة."

أغمضت عيني وحاولت أن أتذكر الكمين اللتين تشبثت بهما وأنا أحاول إيقافها، ارتفعت التنورة بقطعتين فوق السرج عندما انطلقت بعيداً. "يجب أن تكون من القماش الخشن ذي اللون البني،" قلت. "ولفت طفلتها بشالها الصوفي النيلي، كان شالاً قديماً لأمي."

قالت خالتي: "حسنٌ،" وهي تنحني فوق الصفحة التي كانت تدون عليها تلك المذكرة. وأضافت: "هذا ما يجب فعله."

كانت الخالة ليليا مقتنعة بأن سارة في المدينة، مع أن حصان زوجي وُجد شارداً في مصطبة النهر على بعد أميال قليلة شمالاً من هنا. "ربما امتطت الحصان إلى رصيف مرفأ بايو سارا، وأمضت الليلة مختبئة، ونجحت في الوصول إلى العبّارة في الصباح التالي. لن تكون حمقاء لتتطلق جنوباً إلى منطقة الأحداث. ستحتاج إلى المال إذا رغبت بالذهاب إلى أي مكان، وستطلب المساعدة من السيد روجيه، بالتأكيد."

قلت: "ربما قدمها لها سابقاً. كانت الفرصة سانحة لها لتحيك خطة معه عندما كانت أمي مريضة."

غير أن خالتي بقيت مقتنعة بأن سارة لن تترك المنطقة دون مقابلة السيد روجيه. وقالت: "ستحاول التحول إلى زنجية حرة. وتستطيع أن تحصل على ذلك بلونها."

"هل دونت ذلك في المذكرة؟" سألتها.

"نعم،" قالت.

مرت لحظات فكرت فيها أن سارة هي من خطط للعصيان، عندما كانت تتهامس مع السيد روجيه في بيت أمي، مع أن ذلك كان بعيد الاحتمال بالتأكيد. فلن تكون خائفة كما كانت، ولم تكن لتأخذ حذرها بإخراج طفلتها من البيت في البداية. لقد اغتنمت فرصة الفوضى، وبالنسبة للحدث فلا بد أنها تاقت إليه، أي موت زوجي. وافترضت أنني سأقتل أيضاً وأنه ستمضي أيام عديدة قبل أن يفكر أحد بالبحث عنها. وعمي مولع بالقول: "عندما يعدون العبيد في جنازة سيد سيجدون دائماً أن أحدهم قد هرب."

"أظن أن هذا سينجح،" قالت خالتي وهي تجفف صفحتها. "هل أقرؤها لك؟"

"أفترض ذلك،" قلت.

"جائزة قدرها ٧٥ دولاراً،" قرأت.

"أليست عالية إلى حد ما؟" سألتها

"لا، لا أظن ذلك. رأيت جوائز بقيمة مائة دولار مقابل خادم منزل. غالباً ما يكون القبض عليهم صعباً."

"تابعي،" قلت.

"هربت الفتاة، سارة، عمرها نحو ٢٧ سنة، وطفلتها التي تبلغ من

العمر ثمانية أشهر، تدعى نِل، في ٢٧ تشرين الأول من مزرعة آر. بي. غوديت في أسنسيون باريش. وهي طويلة، نحيلة، جميلة الملامح، ذات بشرة فاتحة، تتكلم الإنكليزية وبعض الفرنسية، ترتدي ثوباً كتانياً بني اللون، وشالاً صوفياً نيلي اللون، دون حذاء، جذابة جداً، لديها ندبة خلف أذنها اليسرى..."

"لم أعرف ذلك،" قلت.

"وقعت في السياج عندما كانت صغيرة،" قالت خالتي. "ذُكر ذلك في العنوان." تابعت قراءتها. "تتحدث جيداً، وذات طبيعة طيبة."

"لن أقول ذلك،" قلت. "سأقول إنها ذات طبيعة عدوانية."

رمقتني خالتي بنظرة طويلة "ستحاول الانتقال،" قالت. "يمكن أن تسلك طريقاً إلى نيو أورليانز، وقد تعبر كزنجية حرة، خمسون دولاراً جائزة إضافية لإثبات إدانة أي شخص يحاول أن يؤويها."

"ألن تشجع اللقمة الأخيرة السيد روجيه على إرسالها خارج البلدة؟"

"لن تبقى معه،" أجابت خالتي. "سيكون ذلك واضحاً جداً."

"ربما أنت على حق،" قلت، وأنا أشعر بالملل والانزعاج من العملية برمتها. شعرت بكتفي كما لو أن مكواة حامية تضغط عليها، ورأسي يؤلمني. "هل حان وقت دوائي الآن؟"

وضعت خالتي المذكرة جانباً وجاءت إلى سريري، وقالت: "عزيزتي المسكينة، هل تشعرين بألم شديد؟"

"أجل،" قلت.

صبت ملعقة من المنوم، وقالت: "خذي هذه، واستريحي قليلاً.

سأنزل وأتكلم مع تشارلز. لقد أحضر سائقه الخاص من تشاترلي ليعمل كمراقب عمال هنا إلى أن تتعافي ما يكفي لتقرري ما تريدين فعله."

ابتلعت الدواء. وقلت: "أنا أعرف ما أريد أن أعمل. أريد أن أبيع المزرعة: كل شيء وكل شخص."

قالت خالتي: "سنتكلم في الأمر عندما تستعيدين قوتك ثانية." وأخذت تهدئني كما تفعل مع طفل مريض.

بدا رأسي يتدلى للأمام مثل زهرة مكسورة على ساقها، فقلت: "أخاف أنني لن أستعيد قواي ثانية أبداً."

❖❖ ❖❖ ❖❖

زارني الدكتور لاندري بانتظام ليبدل الضماد على كتفي ويجلب لي أخبار العالم. وقد أزال في أحد الصباحات الضماد عن خدي ونزع الغرزات الأخيرة من شفتي، وقال عندما طلبت مرآة: "سيتلاشى الاحمرار، كان ذلك الجرح البليغ في خدك ملتفاً جداً، وما كان الشيطان ليخيطه."

حدقت في صورتي. ثم قلت: "الآن هذا يُرثى له،" وأنا أضغط على الطرف المتورم الذي يقسم شفتي السفلى. في الحقيقة لم يكن سيئاً جداً كما خشيت أن يكون.

وارتأى الدكتور لاندري: "امرأة جميلة غدت أكثر جمالاً بندبة. إنها تذكر الرجل بالآلام التي تحملتها، وفي حالتك، أذهلتنا شجاعتك جميعاً."

"شجاعة بالهرب والاختباء؟"

"نساء كثيرات لن يفعلن ذلك."

تساءلت عما إذا كان هذا صحيحاً. تذكرت حالتي في تلك الليلة باعتبارها ليلة رعب عام، تميزت بلحظات صحو قليلة عرفت فيها ما ينبغي فعله. وإذا كانت تلك شجاعة، فما الخير فيها؟ سارة التي كانت مروعة، هي التي هربت على ظهر الحصان دون أن يلحق بها أذى، وزوجي، الذي لا يمكنني أن أنكر أنه كان شجاعاً، مات. لست مرائية لأنزعج بالقناعة المحزنة التي كنت أشعر بها كلما برزت تلك الصورة الأخيرة في شعوري. لقد مات، ولن يتلقى المزيد من التقارير. ابتسمت بضعف لانعكاس صورتي المتغيرة. إنه يستحق المعالجة، فكرت، وأنا أتأول المرآة للطبيب لاندري. وقلت: "لقد أنقذ زوجي حياتي،" بما يكفي من الصدق. فوضع الدكتور الطيب يده فوق يدي وعبّر ثانية عن تعاطفه العميق لفقداني.

فيما بعد، وبمساعدته، كنت قادرة على نزول الدرج لأول مرة. رتبت خالتي كل شيء، ولكن كان هناك دليل كبير على العنف. كان المنظار مفككاً وقطعه ملقاة على السجادة، كانت هناك آثار الطعنات على طاولة الطعام، وستارة مرمية، ومرآة محطمة وهكذا بقيت شظايا الزجاج في الإطار. وفي مكتب زوجي كانت هناك آثار طلقات على الجدار في الداخل. "لقد أطلقوا عليه النار وأخطؤوه،" أبديت ملاحظة للطبيب. "ثم هرب حياً بطريقة ما، ولكنه ترك مسدسه الثاني وراءه."

قال الطبيب لاندري: "إنه شيء فظيع لا يمكن وصفه." وقد

جعلني ضعف ساقي أستند بشدة على ذراعه وقادني إلى الكرسي، حيث غصت بامتنان. سمعنا صوتاً في القاعة، صُفق باب بعنف، كانت هناك خطوات سريعة تتقدم باتجاهنا. بالطبع، فكرت، لن أبدأ علاقة ببضعة ندوب وذراع معطوبة. سينتقم زوجي مني، وسيكون له ذلك كل يوم في ما تبقى من حياتي. تطلع الدكتور لاندري إلى الخارج من الباب، تغضن جبينه عندما انطلقت صرخة خافتة، وتنحى جانباً مفسحاً الطريق لمرور ذلك المخلوق إلى الغرفة.

كانت دلفين قد نظفته وألبسته سروالاً قصيراً وقميصاً فضفاضاً من الكتان أدخلت نصفه الخلفي في سرواله. كان وجهه لا يزال منتفخاً، وبهت لون الكدمة إلى الأصفر. جاء إلى كرسيّ وبدأ يربت ركبتي، هاذياً بكلام لا معنى له بثقة وتركيز مثل محامٍ يقدم دفاعاً لا يُردّ. نظرت من فوق رأسه إلى الطبيب لاندري، الذي غطى لحيته بيده وهزّ رأسه ببطء. "الوريث الشرعي،" قلت، وعندئذٍ، كما لو أنه فهمني، استدار والتر إلى الطبيب وأطلق صرخة بدت كأنها تعبير عن بهجة.

❖❖ ❖❖ ❖❖

لم أحب تشارلز غوديت، شقيق زوجي أبداً. فهو رجل متعجرف، فظ، ومتكبر، مثل زوجي، إلا أنه أسوأ لأنه كان ناجحاً. إنه الأصغر بين ثلاثة أخوة هو أغناهم. وقد شرع منذ مقتل زوجي، بالتنقل في هذه المزرعة كأنه يملكها، ويخاطبني بنبرات قلقة، كأنني مشوشة ويجب أن يعيد كل كلمة. وحالما تعافيت ما يكفي

لأستقبل زائراً، كان على الباب، متلهفاً للحصول على دفاتر زوجي ليبحث عن أية فرصة لاستعادة المال الذي كان أحمق كفاية ليقرضه إلى أخيه.

لم تكن روز بارعة في تمشيط شعري، وقد جعلتها تسرحه على نحوٍ يتدلى فوق كتفي. أخفيت شفتي بأحمر الشفاه، وخدي بالبودرة، وثبتُّ مرفقي ليرتاح على ذراع الكرسي، وبذلك رفعت كتفي إلى وضع طبيعي. تركني شفائي نحيلة وشاحبة، وكثَّف الشحوب زرقة عيني، أو هكذا تراءى لي. وسرعان ما باحت عينا تشارلز بالحذر عندما دخل إلى الشرفة، حيث رتبت نفسي لاستقباله. مددت يدي اليسرى عندما تقدم وانحنى فوقها، ومسّ براجم أصابعي بشفتيه، وقال: "أختي العزيزة، كنت أدعو لك في صلواتي كل الأوقات."

فسألته: "هل تصلي كثيراً؟"

فتراجع متذكراً أنني لم أكن مفتونة به أبداً. وحاول في منحى آخر، وقال: "تبعث مايبل حبها وتعاطفها."

عندئذٍ شعرت بالأسف من أجله، لأن ماي بيل كانت بدينة مثل خنزير. وقادتني تلك الفكرة مباشرة إلى شعور بالذنب. فـ مايبل وحدها من بين أقاربي هي التي أبدت لي اللطف دون أي ذكر للرب في رسالة تعزيتها بموت أمي. وحكت عن لطف أمي عندما كان ابنها مريضاً حيث أرشدتها إلى اختصاصي. فيما شعر الآخرون بالحاجة إلى التأكيد على أن موت أمي كان جزءاً من خطة الرب. وقد أردت بالضبط أن أصرخ بعد قراءتي هذا الرأي لمرات عديدة ـ

تلك هي خطته: أن يقتلنا جميعاً. وإذا مات طفل بريء في صراع مع الألم ولفظ رجل شرير أنفاسه الأخيرة في عمر متقدم أثناء نومه، فمن نحن لندعو ذلك ظلماً؟

قلت لـ تشارلز: "أرجو أن تبلغ مايبل أفضل تمنياتي."

ابتعد إلى كرسي وجلس عليه بحذر رجل ركب كل النهار، وقال: "أخبرتني خالتك أنك تشعرين بأن صحتك جيدة ما يكفي لتهتمي بشؤونك."

قلت: "أجل، ويبدو لي أن هناك الكثير مما يجب العناية به."

فقال: "لست بحاجة لأن تزعجي نفسك بأي منها. نحن نأمل أن تأتي للعيش معنا في تشارلي."

أخبرته خالتي بقيمة ملكية أمي، فكرت. وقلت: "هذا لطف منك. لكنني أتوق إلى أن أكون قرب خالتي، لأكون مفيدة لها، فقد كانت لي نعم الراعي."

قال: "أفهم هذا، مع أنه سيخيب أمل الأولاد."

كانت هذه الملاحظة شفافة إلى حد بالغ، لأنني بالكاد تعرفت على أبناء وبنات أخوة زوجي، ولا هم عبروا عن اهتمامهم بمعرفتي. نظرت حول الغرفة، وحدقت في مختلف الأماكن الخالية حيث قد تسكن الأرواح، وفي الواقع شعرت ببرودة غريبة، كالشعور الذي كنت أختبره عندما كان زوجي يتطلع إليّ، وقلت: "تشارلز، لا أستطيع تحمل العيش في الريف. لن أشعر أبداً بالأمان."

قال: "بالطبع، لم أفكر في ذلك."

"أريد أن أبيع هذا المكان وكل من فيه، عدا دلفين."

فقال: "أنا متأكد من أنه يمكن إيجاد مشترٍ. غير أنني أخشى من أن السعر لن يكون مرضياً."

قلت: "نصف دين زوجي للأبرشية،" استمتعت بالذهول الذي استقر على مستشاري.

وأضفت، "هو مدين لك بخمسة آلاف دولار، أليس هذا صحيحاً؟ ستة آلاف تقريباً مع الفوائد."

"لست متأكداً من المبلغ بدقة."

"وهو مدين للبنوك بثروة، ومدين للمصنع بأكثر مما سينتج من غلة هذه السنة. ومع ذلك، أظن أنني إذا بعت كل شيء، ولو بسعر زهيد، فسيسدد هذا الدين."

"عليّ أن أطلع على دفاتر حساباته،" عرض، مرتاباً في صحة التوقيت.

فقلت "نعم، عليك أن تفعل ذلك، وربما ترغب في أخذ كأس ويسكي معك، لتستجمع قواك ضد الصدمة."

"أخي المسكين،" قال، آخذاً بعين الاعتبار مدى حماقة زوجي، وزوجة عرفت ماذا يملك.

فقلت: "لحسن حظي، لديّ ممتلكات أمي. سأنتقل إلى منزلها في البلدة. وسيكون دخل استثماراتها كافياً لاحتياجاتي، وهكذا لن تكون ثمة ضرورة لطلب الصدقة من أقارب زوجي."

فتجهم وقال: "يسرني أن أعرف أنك ستكونين مكتفية بذاتك. وأعتقد أنك لن تكوني بأمان بأية طريقة أخرى. ولكن ليس صواباً أن تصفي الواجب الجليل الذي أتحمله إزاء أرملة أخي أنه صدقة. إذا

كنت مفلسة، فسأعتبر أن إعالتك واجباً وشرفاً لي."

إنها المرة الأولى التي يدعوني أحد أرملة في وجهي. أحببت وقعها. تصورت مصيري في بيت هذا الرجل إذا اضطررت إلى الاتكال على القسم بشرفه - العمة المترملة، مجبرة على الصمت بطوق الزخرفة، تُستدعى للعزف على البيانو عندما يرغب الشباب بالرقص - وأرسلت رسالة عرفان بالجميل من القلب لأمي من أجل استثماراتها المنطقية، وذهنها المالي الممتاز.

قلت: "تشارلز، أشكرك، هل يمكنني الاعتماد عليك في عملية البيع؟"

"سأتكلم مع وكيلي اليوم،" نظر حوله في الغرفة، مقيِّماً الفرش بما ظننت أنها عين خبير. وأردف: "سيود أن يقوم بجرد."

قلت: "سآخذ عدداً من القطع الصغيرة وخزانة الملابس والسجادة في غرفة نومي. ولا شك ستأخذ دلفين بعض الملاعق والقدور التي لا غنى عنها."

"بالطبع،" قال.

"إذا كان ثمة شيء تريده من أجلك، أو تريده مايبل، فأرجو أن تشعر بالحرية..."

قال: "لا، ذلك لن يكون صحيحاً، إلا إذا اقتطعت القيمة من دين أخي المسكين."

قلت: "خذ مسدساته على الأقل، لقد أرادها أن تبقى في العائلة."

استقرت عيناه عليّ، مليئة بالعاطفة. وقال: "اقتراح عميق حكيم. سآخذها بسرور."

Sample

بدأ كتفي يؤلمني ورغبت في إنهاء المقابلة، لكنني لم أستطع مقاومة اختبار إحدى نوايا قريبي الطيبة، فقلت: "أفترض أنك لا ترغب بأن تستثني والتر من عبيدي."

تورد خداه وسعل بعصبية. لقد كان من الصعب أن أحافظ على الصراحة، والهيئة المهتمة. قال: "مانن..." باحثاً عن الكلمات. كان هذا من ممتلكات أخيه التي لا يريد أن يتصرف بها. تصورت والتر راكضاً عبر الشرفة في تشاترلي ليرحب بالضيوف في الحفلة الراقصة السنوية. "ابن أخي الصغير،" قد يوضح تشارلز، بينما يحك والتر الطين عن معطف سيد أنيق. "مايبل..." تابع تشارلز "ليست بحالة جيدة..."

قلت مشفقة عليه: "لا بأس، لست مجبراً على أخذه. دلفين هي الوحيدة التي تستطيع تدبير شؤونه ولسبب ما فهي متعلقة به."

"إذن سيكون الوضع أفضل..." تمتم.

قلت: "لكان الوضع أفضل لو أن ذلك الطفل لم يولد أبداً."

أومأ أخو زوجي بحكمة. وقال: "فهمت أن الأم هربت."

قلت: "أجل، لكنني أتوقع أننا سنجدها قريباً. لا تضع اسمها في قائمة الجرد. لا أنوي بيعها."

نظر إلي نظرة متسائلة. ولم أستطع أن أتحمل المزيد من الألم في كتفي. أرخيت مرفقي من دعامته وأجفلت عندما سقطت ذراعي ضعيفة عبر حجري. ثم قلت: "إذا كان عليّ أن أعيش مع والتر، فعلى أمه أن تفعل أيضاً."

القسم الرابع

في البلدة

قالت خالتي: "عمك مقتنع بأن علينا أن نستخدم السيد لِغيت."

كنا نجلس في ردهة كوخي، وقد استغرقت ثلاثة أسابيع كي أعود للإقامة في هذا المنزل المقبول. كانت خالتي متحمسة للعودة إلى البلدة، وبما أنني لم أكن أتوقع بأن أقضي ليلة بمفردي في منزل زوجي، أتيت معها تاركة روز ودلفين لتحزما ملابسي وتلحقا بي. كنت مُسنَدة بالوسائد على الأريكة، وأدارت خالتي كرسي أمي الكبير لتواجهني. كان الجو قارساً، ولكن كان لدينا نار في الموقد والستائر مسدلة والمصابيح مضاءة.

قلت: "كيف استطاعت أن تختفي تماماً."

"يعتقد عمك بأنها لم تعد في البلدة. كانت تحرياته عادة تقود إلى بعض الاتجاهات، ولكنه، في هذه الحالة، لم يصل إلى شيء."

"أنا أفترض أن يُستجوَب السيد روجيه."

"مراراً وتكراراً، ولكن ليس بواسطة عمك، فهم لا يتبادلون الكلام."

"هل السيد لِغيت شخص يمكن الوثوق به؟"

زفرت خالتي نفثة هواء من منخريها، وقالت: "لا يمكن الثقة

بأحد منهم. إنهم أسوأ ضروب الرجال، يضخمون نفقاتهم دونما سبب، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً حيال ذلك، غير أن عمك استخدم السيد لغيت في الماضي وحقق بعض النجاح. وهو يريد (٢٥) دولاراً مقدماً مقابل الجائزة."

"وإذا فشل بإعادتها؟"

أوضحت خالتي "ستفقدين النقود. لا يوجد ما يضمن أنه سوف يجدها، فهو يشكو أننا ضيعنا وقتاً طويلاً. وإذا كانت، كما يتوقع عمك، قد اتجهت نحو الشمال، فإنها ستكون الآن بعيدة تماماً. وكان السيد لغيت قد ساهم في استرجاع عدد من الفارين من مسافات بعيدة كَ بوسطن، ولكن هذا يأخذ وقتاً. فحالما تصبح في ولاية حرة لا يستطيع الاعتماد على مساعدة السلطات رغم أنه يوجد دائماً من يساعدون في إلقاء القبض مقابل ثمن."

"بوسطن!" قلت.

وافقت خالتي: "تبدو بعيدة الاحتمال. يريد السيد لغيت أن يعرف ما إذا كان لديها أقرباء في الشمال قد يمدون لها يد المساعدة."

"ليس هذا ما أعرفه. لم تتكلم عن أي شخص. هل تعلمين أين ولدت؟"

أعتقد في السيسبي. لقد جاءت من مزرعة قرب ناتشز. وأفترض أنها ولدت هناك.

"ربما ذهبت إلى هناك."

قالت خالتي: "لا أعتقد هذا، فقد بيعت كجزء من مزرعة مفلسة."

"هل هي المزرعة التي اشتراها العم إميل منها؟"

"لا، هو اشتراها من مزارع سكر في سانت جون باريش. في الحقيقة، هو أخذها مقابل دين. كان يعرف أنني بحاجة إلى مدبرة منزل، وكانت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة تماماً، فاتنة جداً، ومطيعة، ومع ذلك كان تتسم بشيء من العناد حتى في ذلك الوقت."

"هي عنيدة،" قلت بنبرة متسائلة.

"لا أزال أعتقد بأن السيد روجيه يعرف أين هي."

استعدت رؤيتي للسيد روجيه فيما استدار بحديثه مع سارة ورفع قبعته لي ومشى بعيداً.

قلت: "أخبرتني أن لديها أخاً. ولم أصدقها عندئذ ولكن ربما يكون ذلك صحيحاً . قالت إن السيد روجيه جاء إلى هنا ليعطيها رسالة تبلغها أن أخاها قد استؤجر ليعمل في السفن."

"هل قالت اسم الأخ؟"

قلت: "كلارنس. ولكن لماذا أخبرتني، لو أنها كانت تخطط للهرب بمساعدته؟"

"ربما لم تكن قد جهزت خطة."

"هل تستطيع أن تسافر على باخرة تعبر المحيط؟"

"إذا كانت متخفية ولديها المال ومرت كزنجية حرة أعتقد بأن ذلك ممكن تماماً."

"ولكنها تتكلم بشكل مناسب، ولا بد أن يلاحظ ذلك شخص ما."

"يظهر الزنجي الأكثر بلاهة في بعض الأحيان فطنة تامة تخدم هدفه. وربما لم يُطلَب منها أن تتكلم كثيراً."

تخيلت سارة ترتدي ثياباً مبهرجة مستعارة وشعرها ملفوف تحت قلنسوة جيدة، وتستند بمرفقيها على سياج السفينة بينما الماء يهدر تحتها، والأميال بينها وبين العالم الذي عرفته تسل بعيداً.

أخبرت خالتي: "أنت على حق، يجب أن نخبر السيد لِفيت عن هذا الأخ ونطلب منه أن يقوم بتحرياته على تلك السفن."

❖❖ ❖❖ ❖❖

أرسل جويل بوردن وروداً في اليوم الذي وصلت فيه، وثانية بعد أسبوع، وهذه المرة مع ملاحظة يسأل ما إذا كان يستطيع أن يزورني. تفحصت وجهي في المرآة. كان معظم الورم والاحمرار قد زال وعاد اللون الطبيعي إلى بشرتي. غير أن كتفي يؤلمني لا سيما عندما أصبح الجو أكثر برودة، مع أن الجرح اندمل. وقد أبقيت ضمادة صغيرة فوقه لأمنع قماش ملابسي من الاحتكاك به. نعم، قررت أن أراه. وأرسلت روز بجواب يقترح بأن تكون الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي هي ساعة لقائنا الحميم.

بينما اقتربت تلك الساعة، كنت مفعمة بالإثارة، حالة غير ملائمة لامرأة ترملت حديثاً. طلبت من روز أن تأخذ والتر إلى مصطبة النهر مع أوامر حازمة بالبقاء خارج المنزل لعدة ساعات. ولا شيء كان محبباً لـ روز أكثر من أن تتجول في البلدة مع أبله على مقود كانت دلفين قد طورته له. وطلبتُ من دلفين أن تضع

كرسيَّ قرب الأريكة ووعاء القهوة في متناول يدي السليمة، ثم انتظرت الجرس الذي رن دونما إبطاء عند الساعة الرابعة. مرت دلفين عبر الغرفة لتُدخل جويل، وأسرعت عائدة إلى المطبخ بينما وقف هو في الردهة يبتسم لي ويقول: "وأخيراً. لقد حاولت أن أكون صبوراً إلى أن تصبحي قادرة تماماً على استقبال الضيوف، ولكن لم يكن ذلك سهلاً عليّ."

قلت: "أخشى أنك ستراني قد تغيرت جداً."

دخل وجلس على كرسي قريباً مني، وانحنى إلى الأمام لينظر إلى وجهي، وقال: "كيف تستطيعين ألا تتغيري؟ بعد كل ما مر بك." لم يكن هناك أي أثر لتغير مفاجئ، في تفحصه، بل مجرد إعجاب آسر، كالذي رأيته في عيون عمي عندما زارني. فقد خشي الجميع ألا أنجو إلى هذا الحد أو ذاك. "أخبرتني خالتك بأنك أمضيت ليلة كاملة مختبئة في الغابة وأنت مصابة بعيار ناري؟"

رفعت يدي المصابة من المعصم وأرجعتها إلى حضني، وقلت: "هذه هي النتيجة."

قال: "عزيزتي."

"أحاول ألا أفكر في هذا."

استرخى في كرسيه، وقال "أنت على حق، يجب أن تتابعي حياتك." وجال ببصره في الغرفة، نظر إلى الموقد، واللوحات، والمزهرية على الطاولة الصغيرة، ثم قال: "لا بد أنك في غاية الراحة بعودتك إلى هذا المنزل."

قلت: "هذا صحيح، إنه يجعلني أفكر في الأوقات الأكثر

سعادة." واستدرت نحو وعاء القهوة، وسألته: "هل تتناول القهوة؟ أم تفضل كأساً من الخمر؟"

"دعيني أخدمك،" قال وهو ينهض. شغل نفسه بالفناجين وصحونها، وصبّ القهوة مع الحليب بمهارة خبير وهو يتحدث طوال الوقت، ثم قال: "واظبت على زيارة عمتك لأطمئن على صحتك، وأخبرتني أن آخا زوجك أخذ على عاتقه بيع مزرعتك وأن أمريكياً تقدم لشرائها بكل محتوياتها."

قلت: "جاء السيد كنيلوورث من الشمال مثل إله، يملك مالاً أكثر من الإحساس ووهماً عن كون المرء مزارعاً إلى حد لا أشك بأن المزارع سوف يسلبه المال والوهم."

"مسكين السيد كنيلوورث،" ابتسم جويل وهو يناولني فنجاني. وأضاف: "تعلمين، أنا لست متأكداً هل هي فطنتك أو جمالك ما يسعدني أكثر."

قلت: "أنت يسعدك أي شيء، ربما مثل السيد كنيلوورث."

قال جويل: "أنا لا أهتم له، إلا بما يخدم هدف أن تصبحي غنية."

"يا للأسف، أخشى أن ثمة شيئاً لا يستطيع أن يفعله حتى السيد كنيلوورث."

عاد جويل إلى مقعده، وحرك قهوته، وبدا مرتبكاً.

أوضحت: "كان زوجي غارقاً بالديون. وعرض السيد كنيلوورث يكاد يسدده."

قال جويل بكآبة وكأنه قد سمع للتو بموت كلبه المفضل: "لم

أكن أعرف ذلك." ثم أخذ يتطلع إلى الأعلى ثم إلى الأسفل. ولأول مرة كما أتذكر كانت الكلمات لا تسعفه، وفكرت، كان كل هذا الوقت يفكر بأنني سوف أكون غنية. وقد جلسنا للحظة صامتين نمعن في حقيقة متطلباته وموارد رزقي.

ثم قلت: "لحسن الحظ، ملكية والدتي كافية أنا لست غنية، ولكنني مكتفية بذاتي."

رد جويل وهو يوقظ نفسه: "والسبب كله من السُكّر. أنا آسف لسماع أن زوجك كان غير موفق، ولكنه لم يكن الوحيد في ذلك."

"ألم تفكر أبداً بأن تقلع عن زراعته شخصياً؟"

قال: "عليّ ذلك، أنا أكرهه، ولا أذهب إلى ريفري. لكنهم ينصحوني بشكل دائم بالانتظار، ربما يتبدل اتجاه المدّ الاقتصادي، أو أن يتغير الجو، أو تحدث معجزة ما كأن يبدأ جميع العبيد القيام بعمل لائق. وما الذي أستطيع أن أفعل غير ذلك أيضاً؟ أنا لست ملائماً للعمل، وقد عشت معظم الوقت على فوائد رصيدي المصرفي." رشف قهوته، وحدق إلى بورتريه لوالدي، الذي لم يلتقه أبداً، ثم قال: "يبدو أن السنوات الأجمل أصبحت وراءنا."

وضعت فنجاني على الطاولة الصغيرة واتكأت على الوسائد، في محاولة لإيقاف الألم في كتفي، وقلت: "لم أعرف أبداً أنك مكتئب. كنت أعوّل أن تبهجني."

فتح جويل عينيه على اتساعهما، وكأنه ألقى نظرة على صورته وانتبه لردة فعله، ورأى شخصاً لم يميزه. وقال: "مثلما لديك كل

الحق بأن تتوقعي، يجب أن تسامحيني أيضاً."

قلت: "سأفعل." وقد فعلت، غير أن الجهد أضعفني. يبدو أن السعادة يجب أن تكون دائماً أبعد مني وعليّ دائماً أن أحدق إليها كما لو أنها نافذة متجر، حيث كل شيء يتألق ويروق لي، ولكن ليس لدي المال الكافي لأدخل إليها. فالمال، والمال فقط هو الذي يجعل جويل دائماً أكثر من معجب ودود.

صارع جويل كي نتخلص من هذا المزاج الكئيب الذي اعترانا، فقال: "لدي إشاعة ممتازة لك. لقد نال بيير ليغراند جزاءه أخيراً." فاستهل حديثه بقصة مسلية عن رجل يحتقره كلانا، اكتشفت زوجته جهوده الجبانة لإغواء ابنة أخيها، ثم انتقل بعد ذلك إلى تعليق مرح عن سيدة متميزة أثبتت أنها خاسر كبير في لعبة ورق. قلت: "أنت منشط،" عندما توقفت عن الضحك، وأضفت: "ويجب أن أدفع مقابل دوائي، هل أقدم لك بعض الشمبانيا؟"

فهتف: "هذا ما ينصح به الطبيب."

قلت: "اقرع الجرس لـ دلفين." ونهض ليسحب الحبل. دخلت وهي تخفي يديها تحت مئزرها وذقنها منحنية حتى عظام صدرها تقريباً. أعطيتها تعليماتي ـ ثمة محار أيضاً، اشترتها روز في الصباح ـ وخرجت مسرعة. قلت: "ليست معتادة على الخدمة. تموت إذا غادرت المطبخ."

"وماذا عن بيك؟" تساءل.

"علي أن أصرفها، ما تزال كما هي وطعامها مقيت. دلفين طباخة ماهرة. بعد عدة أسابيع سوف أقيم حفلة عشاء صغيرة وقد

تمتدح طبخها."

وافق: "بكل سرور." دخلت دلفين مرتبكة متشبثة بالصينية، خائفة على الكؤوس من أن تهوي. وجهها جويل إلى المقعد، وجمع الأوراق المتناثرة عليه. "حسن،" قال وهي تتراجع. "لا حاجة لبقائك. أنا سأقوم على خدمة سيدتك بكل سرور." أسرعت إلى الخارج وهي تنظر إلي ولكنني لوّحت لها بالخروج. تصارع جويل مع الفلينة قليلاً، ثم صدرت تلك الفرقعة الحادة الدالة على البهجة. واستدار إليّ حاملاً الزجاجة فوق كأس شمبانيا كريستالية والسائل الذهبي يرغي داخلها. كانت عيناه براقتين وابتسامته معدية. كان يقلّب سعادته في ذهنه. قدمت أمي لطفاً أمومياً، وإعجاباً ليس له نهاية، وعشاء في المناسبات. غير أن امتلاكي للأراضي أكثر جاذبية من هذا وذاك. ناولني كأساً وملأ آخر له واقترح نخباً قائلاً: "نخب هذا المنزل ملاذي الأجمل في هذا العالم المتحضر."

لم يمض وقت طويل حتى انتهت الزجاجة، والملاذ، لم يعد أساسياً لمساء واحد على الأقل. فقد كان هناك عشاء خطبة وبعد لعبة قمار أو رقص، فتلك المدينة مليئة باللهو الذي يغري ضيفي بالعدول عن غرفة ضيوفي الدافئة. وعند الباب أخذ جويل يدي وقبلني قبلة أخوية على خدي قائلاً: "سأتناول العشاء عند خالتك يوم السبت، هل ستكونين هناك؟"

قلت: "سأتذكر الموعد." ثم خرج إلى الشارع.

أوصدت الباب واتكأت على الجدار برأس فارغ ولكن بقلب ملآن، وفي الحقيقة غرفت في عتمة كبيرة. فعدت إلى الأريكة

Simple

وجلست أحدق إلى النار.

جعلني وقوفي في الخارج، وأنا أودع جويل، أفكر بزوجي وبزياراته المتكررة إلى هذا المنزل منذ زمن بعيد عندما كنت ساذجة جداً لأفهم طبيعة هذه الصفقة التي كنت أعقدها. كنت شابة وجميلة ولا أملك المال. وكان زوجي من عائلة جيدة لديه مطامح ومنزل كبير. لم يكن جذاباً لي، غير أنني لم أشعر بنفور أكيد، وكنت مستمتعة بانجذابه القوي نحوي. كانت عيناه دائماً عليّ، وعندما كنت أدعه يلمس يدي أو معصمي كنت أشعر بصراعه مع إحجامه عن ضمي إليه. لاحظت أمي هذا ولأنه لم يزعجها اعتبرته شيئاً طبيعياً. وقالت: "السيد غوديت مفتون بك، وأعتقد أنه يجب ألا نقلق من أجل المهر." وفي داخلي، استنتجت أن ثمة قيمة ما، شيء ما يرغب به زوجي أكثر من المال. في ذلك الوقت، صدمني كشيء غير عادي.

وتجلى لي غبائي المتأصل ليلة زفافي. فباعتبار أن منزل والدتي كان بعد صغيراً، جُهِّزتُ على سرير في غرفة بمنزل خالتي عندما انتهت مراسم الزفاف. كانت الخادمة قد صُرِفت ودخل زوجي يفك قفازيه. أغلق الباب بقدمه. كانت وصية أمي كلمة واحدة "استسلمي،" ولكن لم يكن لديّ أية فكرة عما يجب أن أخضع له غير أعمال آلة بخارية. تشبيه معقول! زمجر زوجي فوقي مثل قطار. كانت هناك لحظات اعتقدت فيها أن غرضه هو أن يسحب أوصالي من مفاصلها. نظرت من فوق كتفه إلى الساعة فوق إطار الموقد، قلقة لأعرف كم يمكن أن تستغرق العملية. فقد دلك

ثديي، ذينك اللذين لم يمسهما أحد غير الخادمة باسفنجة، ومصهما إلى درجة خفت من أنهما سوف يَسودّان من الكدمات. أردت أن أصرخ لوالدتي وأقول لها "لماذا لم تحذريني؟" ولكن عندئذٍ خطر لي أن أبي لم يخضع شخصاً لمثل هذا الهجوم. نظرت إلى وجه زوجي المحمر، وإلى عينيه اللتين بدتا وكأنها ستخرجان من محجريهما، وإلى شفتيه المشبعتين بالشهوة. ألم يكن هناك أي أثر لشعور تجاه عجزي، وحنان في فراشي الزوجي؟ وكان الجواب عن هذين السؤالين: لا، لا شيء. وبعد قليل صمت، لم ينتقد، ولم تكن هناك كلمات قاسية. ولم يبدُ عليه أنه غير سعيد. لقد أجهد نفسه وخلال دقائق غطّ بالنوم. لمست الملاءة الرطبة تحت وركيَّ، ووجدت بأن رؤوس أصابعي قد احمرت من الدم. أنا متزوجة، فكرت وأنا أنظر إلى وجهه النائم. كان فمه مفتوحاً يتنفس بسهولة وسلام مثل طفل، وهذا هو زوجي، فكرت أيضاً.

أقمنا في البلدة لمدة أسبوعين، وقد أخبرت خالتي ووالدتي أن هذه الأيام ستكون أسعد أيام زواجي. وقد انقلب ذلك ليكون حقيقياً. لم أكن غير سعيدة. كان هناك شيء جديد في أن يحييك أصدقاء يعتقدون أن ما فعلته كان جيداً لي. ولم يكن زوجي قد بدأ سقوطه الطويل إلى الإفلاس، وهكذا كان لدينا المال لننفق. فأقمنا عشاء في الفندق وأعلنت عنه المجلات كأبهج حدث في الموسم.

لم تهدأ ضراوة هجمات زوجي الليلية، ولكنها كانت تمتعني، واكتشفت سريعاً أنني قوية كفاية لأقاومه. وثابرت على الاعتقاد بوهم أن شدة انهياره العاطفي كان نتيجة مباشرة لقوة أمتلكها

عليه والتي يجب بطريقة ما أن تتزايد لصالحي. وذهبت إلى أبعد كي أتوقع سعادته، وشجعته، ووجدت بعض السعادة في ذلك. ودخلت في وضع مثير. ومؤخراً، عندما أدركت أن إحساسي بأنني قيمة خاصة له كان ضرباً من وهم، غدا هذه الرغبة من جانبي مصدراً لشعور عميق بالاتضاع.

ووجدت بأن مناقشاتنا أكثر إرهاقاً من الساعات التي أمضيناها في عناقنا الزوجي. يتكلم زوجي عن السكّر ويحب صيد الحيوانات ولديه خبرة بالخمر والمشروبات الروحية وكانت تلك مجالات اهتماماته. والفن والموسيقا لا يعنيان له شيئاً، فلا يستطيع أن يركز لوقت كافٍ في لوحة ليراها، وخمس دقائق من عزفٍ على البيانو تجعله ينام بعمق. وعندما يتكلم في مجلس كنت ألاحظ أن الشبان ينتظرون أن ينهي حديثه ليغيروا الموضوع بطريقة مهذبة. وعندما يغدو نقاشهم مفعماً بالحيوية، كان يتطلع من شخص إلى آخر بتعبير آخرس، ونادراً ما يضحك.

فهل كونه ممل، ويفتقر إلى الرقة سبب كافٍ لأكرهه؟ لا بالتأكيد، بل في الوقت الذي غادرنا فيه المدينة، توصلت إلى شعور مروع اعتمل في صدري أن أعتمد على زوجي مصدر وحيداً للمتع المتبقية التي سوف تمنحني إياها الحياة. وكنت على حق بأن أخاف. ففي المدينة، لم يكن واثقاً من نفسه، ومع ذلك كان طاغياً مستبداً في منزله. وقد استنزف لون كل مشهد، ونكهة كل مضغة من طعام، ودفء كل تواصل عاطفي. فهو لم يدمر حياتي بقدر ما أفرغها، والآن وقد رحل كان عليّ أن أتظاهر بأنه

لا يزال هناك شيء ما حي في داخلي. جويل أحس بهذا. فقد كان ضحكي مصطنعاً وفارغاً. وعندما نظر إلى عيني، لا بد أن ذلك كان كمن يحدق خلال نوافذ منزل قد أتى عليه حريق.، ولا شك، عزا ذلك إلى محنة العصيان، ولم يخطر في باله أن هذا الرماد لم يكن بسبب العبيد المجرمين، بل بسبب زواجي.

خمد الفحم في الموقد واعتراني شعور بالبرد من أسفل قدميّ، اضطربت صور من تلك الليلة التي أريد أن أنساها في ذهني: الحصان وهو يأكل العشب، واللُّكمة الحادة لفكّي، وتوهج ضوء المشعل، وتوقف سارة لتشير في الظلام، ووجه زوجي المذعور عندما سحبه قاتله من شعره تفحصت ملامحه وكأنني أنظر إلى لوحة وأكتشف تفصيلاً لم الاحظه قبل. ففي اللحظة التي سبقت الضربة القاتلة، نادى زوجي اسم سارة.

سمعت البوابة تُفتَح، وأصوات خطوات في الممشى: عادت روز ووالتر من النزهة. كان هناك تتابع صوت يد تصفع جانب المنزل، كل الطريق على امتداد المنزل. كان هذا والتر، فكرت. إنها لعنة زوجي التي يستحيل علي التعود عليها أو التخلص منها مثلها مثل ذراعي اليمنى المعطوبة.

❖❖ ❖❖ ❖❖

كيف تستطيع امرأة نحيلة، وطفلة سوداء أن يختفيا دون أي أثر؟ شكوت لخالتي بينما كنا جالستين في غرفة استقبالها، وعلى الطاولة بيننا كان هناك رسالة ممزقة بشكل بغيض. كانت

تقرير السيد لِغيت عن جهوده لاسترجاع سارة الهاربة.

قالت خالتي: "لقد رحل بعيداً على طول الساحل إلى مرفأ سافانا. وسأل كل القباطنة والخازنين على كل السفن."

"هل عرف مكان أخيها؟"

قالت خالتي: "أخشى أنه لم يفعل."

انحنيت فوق الرسالة التي كُتِبت بخط غير مقروء وحاولت أن أركب جملة. *القبطان ووش راى طفل واحد بت*. "ماذا يعني هذا؟" تساءلت.

تفحصت خالتي الجملة ولاحظت: "يتبع السيد لِغيت المبادئ الأولى في التهجئة وعلامات الترقيم."

"إنه شيء مروع."

"نعم. هذا صحيح، أليس كذلك؟ يأخذ مني وقتاً طويلاً حتى أفهم شيئاً منه. أما عمك فقد غدا خبيراً تقريباً، كان قادراً على إعطائي ملخصاً خلال عشرين دقيقة بمراجعة واحدة لوثيقة."

قلت: "كيف يجب أن يكون كلامه؟"

"أخشى ألا يكون أقل غموضاً. لكنه جيد في الأرقام، ويستطيع أن ينظم فاتورة ممتازة."

قلت: "لا يفاجئني ذلك."

قالت موافقة: "لا. ما يقوله هو أن القبطان ووش أو ربما والش كما يعتقد عمك رأى طفلة سوداء واحدة في الشهر الماضي، وكانت بصحبة أمها السوداء أيضاً، وهي خادمة تسافر مع سيدها وهو رجل أبيض متقدم بالسن في الطريق لزيارة طبيبه في

فيلادلفيا."

"حسن، إنها معلومات ليس لها قيمة."

"لم يكن هناك امرأة حرة على متن هذه الرحلة، هل يمكن أن تكون قد انفصلت عن طفلتها؟"

"ربما تكون قد فطمتها، هذا ممكن."

قلبت خالتي الرسالة تتفحص الخطوط. وجد السيد لِغيت تقريراً عن امرأتين وهما شقيقتان مسافرتان معاً، لهما العمر نفسه، وتبعهما إلى سانت لويس ووجد أنهما معروفتان في الجوار جيداً."

"ربما هي متخفية كخادمة ويزعم أحد الشماليين أنه سيدها."

قالت خالتي: "أو ربما لم تسافر بالقارب أو تخترع طريقة ما للتخفي مع مسافرين آخرين، أو لا تزال بيننا ولا نراها. ولا توجَد طريقة لمعرفة ذلك."

وافقت، "لا. هل علينا أن نرفع المكافأة؟"

قالت خالتي: "أعتقد ذلك. وربما كان من الأفضل أن ندرج المذكرة في الصحف في عدد من البلدات الكبيرة."

قلت: "حسن."

"أنا لم أيأس من أن السيد لِغيت سوف يعثر عليها،" طمأنتني خالتي. "لديه إصرار مدهش."

قلت: "وهي أيضاً."

عندما غادرت منزل خالتي مشيت إلى فابورغ ماريغني لأضع زوجاً من الأحذية لدى صانع الأحذية هناك. والحي تسكنه مجموعة كبيرة من الزنوج الأحرار، وهي مجموعة لا يمكن أن

يوجد من هو أكثر تعجرفاً وغطرسة منها. وقد وجدت نفسي وأنا أمشي بينهم أتابع مرة بعد أخرى شخصاً أو وجهاً يشبه وجه سارة. اقترب مني رجل في عباءة صفراء براقة، التقت عيناه بعينيّ بغطرسة تامة، وللحظة فكرت أنه يجب أن يكون السيد روجيه، مع أن اللمحة الموجزة عن هذا الشخص لم تكن تسمح لي بتمييزه. هل سارة مختبئة خلف إحدى واجهات هذه البيوت البسيطة؟ وهل السيد روجيه يكتب لها تعليمات إضافية لجمع شملهما النهائي؟

خرج صانع الأحذية السيد غاستون وهو رجل كبير في السن، يشاع أن له علاقة مع رئيس البوليس، من خلف طاولته ليقدم لي تعازيه. لقد صنع الأحذية لمدة عشرين سنة لأمي، وكان يراني أقف إلى جانبها عندما كنت فتاة صغيرة، كان رجلاً طويلاً نحيفاً، عيونه سوداء، وشعره أبيض مجعد وكثيف، وعندما شكرته على كلماته اللطيفة أخفض عينيه ثم رفعهما ثانية وبابتسامة صغيرة سأل كيف يستطيع أن يخدمني، شيء ما في أسلوبه، ربما ذلك الافتقار إلى الاحترام ذكرني بسارة. ناقشنا موضوع أحذيتي وافترقنا متفقين. عندما عدت إلى الشارع تذكرت كيف خفض عينيه بتواضع، ومن ثم بغتة وجَّه تحديقته. وصلت إلى المفترق المؤدي إلى بيتي ولكنني تجاوزته إلى شارع ريو تشاترز، حيث اتجهت جنوباً باتجاه منزل خالتي. مشيت بسرعة تحت تأثير قوة إلهام أو إحساس بأن الوقت أساسي. كنت متأكدة من الحقائق كأنني قرأتها في مجلات. كانت الطفلة السوداء التي وصفها السيد لِغيت هي بنت سارة حقاً، وكانت تسافر مع أمها، ولكن والدتها لم

تكن الخادمة، بل كانت محتالة استأجرها السيد روجيه لتلعب هذا الدور، والرجل العجوز الذي كان في زيارة إلى الطبيب لم يكن مريضاً، ولم يكن رجلاً، بل كان سارة بالذات.

❖❖ ❖❖ ❖❖

منعني الحداد من الظهور في التجمعات الكبيرة، ولكنني لم أمتنع عن حضور حفلة عشاء صغيرة لدى الأصدقاء أو العائلة. كانت خالتي مثلهفة جداً لتخفف من وحدتي، وعندما استعدت صحتي، أصرت على تناول العشاء في منزلها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. وغالباً ما كانت تدعو ضيفاً آخر أو اثنين لتملأ الطاولة. لقد دمرت صروف الدهر عائلتنا، فقدتُ أنا أبي وأمي وشقيقين صغيرين، وفقدت خالتي أخوين قبل أن يكملا العشرين، وقُتِل ولدها الوحيد الذي عاش من ثلاث ولادات في سن الشباب بحادث صيد قبل يوم زفافه بأسبوع. وحدث أن كانت عائلة عمي أفضل حالاً، مع أن أولاد أخوته وبنات أخواته، وأخاً واحداً يعيشون في فرنسا. وهكذا فكلنا لجميعنا وجميعنا لكل واحد منا. وقد اغتاظت خالتي من عدم وجود أولاد لدي، وانضمت إلى أمي في حثّي على السعي إلى استشارة طبية، ولكن ما دام زوجي قد رحل، ولم أعد سلعة صالحة للزواج، توقعت أنها ستتقبل ذلك على مضض وتفكر في كآخر ولد لها. ومع ذلك كانت تصر على ألا تفقد كل الآمال. وعندما رأتني جالسة ذات مرة في ردهتي المظلمة بعيون محمرة الحواف، ارتأت أن عليّ ألا أيأس، فأنا لا أزال شابة

وجميلة، وأن أحداً ما سيطلب يدي للزواج حالما أعود إلى الظهور في المجتمع. وقد أخبرتها أن ذلك ليس محتملاً، وأنه مضحك، وشكرتها لبعث البهجة في نفسي. فمن سيتزوج مشلولة ومعها القليل من المال يكفيها لتعيل نفسها؟ مسكينة خالتي ليليا كانت تعود دائماً للإشارة إلى الارتفاع الواعد في قيمة العقارات بمنطقتنا.

فكرت ببرودها المفاجئ تجاه جويل بوردن مساء السبت التالي عندما جلسنا إلى مائدة عشائها. علمت بأنه لم يكن هناك أي أمل بزواج جويل مني، كان بحاجة ماسة إلى المال، ولهذا تودد إليّ كأي رجل يريد أن يطلب يدي، وكنت جاهزة للقبول، ورأيت أن ذلك لم يسعد خالتي. دعت أيضاً رجلاً، السيد دفوسات، وهو شاب مضجر يعاني من قصر نظر، أنهى لتوه دراسته في القانون، تابع المزاح بيني وبين جويل بجبين متغضن، كان بليداً بديناً لم يظهر أية إشارة على الحيوية إلا عند تقديم (التحلية).

أخذنا قهوتنا بعد العشاء إلى غرفة الجلوس، وبدأنا بلعبة ورق، كانت ليلة دافئة في غير موسمها، وكانت أبواب الشرفة مفتوحة، والأضواء خافتة، ومن الشارع كانت تصل إلى أسماعنا أصوات ضحك وكلام وحوافر أحصنة. لم يشاركنا عمي اللعب، وشغل نفسه بالوقوف خلف كرسي خالتي يشرف على لعبها. كانت معنويات جويل عالية ويرفع الرهان في اللعب مرة بعد مرة. أخذت خالتي ورقة وتنهدت. انحنى العم إميل وهو يضع يده على كتفها وهمس في أذنها كلمة من أجل اللعب. ابتسمت وضبطت أوراقها، ثم رفعت يدها بعفوية ولمست أصابعه بحنان. أشحت بنظري بعيداً، وبدت

لي كأنها إشارات حميمة وشعرت بالإرتباك لرؤيتها. وقد التقت نظرتي مع نظرة السيد دفوسات الذي أعاد نظره إلى أوراقه بسرعة مرتبكة مماثلة. كان يراقب تدلي كتفي اليمنى المشلولة عن كثب.

شعرت بموجة من الحرارة تعتريني من عنقي وعبر وجهي. نظرت إلى جويل الذي كان يتكلم إلى عمي حول شخص ما له اسم غريب، بالبوا. ثم عرفت أنه ليس رجلاً بل حصاناً.

فخفق قلبي بشدة وضاق نفسي، قلبت الأوراق على الطاولة.

قالت خالتي: "مانن، هل تشعرين بتوعك؟"

قلت: "الجو حار جداً."

"سأجلب لك بعض الماء،" قال عمي وهو يستدير إلى الطاولة الصغيرة.

نهض جويل واقترب مني وقال: "هل أوصلك إلى العربة؟"

أمرت خالتي: "يجب أن ترتاح في غرفتي، إنها أكثر برودة."

قلت وأنا أبعد كرسيّ: "أفضّل أن استلقي لبضع دقائق." حلّت خالتي محل جويل الذي بدأ بالانسحاب عندما دلتني في طريق العودة عبر غرفة استقبالها إلى غرفة نومها، والتي كما توقعت كانت باردة ومظلمة وهادئة. غرقت في السرير ونزعت حذائي بينما كانت تسفح الماء في المغسلة ووضعت قطعة قماش فيها وعصرتها. قلت وأنا أضع رأسي على المخدة: "لا أعرف ما الذي أصابني."

قالت: "أعصابك محطمة."

ابتسمت وأنا أفكر بأعصابي، ما هي بالضبط؟ أحضرت خالتي قطعة القماش ووضعتها على جبيني، كانت مريحة ورائعة.

Sample

فقلت: "يجب أن تعودي إلى ضيوفك."

"لن يحتاجوا إليّ. سيأخذ عمك مكاني. فهو يتطلع بشوق إلى كل الأمسيات."

قلت: "جويل يراهن بشكل طائش."

قالت خالتي بسخط: "وربما أيضاً هو على وشك أن يحصل على مبلغ كبير من المال."

كيف يمكنه ذلك؟ يعرف الجميع أن والد جويل بدد ثروته بالقمار. هل تذكره قريب بعيد؟ وإذا أصبح جويل غنياً... ترددت في إنهاء الافتراض. كان كما لو أنني وقفت ويدي على ممسكة باب، يروعني أن أديرها وأكتشف ما الذي يمكن أن يكون خلفه، ولأية مشاهد يمكن أن تكون هناك! وسألت خالتي: "ما الذي حدث؟"

"تقدم لخطبة أليس مكينزي وقبل به والدها، ولكن ليس دون تحفظات جدية، كما يمكن أن تتخيلي."

وانفتح الباب المتخيل ووجدت نفسي أترنح على حافة لجة سوداء. وقلت: "آواه."

"لقد كانوا منذ شهر بين أخذ ورد، والبارحة سوّوا الأمر."

كانت عائلة مكينزي من العائلات الكبيرة والثرية، ومنزلها في القسم الأمريكي يلفت الانتباه، مكونة من أربع أو خمس أخوات والعديد من الأشقاء، والأم معروفة بإعجابها بالمجتمع الفرنسي. سألت: "كم عمر أليس؟"

قالت خالتي: "ليست صغيرة، ربما خمس وعشرون. وقيل لي إنها

ليست جميلة وبسيطة ودون أسلوب بالطبع."

قلت في سري، ذلك محكوم بالنجاح لأن جويل لا يستطيع أن يستمر غير عابئ بالمال. "أين سيعيشان؟"

"لم يُسوَّى ذلك بعد. فـ جون مكينزي يرغب في أن يعمل شيئاً في ريفري، والأم تريد لـ أليس منزلاً في كاري إذا استطاعت أن تجد واحداً كبيراً كفاية، وهذا غير محتمل. وجويل لا يريد أن يغادر البلدة طبعاً، فهو يكره الريف."

فكر كلانا ربما تكون زيارات جويل متكررة، فزوجة بسيطة لن تعترض على صداقة مع أرملة غير محظوظة. ولكن هذه الفكرة لم تمنحني الراحة، فجويل متزوج، هذا ما فكرت به، وتنهدت، وأغمضت عينيَّ متمنية لو تتركني خالتي وحيدة.

ولكنها أسهبت في حديثها قائلة: "ولكنه إذا أصر على قضاء الليالي بطولها حول طاولة القمار أو الملاهي، فسوف يجد حماته تحزم له أمتعته وتجعله يقضي بقية أيامه في ريفري. وأعتقد أن من غير المحتمل أن يتحمل جون مكينزي نفقات بيت صغير في حي رامبارت."(*)

قلت: "هذا سخيف. لن يفعل جويل شيئاً كهذا."

ابتسمت خالتي بتسامح وقالت: "أنت بريئة."

قلت بتذمر: "لا أستطيع أن أحتمل سماع كلمة أخرى."

قالت خالتي: "لا، يُفضَّل ألا تفعلي. سأدعك ترتاحين، وعندما

(*) يعني أن تكون لديه محظية. المترجم

تكونين مستعدة سيوصلك عمك إلى المنزل." ثم خرجت وتركت الباب موارباً وهكذا صنع ضوء المصباح في القاعة جماعة مضطربة على السجادة.

هل هذا صحيح؟ فكرت. هل صحيح أن جويل أمضى لياليه في تلك المراقص الرخيصة حيث تجلس هؤلاء المحظيات الهيفاوات وأمهاتهن في الظل يُهوين أنفسهن ويتوقعن عروضاً. هل هو كما تعتقد خالتي سيهين لمحظية منزلاً ويستخدم ثروة زوجته ليعيلها مهما كان عدد الأطفال الذين ستلدهم له؟ هذا مستحيل. لم ينظر جويل إلى الخدم قط، وقلما لاحظ أنهم موجودون.

رأيت واحدة من هؤلاء النسوة ذات مرة، عندما زرت برفقة أمي إحدى الجارات، السيدة بيرو. كنا نجلس في قاعة استقبالها نتناول القهوة ونتحدث عن أغطية الجدران، عندما علت جلبة عند الباب وسُمع صوت امرأة تصرخ. ثم دخلت خادمة السيدة بيرو مسرعة غير قادرة على منع تقدم الزائرة التي كانت تجري في أعقابها. وقفت المرأة عند المدخل تجول بنظرها بيننا غير متأكدة إلى من ستتحدث. لا أنكر أنها كانت شخصاً جذاباً، ذات قسمات رائعة مع أن شفتيها غليظتان وهيئة منتصبة. ترتدي أحدث طراز، ثوباً صباحياً من الحرير ذا لون أرجواني فاتح، مزركش بلون بنفسجي على الأكمام والعنق وقبعة من الساتان ذات لون أسود متدرج. كانت في حالة اهتياج شديد، واستقرت عيناها السوداوان على مضيفتنا، التي قامت عن كرسيها بهدوء يلفت الانتباه، وقالت: "هل يمكنني أن أساعدك؟"

قالت المرأة: "أنا من سيساعدك، يا سيدتي، إذا كنت تريدين قتل زوجك."

اعتذرت مضيفتنا منا وتوجهت إلى المرأة قائلة: "هلا أتيت معي؟" وهي تنسحب إلى الردهة.

رمقتنا المرأة بنظرة غاضبة، ثم لحقت بطريدتها وبدأت توبخها، وتتلفظ بكلمات فرنسية وتهددها مع كل خطوة بعواقب كارثية أشد، بحرق مكان عمل السيد بيرو، وقتل أطفال السيدة بيرو، وموت أولادها الشباب الذين عرفتهم بالاسم فقط. واستدعت مضيفتنا كبير خدمها الذي أتى في الحال حيث فتح الباب الأمامي وأجبر السيدة الغاضبة على الخروج إلى الشارع.

استدارت أمي إليّ، وقالت بلطف: "انصاع السيد بيرو أخيراً لرغبات زوجته." وبعد لحظات عادت مضيفتنا واستأنفنا حديثنا.

وما أدهشني أكثر في هذه المخلوقة المرعبة هو فرنسيتها الممتازة، وتلك اللهجة السليمة الصادرة عن ذلك الوجه الأصفر والعينين السوداوين اللتين تشعان غيظاً وقد جعلها هذا تبدو مثل دمية غريبة، نوعاً من مزحة بائسة، والتي أفترض بالضبط ما كانت عليه تلك المرأة، وكل من هنّ على شاكلتها.

استلقيت على سرير خالتي متعبة بتذكر هذه المرأة الموتورة، وفكرة أن جويل يستمتع برفقة نساء من طينتها، وأنه من الممكن أن يغادر منزلي الصغير في إحدى الأمسيات ويندفع إلى منزل آخر ربما يكون أصغر من منزلي حيث يكون هو السيد على الرغم من عدم مجيء أي زائر. وتناهت إلى سمعي أصوات لاعبي الورق في

Sample

القاعة. وإذ أصخت السمع قليلاً استطعت أن أميز الموجة العامة في متعة ضحكة جويل. وبرجفة من البؤس أدركت أنني لن أشعر بأي شيء ثانية غير المرارة إذا سمعتها.

❖❖ ❖❖ ❖❖

مشى عمي معي إلى منزلي الصغير بعد أن نمت قليلاً وبعد أن ذهب الضيوف. كان المساء قد غدا أبرد، ومع أن الوقت كان متأخراً، فالشوارع لم تكن مقفرة تماماً. جلس بعض الجيران في شرفات منازلهم: معظمهم رجال يدخنون السيجار ويناقشون مستقبل القطن في مجموعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص. أخذت يد عمي كما كنت أفعل عندما كنت صغيرة، وعندئذ قال: "لقد وصلنا تقرير جديد من السيد لغيت."

"هل عثر عليها؟"

قال: "ليس بعد. ولكن يبدو أن شكوكك بأنها تتخفى صحيحة. فقد حاول أن يقتفي أثر الرجل الذي يسافر من أجل صحته ولم يجد أي دليل على أن مثل هذا الرجل موجود."

"أين شوهدت آخر مرة؟"

حذَّر عمي: "إذا كانت هي، وهو غير متأكد بالطبع، فقد كان هذا السيد يسافر بـ اسم السيد كلود ميتر وهو معروف بأنه ينزل من الباخرة **الولايات المتحدة** في سافانا. وهو نادراً ما يتكلم مع أحد في رحلته، حيث يبقى في مضجعه، ويقول خازن السفينة إنه لا ينام بل يجلس في كرسيه بكامل ثيابه، ولم يخلع قبعته أبداً."

"هذا لأن شعره الطويل قد ينسدل."

ابتسم عمي "ذلك جدير بالملاحظة، أليس كذلك؟ كيف حزرت ذلك؟"

"لقد فكرت بأنه من الغريب أن يسافر رجل مريض مع امرأة وطفل. لِمَ لا يصطحب فتى، أيهما سيكون أكثر فائدة له؟"

قال عمي: "إنه عمل جريء. لقد تخيلت أن تختبئ في المستفعات، ربما تلتقي مع أحد رجال موريل، والذي سوف يتظاهر بأنه مرشدها ثم يبيعها للهنود، وبدلاً من ذلك تسافر إلى الشمال في مقصورة خاصة."

"لن تكون بهذه الجرأة إلا إذا كان هناك من يساعدها."

وافقني عمي الرأي: "لا. هذا صحيح بالتأكيد." نحن لم نلفظ الاسم الذي قفز إلى شفاهنا لأنه كان من الصعب على عمي أن يتكلم عن السيد روجيه دون أن يهتاج. وأجمل القول: "حسن، سنرى. يعتقد السيد لغيت أن سفرها إلى فيلادلفيا هو مجرد خدعة، وأنها على الأغلب تحاول الوصول إلى نيويورك." وأردف: "نحن هنا،" عندما وصلنا إلى باب منزلي. تمنيت له ليلة سعيدة ودخلت إلى الردهة حيث جلست في الظلام لبعض الوقت أتسلى بفكرة عبور سارة كرجل أبيض مريض إلى ولاية نيويورك الجليدية. فلو اعتُقلت في الحال، ربما ستمضي أسابيع قبل أن تُعاد. سحبت خصلة شعر إلى الخلف عن وجهي، ربما كان الأفضل أن أرسل روز لتتعلم لدى مصفف شعر لائق، فقد تحسنت جداً كمديرة منزل وهي تستطيع أن تتدبر أمر والتركما تفعل دلفين، بالإضافة إلى أنها حسنة الطلعة

ومتعاونة وتحب العيش في البلدة. لقد فكرت أن أبيعها عندما تعود سارة ولكن ربما الأفضل أن أبيع سارة.

وفيما كنت غارقة في التأمل وقع نظري على الطاولة الصغيرة، حيث لاحظت وجود بطاقة بيضاء موضوعة على الصينية، ظننت أنها من جويل. ربما توقف هنا في طريقه إلى حفلته الثانية وربما كتب سطراً يعرب عن قلقه الدمث حول توعك صحتي على طاولة اللعب في منزل خالتي. حفلة؟ سألت نفسي، وأنا أضيء المصباح ووصلت إلى البطاقة، أو إلى غرفة مليئة ببنات الهوى المثيرات؟

ولكنها لم تكن بطاقته فهي أكبر وأحرفها مختلفة. حملتها وقربتها من الضوء وقرأت العنوان:

إيفريت روجيه

أعمال خشبية أنيقة وذات ذوق رفيع

رسوم داخلية وخارجية وأعمال جصية ومرمر

قلبت البطاقة وقرأت الرسالة المكتوبة على ظهر البطاقة بتمعن:

عزيزتي السيدة غوديت:

أتمنى أن تسمحي لي أن أحضر في الثانية من بعد الظهر من أجل مسألة ذات اهتمام مشترك.

بكل احترام

إيفريت روجيه إتش. سي. إل

❖❖ ❖❖ ❖❖

ناقشت الرسالة مع خالتي بعد الفطور، وقد وافقتني على أن السيد روجيه يعرف بالضبط مكان سارة وأنه يريد أن يقدم عرضاً لإعادتها. قالت خالتي: "قد يبدو أنه واثق من نفسه. لقد أنشأ بعض وسائل الاتصال مع سارة بسرعة ويعتقد بأنها مختبئة جيداً وأن لا أحد يمكن أن يعثر عليها، ولكن عليه أن يعرف أن السيد لِغيت قد كلف باعتقالها. وهذا إجراء يائس."

لم يبدُ على السيد روجيه أقل علامات اليأس عندما وصل إلى باب منزلي بعد الظهر.

بينما لحق بـ روز إلى الردهة ونقل نظره بشكل واثق على الأفاريز وإطار الموقد والأعمدة، ثم وقع نظره عليّ بنوع من التقييم والثقة. كان حذراً في ملبسه، ومع ذلك لم يكن أنيقاً إلا بعصا سيره ذات المقبض الفضي. أخذ مكانه على الكرسي الذي أشرت إليه، ووضع قبعته على الطاولة الصغيرة، وأمسك بعصاه بين ساقيه. وقد لاحظت أن يديه كبيرتان ومتشققتان بسبب البرودة والجص الجاف في مهنته. وأظافره مقلمة جيداً، وأحدها كان مسوداً بإثر كدمة. كان فاتح البشرة، أقل من سارة، ملامحه حلوة ولا سيما عيناه الواسعتان ذات اللون البني الداكن والرموش الكثيفة بالنسبة لرجل. بدأ تقريباً في الحال تقديم عزائه لخسائري الأخيرة واعتذاره لأنه قطع عليّ حدادي.

فقلت: "ولهذا السبب بالضبط عليّ أن أطلب منك أن تدخل في سبب زيارتك مباشرة."

فاعتصر ابتسامة خفيفة من شفتيه تشير إلى رضا عن النفس

بيَّنت أنه لم يتوقع أن يُعامَل باحترام والآن برر ذلك التوقع. فانحنيت إلى الأمام على ذراع كرسيّ وأعطيته كل انتباهي.

"أتيت متمنياً أن تقبلي عرضي لشراء خادمتك سارة."

"سارة؟" تظاهرت بأني تفاجأت "ولكنها ليست للبيع. هل أنت معتاد على أن تعرض شراء خدم ليسوا للبيع؟"

رفع عينيه باتجاه عينيّ، وقال: "لا."

"إذن أنا أستغرب ما قادك للتدخل في مثل هذه القضية التي لا تعنيك؟"

"لقد تعرفت على سارة بشكل شخصي منذ أن كانت عند مالكها القديم وأنا تواق لشرائها."

"أنت تعلم بالطبع أنها هربت."

قال: "أجل، أعلم ذلك، وعرضي قائم في حال عادت."

سألته: "ما الذي يجعلك تعتقد بأنها ستعود؟ فقد تجنبت القبض عليها منذ أكثر من شهر."

أطرق على مقبض عصاه ولم يقدم أية إجابة. وبعد لحظة فرك لطخة كانت على المقبض الفضي براحة يده.

فسألته: "متى يمكنني أن أتوقع عودتها في حال وافقت على عرضك؟"

ظل الرجل المغتاظ صامتاً. وجالت عيناه على الأغراض الموضوعة على الطاولة الصغيرة وتوقفتا على صورة والدي. كم كان أبي سيمقته، فكرت وهو يراه من خلال لعبته الدنيئة هذه. لقد أراد زوجة ذات لون أقل سواداً منه، ولكن لا توجد خلاسية حرة تقبل

به على الرغم من ثروته التي لا شك في أنها كبيرة، فقد كان كادحاً، وكانت سارة ملائمة له. يمكنهما أن ينشئا منزلاً مليئاً بالأطفال الخلاسيين أحدهم أقل نفعاً من الآخر. ولكن، تساءلت، ماذا سيفعل بالطفل الذي أنجبته سارة؟

قلت له: "أنت تعلم أن لدى سارة طفلاً."

رفع نظره عن الصورة بتعبير صريح وعملي، وقال: "أنا أعلم."

"وافترض أن يشمل عرضك ذلك الطفل فهو صغير جداً لأن يفصل عن أمه طبعاً."

"طبعاً."

"وقد أخذت ذلك في حسابك، هل فعلت؟"

عبس على إصراري على هذه النقطة، وقال: "لقد فعلت."

فسألته: "وهل تعلم أن لدى سارة طفلاً آخر؟" وأنا أراقب وجهه عن كثب. فاتسعت عيناه تدريجياً. وقد أدركت أنها لم تخبره بذلك.

قال: "لا، أنا لا أعرف."

قلت: "صبي ذو صحة جيدة، تركته خلفها." ثم نهضت وشددت الحبل طالبة روز. "عمره ثمانية أعوام." دخلت روز إلى باب غرفة المعيشة، فقلت لها: "أرسلي والتر لي." نظرت إليَّ وإلى السيد روجيه ورجعت مسرعة. ربما انكبت هي ودلفين حول طاولة المطبخ في جلسة ثرثرة. عدت وابتسمت لضيفي الذي لم يتحرك على الرغم من ارتخاء كتفيه، فالمقابلة لم تجرِ كما خطط لها. وعقبت: "والتر كبير كفاية لفصله عن والدته، ولكنني مقتُّ هذه

السياسة دائماً. فبيع طفل بعيداً عن مصدر حمايته الوحيد شيء مزعج. وأبي، الذي هو في الصورة،" - رفعت ذقني وأشرت إلى الصورة - "عارض بقوة فصم الرابطة الأسرية بين الناس عندما لا تكون ثمة ضرورة. وأنا أحاول أن أتبع نهجه."

أصغى السيد روجيه إلى هذه العواطف بشرود، وركز نظره على باب غرفة المعيشة. وقد أبقيت ظهري نحو الباب، طالما عرفت بالضبط ما هو على وشك أن يكتشف، وشعرت بفضول كبير لأن أرى وجهه عندما يجرب ما تخيلته أن يكون سلسلة من صدمات قاسية لأسس مخططه. أصغينا لخطوات أرجل عارية فيما اندفع مخلوق وحشي من غرفة المعيشة. ثم يا لذاك الشعور بالمتعة الذي خبرته عندما سمعت صوت نباح المرح الذي يطلقه والتر للترحيب بالوجوه الجديدة! ومسحت يداه تتورتي لما أسرع إلى القبض على ركبتي السيد روجيه المصعوق. وقد شددت على شفتي لأحبس ضحكتي، وقلت بهدوء: "إنه لعمل سيء ألا تخبرك سارة عن والتر. أتوقع أنها خافت من أن تُحبَط بطريقة ما." كان والتر يحضر لصرخة بينما كان يحاول أن ينتزع عصا السيد روجيه، الذي قال له: "لا تستطيع أن تأخذها، فقد تؤذي نفسك بها."

أوضحت له: "لا يمكنه أن يسمعك، إنه أطرش، لقد فحصه الطبيب، وأخشى ألا يكون هناك أمل في أن يصبح طبيعياً أبداً."

تخلى والتر عن العصا ورفع ذراعيه لحمله، وعندما لم يستجب السيد روجيه له، استدار إلي يمدّ ذراعيه ويموء، ويصر على تصرفه، مع أنني لا ألمسه أبداً إذا أمكنني تجنبه. كان يرتدي

مجرد قميص داخلي مصنوع من الخيش، وكان وجهه ملطخاً بما يشبه صفار البيض الجاف، ويداه وقدماه قذرتين وشعره مجعداً. تطلعت إلى الخلف لأرى روز تراقبه من الباب البعيد. قلت لها: "تعالي خذيه." فدخلت بسرعة وحالما رآها، ركض الصبي إلى ذراعيها، فحملته إلى الفناء وهو يبتسم ويضرب خدَّي روز. "لقد تحسن كثيراً بعد أن انتقلنا إلى هنا،" قلت للسيد روجيه وأنا أعود إلى مقعدي، وتابعت: "ولكن في الحقيقة، كما يمكنك أن ترى، لن يستفيد منه أحد."

"لا،" وافقني القول. ترك فرك عينيه ونظر إلي نظرة ذات نية سيئة صريحة ممزوجة بإعجاب ممتعض كالذي يقدمه شخص لخصم يستحقه. وقد سرني ذلك، غير أن شفتيه فشلتا في حمل أضعف أثر لابتسامة وغطرسة معتادة الأمر الذي جعلني أريد أن أصفعه.

اقترحت: "ربما ترغب بإعادة النظر في عرضك."

قال: "لا. ولكن كما قلت ليس لهذا الصبي قيمة فإذا وافقت على أخذه لن أدفع زيادة ثمناً له."

"حسن، أنا متحمسة لسماع المبلغ الذي تفكر فيه"

"ألفي دولار،" قال ببرود.

كان المبلغ ضعفي ثمن سارة. وقد سمحت لفكرة الحصول على مثل هذا الربح والتخلص من والتر في سياق الصفقة أن تغريني لبعض الوقت. ولم أشك في أنني نظرت إلى السيد روجيه نظرة عدائية مماثلة للتي نظرها إلي قائلة: "إنه عرض سخي، ولا بد أنك

Sample

مصمم على امتلاكها."

فقال: "أنا مصمم."

ماذا يسكن هذا الرجل؟ لقد موّل نفقات هروب سارة. وربما يدفع لشخص ما لإخفائها في هذا الوقت الذي نجلس فيه. وإذا ما وافقت فسوف يكون عليه أن يدفع لإعادتها، ثم أن يأخذ طفلين ليسا له، أحدهما طفلة سوداء بشعة والآخر ليس أفضل من كلب ملوَّن مجنون، وبعد ذلك عليه أن يتابع عملية الإعتاق الطويلة والمكلفة وتقديم الرشاوى في كل مكان لأن القوانين صارمة. عاد بظهره إلى الخلف على كرسيه ووضع عصاه إلى جانبه ومدّ رجليه بلا مبالاة وتفحص بنطاله فوجد نثرة من الجص عالقة على درزة الساق، أزالها بظفره، وسقطت على السجادة بالقرب من حذائه. وقد ركزت بصري وذهني على هذه النثرة البيضاء من الجص، التي أغاظتني، لكنني تمالكت نفسي بالبقاء هادئة. كان السيد روجيه ينتظر ردي، وليس لديه فكرة أن تلك النثرة من الجص قد قررت مصيره ومصير سارة أيضاً.

فقلت: "أخشى أن تكون مسرفاً وأن تندم على عرضك."

قال: "ستكون مشكلتي. عرضي ثابت، وأنا مستعد لأحرر لك شيكاً بنصف المبلغ هذا اليوم."

قلت: "دعني أقترح عرضاً مقابلاً، وأظن أنه قد يكون حلاً عملياً لكلينا."

فنظر إلى ساعة الحائط، يذكرني بأنه رجل مشغول.

قلت: "ليس لدي نية في بيع سارة. إنها ببساطة ليست للبيع،

ولكن ليس لديّ مانع من زواجكما. أظن أن هذا هو غرضك، أليس كذلك؟ عليها أن تتابع العيش هنا، خلال الأسبوع، ويمكنها أن تذهب إليك في أيام الآحاد وتكون حرة في أن تزورك مرة أو اثنتين مساء كل أسبوع عندما أتعشى خارج البيت."

"أنت غير جادة،" قال بصراحة، وتركني أتخيل مدى غضبه. رجل حر يتزوج من أمة! سوف يكون أولاده لي، أفعل بهم ما أشاء.

قلت: "أخشى أن يكون هذا العرض هو أقصى ما يمكنني أن أقدمه لك، في حال القبض على سارة بالطبع، الذي أؤكد أنه موضوع أيام قليلة فحسب."

"إذاً لم يعد لدينا أي شيء نناقشه،" قال وانحنى إلى الأمام على عصاه.

قلت: "ثمة قوانين ضد إيواء الآبقين، يا سيد روجيه، وأنا متأكدة من أنك تعلم ذلك، ومساعدة سارة بأي طريقة هي في كل الأشكال غير قانونية، والغرامات عالية جداً، وحالما تعود إليّ سيكون هدفي الإدعاء على أي شخص يثبت تورطه بمساعدتها على الهروب، وأنا لا أظن أنها هربت، أتفهم؟ أنا أظن أنها سُرِقت، فهي لن تقدم أبداً على مثل هذه المخاطرة ما لم تكن قد حصلت على تشجيع أحد ما لا يحترم القانون، شخص تخلى عن واجباته الأخلاقية إلى درجة لا يميز فيها بين الشراء والابتزاز."

نهض السيد روجيه، وقد تجهم بشدة. وبينما كنت أتكلم، أعاد رأسه للخلف كما ليتفادى قوة مناقشتي، حيث تابعت: "وما يحيرني هو كيف وجدت الجرأة كي تأتي إلى هنا وتعرض عليّ أن

Sample

تدفع ثمن ما سرقته. يبدو أنك تعتقد بأن لا شيء يهمني سوى المال. أنا سأدفع مبلغاً من المال لأسترد ما يخصني بالحق والقانون، وسأستردها."

"طاب يومك، سيدة غوديت،" قال. واتجه إلى الباب. فنهضت عن الكرسي لأراقب ذهابه، وقد شعرت بألم شديد معتاد في كتفي عندما أنزلت ذراعي إلى الأسفل على جانبي، لم أتوقع منه أن يتوقف، ولكنه فعل، والتقت عند مدخل الباب، ليدلي بمعلومة هامة، بقوله: "لن تعثري عليها أبداً. لم تعد من أملاكك، ولا أملاك أي شخص آخر، ولن تريها ثانية."

❖❖ ❖❖ ❖❖

قال عمي: "يبدو كلامه كما لو أنه يعني أنها ماتت، أو أنها في مكان ما في كندا." وهو يضع أوراقاً في حقيبة سفر جلدية.

حلّت خالتي عقدة في تطريزها، وقالت: "أو في إنكلترا."

وسألت أنا: "أين السيد لِغيت؟"

"يُفتَرَض أن يكون في نيويورك الآن. كان تقريره الأخير واثقاً بشكل مفاجئ. لديه ما أسماه (الدليل القوي). لن أخبركما كم استغرقت من الوقت حتى عرفت تهجئتها."

قلت: "إذاً هو يظن أنها لم تغادر البلاد."

قال عمي: "لا أعتقد ذلك. أنا أثق بـ لِغيت في قضايا من هذا النوع. وقد تكون ملاحظات روجيه تبجحاً، وعنى فيها أنها ربما تغادر البلاد إذا رفضتِ عرضه، ولكن قد تأخذ المسألة منه

أسابيع ليرتب ممراً لها."

وافقت خالتي: "لن يرسلها إلى الخارج ومن ثم يقدم عرضه. وإلا فما هو غرضه؟"

لاحظ عمي ليس لأول مرة: "ألفا دولار ووالتر ضمناً."

قلت: "لقد أُغويت إلى درجة كبيرة."

قالت خالتي: "كيف يمكنك أن تقبلي؟ كان يقدم لك فدية."

قال عمي: "ليس تماماً، ولكن الأمر يشكل سابقة خطيرة." أغلق المحفظة وقدم نصف انحناءة لي ولخالتي، وأضاف: "سيدتيّ، يجب أن أغادركما."

لحقت به خالتي إلى الباب، ثم قرعت الجرس للخادم، وسألتني: "هل تتناولين شيئاً، بعض الحلوى والقهوة؟

قلت وأنا أتلمس خصري: "فقط قهوة. سيجعلني طبخ دلفين بدينة، هي تقول: لا تستطيع أن تطبخ لشخص واحد."

"الأفضل أن تقدمي عشاءً خفيفاً مرتين في الأسبوع، وتعتمدي على ما يبقى في الأيام التالية."

قلت: "يبدو أنني لن أعرف أي شخص بعد الآن."

"حسن. أنت في جداد الآن. ويفتَرَض بك ألا تزوري الناس، ولكن عندما تخرجين، فستتلقين الدعوات إلى حفلات مختلفة أنا واثقة من ذلك، وعندئذ سيكون عليك التزامات اتجاه مضيفيك."

قلت: "أنت دائماً متفائلة. أنت أكثر شبهاً بأبي وأمي."

قالت: "لقد حاولت أمك أن تتحمل، كما تفعلين أنت."

جاءت القهوة. فكرت في هذه اللحظات التي صبت فيها خالتي

Sample

فنجاناً وقدمته لي. هل أشبه أمي؟ وما أدهشني عندئذٍ أنني تحولت فعلاً إلى أمي. مات زوجي، وأعيش في منزلها، وغدوت بدينة، وأصبح أملي في المستقبل أن أقدم العشاء للناس الذين يشفقون عليّ. قلت: "كان لديها ذكرى عن زواج سعيد على الأقل، أما أنا فلا أملك ذلك."

قالت خالتي: "لا يوجد زواج كامل. كان والداك كغيرهما من الأشخاص."

فكرت بيوميات والدي، "بفشله" الذي اعترف به والذي كان هاماً جداً لأمي التي احتفظت به كسجل لها حتى وفاتها، ثم قلت: "لم يكن من السهل بعث السرور في نفس أمي."

رشفت خالتي قهوتها، لم تحب أن تسمعني أتكلم ضد أمي. وقالت: "لقد كانت سعيدة للغاية عندما كانت شابة، وكانت ذات معنويات عالية." كما اعتاد والدي أن يقول، حتى عزمت على أن تتزوج والدك وعندئذٍ أسماها والدي: "رأس البغل." لقد كانت تحبه بجنون يكفي لأن تذهب معه وتعيش في منزل صغير فقير، دون جيران غير الإيرلنديين والأمريكيين حديثي النعمة. وعندما وُلدت فرحتْ كثيراً، كنت تشبهين أباك كثيراً، شقراء وذات صحة جيدة. لقد كنت طفلة جميلة، فحتى أبي غيَّر رأيه ودعاكم جميعاً للبقاء في عيد الميلاد. وبعد أن ولدت صبيين واحداً تلو الآخر وحصل والدك على فائدة حقيقية من المزرعة، وجدد في المنزل، شعرت أمك بأنها محقة في اختيارها، ثم عاشت سنتين أو ثلاث سنوات سعيدة، وبعد ذلك مات الصبيان واحداً تلو الآخر في غضون

أيام. ربما لا تذكرين ذلك، كان الوباء رهيباً، ولم تكوني قد بلغت السادسة.

قلت: "إنني أتذكر الجنازة، على الأقل، أتذكر أن السماء أمطرت وأبي بكى."

قالت خالتي: "لقد تحطم، بالطبع، أي أب لن يفعل ذلك؟ غير أنه سمح لحزنه الشديد أن يؤثر على رجاحة عقله."

لقد حيرني ما سمعت، فأنا أذكر أن أبي كان أعقل الرجال. ولذا سألتها: "بأي معنى؟"

تناولت خالتي قطعة ثانية من الحلوى ومضغتها ببطء وعندما بلعتها مسحت شفتيها بالمنديل، وهي تحدق إليّ باهتمام. "غدا مهووساً بالزنوج. وقد أرجعت أمك السبب إلى أن أبي لم ينشأ مع أحد. وكتب البحث تلو الآخر عن كيفية إدارة الزنوج. وحاول أن ينشرها، وقد أخذت مجلة الـ بلانتر أحدها، ولكنه كان مزحة بمعنى ما، ليثير الرسائل، والتي قال عمك عنها أنها كانت ناجحة تماماً، وجلبت له مبلغاً من المال. كان دائماً يتحدث عن الخلل في المزارع الكبيرة، وأنها إذا طبقت نظامه ستكون ثمة جنة على الأرض. وبالطبع كان دائماً محبطاً عندما يهرب عبيده أو يشربون ويخاطبونه بوقاحة، أو يتمارضون أو يتشاجرون مع بعضهم بعضاً. ثم أجرى تعديلاً على نظامه، الذي كان في جوهره هو النظام نفسه الذي نستخدمه جميعاً العصا والجزرة، ولكنه فكر... حسن، يصعب القول بما فكر به. كان يبدو أنه يفكر بطريقة ما تجعل الزنوج يعتقدون أنه رب ومزرعته هي جنة عدن، وأنهم جميعاً

سيكونون سعداء وممتنين، وكما تعرفين لم يكونوا كذلك قط. أتذكر أنه كان في إحدى الليالي يتحدث عن الزنوج وقد فقد عمك صبره وقال له: "بيرسي، لا يوجد عبيد في الجنة، ولذلك هي جنة. ليس ثمة حاجة للعبيد في الجنة." وقد ضحكت خالتي على هذه الذكرى، التي لم أرها مثيرة للضحك على وجه التحديد.

قلت: "المزارعون جميعاً مهووسون بالعبيد، ما لم يكونوا مثل جويل وغيره من الناس الذين لا يفكرون بهم على الإطلاق."

وافقت خالتي، "ربما، ولكن أمك أخذت تشعر أن والدك يهتم بالعبيد أكثر مما يهتم بعائلته."

قلت مستهجنة: "كان أبي دائم الاهتمام بها."

فكرت خالتي بي للحظة محتارة بنوعية تفكيري، وقالت بتردد مع أنني عرفت أنها عزمت تماماً على إخباري: "وكان ثمة أشياء أكثر من ذلك."

فقلت متسائلة: "نعم؟"

قالت: "أعتقد أن من الأفضل أن تعرفي، فذلك سيساعدك على فهم أمك."

قلت: "إذاً أخبريني."

قالت: "قرر أبوك التوقف عن الإنجاب."

فكرت بهذه المعلومة. وقد صعقتني كشيء أكثر حساسية من أي شيء آخر. وعندما لم أبدِ أي رد، طرحت خالتي الفكرة بطريقة أخرى لتساعدني على الفهم.

"ربما كان من الأفضل القول إنه فقد كل رغبة في أن يكون

لديه المزيد من الأطفال."

قلت مدافعة عنه: "لم يستطع تحمل فقدانهم."

"نعم، كان هذا سببه، أو هذا ما قاله. ولكن أمك كانت ما تزال شابة، وكانت تريد أطفالاً كما لم تفعل أية امرأة، ولكن الأكثر من ذلك، كانت تريد زوجها. وكان هو محباً ولطيفاً ومطيعاً وعاطفياً معها في كل الأشكال، ولكن مهما توسلت." توقفت خالتي هنا وبحثت عن طريقة دقيقة لوصف مشهد قبيح والسماح لي للحظة أن أتخيل توسلات أمي - في سريرهما الزوجي فقد صدّها.

رشفت قهوتي، وأنا أفكر بهذا البوح. إذا كان هذا هو فشل أبي الذي لا يمكن أن يسامح عليه، فلم يبدُ خطيراً بالنسبة لي، ولاسيما بالمقارنة مع زواجي. شعرت تماماً بعين جافة إزاء فكرة بكاء أمي لأن زوجها يدير لها ظهره في السرير.

قلت: "يبدو لي أنه خطؤها كما هو خطؤه."

رمقتني خالتي بحزن، وقالت: "لو أنجبت أطفالاً، لربما تفهمت ذلك."

لقد سبق وسمعت هذا الكلام ولم يفشل أبداً في إثارة سخطي، ولكن كل ما قلته هو: "لا أعتقد ذلك."

وأصرت خالتي: "لقد جعلك هذا الشيء باردة العاطفة."

وقد أزعجني ذلك وآلمني، فقلت: "لو كان لديّ زوج لم يسخط كل الأخلاق والعفة كل يوم في حياته، لربما شعرت بالتعاطف مع زوجة لا تستطع أن تُرضي ذاتها مع رجل صالح."

Sample

زفرت خالتي ملء رئتيها على هذا الرد القاسي، وأعادت قطعة الحلوى التي كادت تلامس شفتيها إلى الطبق، وشذرتني بعصبية، وكما لو أن شخصاً نهض وراء كرسيها قالت: "يجب ألا نذكر الأموات بسوء."

❖❖ ❖❖ ❖❖

أرسل جويل في صباح اليوم التالي أزهاراً مع بطاقة يطلب فيها زيارتي بعد الظهر. وقد تركني حديثي مع خالتي في مزاج قلق، لم أنعم بنوم جيد، وأكلت قليلاً، وشعرت بصداع. كان الجو دافئاً جداً فطلبت من روز أن تفتح النوافذ وتغلق الأباجورات وتطفئ الموقد. غرفتي دون ديكور وهواؤها، نظيف وقد ناسبني ذلك. عرفت أن جويل سيخبرني عن خطبته معتمداً على لطفي ليوفر عليه أي إحساس بعدم الراحة. ولم أكن في مزاج جيد يتسم بالأريحية، وكان صبري يكاد ينفد، وقد فكرت عندما سارت دلفين عبر الغرفة لترد على الجرس، وصرخت: "قفي مكانك!" فقفزت كما لو أن أحدهم قد ضربها.

دخل جويل مبتسماً، ووضع قبعته كما هي عادته على المقعد واستدار نحوي ويداه مفتوحتان كما لو أنه يقدم لي هدية رائعة. كان معطفه جديداً ومفصلاً بطريقة عصرية وقد فاحت منه رائحة الكولونيا وزيت الشعر والقماش الجديد. كان مظهري جدياً بالتأكيد. فتلاشت ابتسامته وحلّ مكانها تعبير عن الاهتمام المبالغ به حيث قال: "ولكنك ما تزالين تعانين، مع أن خالتك

أخبرتني أن توعكك كان عابراً."

قلت: "صحتي جيدة تماماً، وهذا فقط ما أبدو عليه الآن."

"لا،" اعترض، وجلس إلى جانبي على الأريكة، وأضاف: "أنت شاحبة جداً."

قلت: "لم أنم."

"هل استشرت طبيباً؟"

قلت: "لدي شراب للنوم، ولكنني لا أحب أن أتناوله لأنه يجعلني أشعر بأنني كالأموات، والمؤسف أن لعدم النوم التأثير نفسه."

جال جويل بنظره في أرجاء الغرفة ولاحظ، كما ظننت، غياب المنشطات عن طبق الضيافة. وكان ذلك كئيباً بالنسبة له. فأنا لست مضيفة سعيدة، ماذا عليه أن يفعل؟ "ربما ترغبين بالذهاب إلى مقهى الفنانين؟ فكأس من الشمبانيا يمكن أن ينعشك."

ابتسمت قائلة: "لا أعتقد ذلك."

قال: "حسن،" واتكأ إلى الوراء مبتعداً إلى نهاية المقعد وطوى يديه على فخذيه كصبي منزعج من دواء غير مرغوب. وقد أراد أن ينتهي من ذلك ويعود إلى الخارج، ويلعب. وقررت أن أحرره من عذابه.

فقلت: " أخبرتني خالتي ليليا عن خطوبتك إلى الآنسة مكنزي، أرجو أن تقبل تهاني."

تنهد قائلاً: "ظننت أنها فعلت ذلك، وأنها غير موافقة على اختياري."

طمأنته: "ستلين، بمجرد أن تنتقل إلى كاري وتربي أولادك في الكنيسة."

فضحك بلطف واستدار إليّ قائلاً: "لقد بدأت **أليس** تعليمها مع الأب فرانسوا."

أليس، فكرت، أليس بوردن. تعطي انطباعاً كأنها قارب بخاري. قلت: "إذاً أنت مصمم على البقاء في البلدة."

"أوه نعم." نظر إلي نظرة ذات مغزى، وأردف: "ثمة أشياء كثيرة تبقيني هنا."

ماذا، سألت نفسي، ما هو معنى هذه النظرة ذات المغزى؟ لم يكن لدى أحد منا أي وهم بأن تكون لآرائي أي تأثير عليه. أكيد لن أخطر أبداً في بال جويل ليضمني إلى دائرة مغامراته في ملهى **بلو ريبون بولز**، أو ما شابهه التي سوف تتطلب منزلاً صغيراً في رامبارتس حيث يمكنه أن ينسحب من الحياة العامة لمساء كيما تشبع رغباته فتاة خلاسية مستعبدة، تجهل أن تفكر أنها حرة. لا، كانت النظرة ذات المغزى ببساطة للاستعراض، لملاطفة أرملة بائسة مشلولة والتي عليها أن تجد طريقة ما لتعيش على مثل هذه المظاهر. فكرت أنا مرهقة إلى درجة الموت من هذا المظهر العبثي المزيف ومع هذا قلت: "أنا سعيدة. لا بد سأشتاق لزياراتك."

"إذاً أنت تسامحيني،" قال بجدية.

قلت: "ليس ثمة شيء لأسامح عليه."

لاءمه هذا الجواب جيداً فاندفع ليخرج نفسه من هذا الموقع كحصان شمَّ رائحة حظيرته. "أنا أخطط لأشتري منزلاً كبيراً،

الأكبر الذي أستطيع أن أجده لأقدم سلسلة حفلات غداء ورقص. فكما أوضحت لـ أليس أنا مدين لكل شخص في البلدة. سوف نجلب الخمر على متن مراكب كبيرة."

قلت: "سيكون ذلك ساراً جداً."

وافق: "سيكون كذلك." وتناول يدي كما لو يقودني إلى مستقبل سعيد سوف نتشاطره معاً. وقال: "كم سأشعر بالخلاص عندما يكون معي نقود، فأنا مرهق جداً لأنني مدين."

أما أنا فكنت أشعر على نحوٍ غير مريح بيدي تتضغط بين يدي جويل، وفيما كان يتكلم دلك ظاهر معصمي بإحدى أصابعه. وقد كانت ذراعي المصابة. كنت أستطيع أن أرفع أصابعي، ولكن لم يكن يمكنني أن أسحبها دون مساعدة يدي الأخرى. ولم أكن مهتمة قط بالولوج إلى مخيلة جويل حول مستقبله السعيد، وكان اسم أليس قد غدا مضجراً بالنسبة لي. طبعت ابتسامة بلهاء على وجهي عندما كان جويل يثرثر، ولكنني كنت أفكر بكآبة أن خالتي كانت محقة، فقلبي كان بارداً.

ولكنها كانت مخطئة أيضاً، فلم يكن عدم وجود أطفال هو سبب برودته، بل بسبب الكذب الذي يوجد في قلب كل الأشياء، الكذب الكبير الذي نسانده جميعاً ونميل إليه ونعبده، كما لو أن حياتنا تعتمد عليه، وكما لو أنه، إذا كان على شخص أن يتكلم بصدق يوماً فسوف يتصدع العالم ويرسلنا جميعاً إلى هوة مشتعلة. كان مستقبلي مظلماً وصغيراً بقدر ما كان مستقبل جويل رحباً ومشرقاً، ومع ذلك كان واجبي أن أتظاهر بأنني لا

أعرف شيئاً عن ذلك. هل يوجد رجل ذو ثروة كريه بالنسبة لنساء أخريات إلى درجة يضطر لأن يقبل بي؟ وإذا حدثت هذه المعجزة، كما توهم خالتي نفسها بأنها ربما تحدث، ألن يُفهَم من ذلك أن عليّ أن أبقى صامتة كما ستفعل أليس مككنزي بالتأكيد، بينما يبحث زوجي عن سلوى، بسبب عدم كفاءاتي في السرير، لدى محظية خلاسية ما؟ والمرأة الوحيدة التي عرفتها والتي لم تكن لتتحمل افتتان زوجها بهذه المخلوقات، التي يصطفونها لمتعتهم الخاصة، هل كانت أمي، والآن تبيَّن لي أن سبب ذلك هو أن أبي كان إلى حد ما يفتقر إلى الحافز للإنجاب. لقد رفض أن يجلب المزيد من الأطفال السود أو البيض أو الخلاسيين إلى هذا الجحيم حيث يكون عليهم أن يرضعوا الكذب مع حليب أمهاتهم.

ولكن ليس حليب أمهاتهم، صححت نفسي. ربما كانت تلك الطريقة التي دخل السم عبرها إلينا جميعاً، لأنه حتى الخلاسيات كان من العبث أن يرضعن أولادهن وينقلنهم إلى خادم ما. تذكرت أنني كنت أتفرج إلى سيلست وهي ترضع أخي من أحد ثدييها وابنها الأسود من الثدي الآخر بينما أمي كانت تنظر إلى ذلك بالموافقة."

أبداً، فكرت، ليس أنا. فلتملك أليس مككنزي منزلاً مليئاً بأطفال جويل يصرخون. ذلك أفضل لها مني. أما أنا فسوف أتمسك باستقلاليتي مثل شخص يتمسك بطوف خلال إعصار. هذا هو الأكثر أماناً لي من أن أغرق في بحر من الأكاذيب.

وفي النهاية وصل جويل إلى نهاية ملحمته العاطفية وبدأ يخشى

من أنه يتعبني، فأطلق يدي ووقف ليغادر قائلاً: "مانُن، عليك أن تعتني بنفسك،" وهو ينظر إلى الغرفة بقلب منفطر، وأضاف: "لا تغلقي على نفسك هنا في الظلام."

فقلت: "لن أفعل." ونهضت لأرافقه إلى الباب.

"أريد أن تستعيدي صحتك، فأنا أرغب أن أراك ترقصين في عرسي."

لقد جعلتني فكرة الدوران ومعانقة رجال متقدمين في السن بينما يدي تتدلى كحيوان ميت إلى جانبي أضحك حقاً، وقلت: "لا، لا، أخشى أن تكون أيام رقصي قد ولّت."

وعندما ذهب أخيراً، انهرت على المقعد منهكة بالكامل. ما كانت أمي لتترك شاباً يذهب بهذا الحجم القليل من الاهتمام، فكرت، ولكنني لم أهتم. واستقرت عيناي على صورة والدي، والتي طالما كانت مصدر راحة لي غير أن الغريب لم يكن لها أي تأثير أكثر من شبهها بغريب في نافذة متجر. كان أبي صادقاً، لقد جمّله الفنان الذي رسمه، لم يكن فكه بهذه القوة ولم تكن عيناه بهذا الصفاء.

فكرت بيومياته، وتلك الموضوعات الملة عن القطن والمناخ والأمراض، ولا إشارة إليّ، كما لو أنني لم أكن موجودة أو أنه كان يرغب ذلك، وذكره الإلزامي لأمي باسم "زوجتي العزيزة،" في سياق حديثه عن "فشله" والذي قبل اللوم عليه بنُبل.

لا، فكرت، لم يكن فشله هو رفضه تقديم واجباته الزوجية وإنجاب المزيد من الأطفال من أجل المذبحة العامة، مع أنه كان

عَرَضاً لا مراء في ذلك. لقد كان هناك أمر آخر، شيء عرفته أمي ولم تكشفه أبداً، شيء حمله معه دائماً، وأخذه معه، شيء ما خلف ابتسامته وحبوره الزائف واستعراض مشاعر كان واضحاً أنه لا يملكها. لقد تظاهر بأنه أب محب، وزوج مخلص ولكنه لم يكن معنا، ولم يكن حبنا ما يطلبه، هو لم يكن يشتاق لنا كما كنا نشتاق إليه.

لقد كان محتالاً.

لقد قبلني قبلة المساء في الليلة التي مات فيها كما فعل آلاف المرات سابقاً، لا شيء كان يمنعها عنه عندما كان يمكنني أن أجده في الصباح وهو يومئ إلى أمي فوق وعاء القهوة. وقد عرف أنني لن أراه أبداً ثانية، ومع ذلك لم يتعب نفسه في أن يغادرني بكلمة تشجيع إضافية، بتباطؤ في القبلة، بتمديد لحظة الحنان، بأي شيء يمكنني أن أتشبث به كدليل على أنه نادم على فراقي، وبأنني أشكّل في حياته شيئاً أكثر أهمية من معزقة أو عبد مريض يعمل في حقله، والذي، بعد كل شيء، أشار إليه في مذكراته.

كانت خالتي محقة، فقد كان مسكوناً بمشكلة العبيد، أراد منهم أن يعجبوا به، ويعبدوه، وكانت أمي محقة أيضاً: هم قتلوه.

يمكنني أن أرى نفسي، عاطفية جداً ومرعوبة جداً، أبكي مثل حمقاء، وأصرخ له في الرياح الباردة على الرصيف. وعندئذٍ أستدير لأجد ذينك الولدين. هل رأيتهما حقاً؟. واللذين يبدو أنهما

ظهرا من لا مكان ليقولا لي ما لا أحد سيقوله في عالمي أبداً: الحقيقة العارية الصريحة: "أبوك أشعل الحريق، وأطلق النار على نفسه."

إنها الحقيقة، ليس لديهما أي سبب ليخترعا قصة كهذه. كانا مجرد طفلين، يرددان ما سمعا، وقد عرفت أمي ذلك، وهذا ما دمر ما تبقى من حياتها.

مددت يدي إلى الصورة وقلبتها على الطاولة، وقلت: "منافق." كان رأسي ينفجر، وشعرت به كما لو أن طوقاً حديدياً، كالذي رأيته يستخدم لمعاقبة نساء العبيد في الحقل، شُدَّ على جمجمتي. تذكرت مشاهدة زوجي بواسطة المنظار عندما كان يتجول عبر المرج وتتدلى إحدى هذه الأدوات من يده. لقد كان غاضباً لأنه أمسك فتاة جديدة في السرير مع المراقب، مر بـ سارة، التي كانت تطعم الدجاج في الفناء، وتكلم إليها، لم أستطع أن أسمع ما قاله لها، ولكنني حكمت من التقطيبة، التي ارتسمت على جبينها، بأنه شيء مهين. ماذا كان؟

"أنت التالية." سمعت صوته بوضوح حيث كنت أجلس في الغرفة المظلمة أمسك رأسي. لقد مات، قلت في دخيلتي، ولن يعود. ولكن كما لو أنه كان هناك ينحني فوقي ويشد برغي الطوق الحديدي الحار أشد وأشد إلى أن تتفجر جمجمتي بفعل الضغط.

❖❖ ❖❖ ❖❖

عاد الجو بارداً في تلك الليلة، وقد كنت متعبة فتمت جيداً على

الرغم من البرد. وفي الصباح بينما جمعت نفسي لشرب قهوتي، أخذت روز ودلفين تغلقان النوافذ وتضعان الفحم في الموقد. تلاشى صداعي، وشعرت أنني أفضل مما كنت في الأسابيع الماضية. وشرعت أفكر بضرورة أن أعيش بهدوء ودون أوهام.

عندما أُشعلت النار، أخذت فنجاني إلى القاعة وجلست على المقعد، حيث أمكنني أن أسمع المرأتين تتصارعان مع النافذة في غرفة نوم أمي، والقسم الذي بقي في مكانه من النافذة لم يُفتَح بقدر ما أتذكر. تجولت بأفكاري، وطافت عيناي فوق الأثاث المألوف إلى أن استقرتا على مشهد لن أغدو معتادة عليه أبداً: رأيت والتر مستنداً على مدخل الباب يفرك عينيه بقبضتيه. فسألته: "ماذا تفعل هنا؟" كما لو أنه يستطيع أن يعطيني جواباً. فانزل يديه وركض عبر الأرضية ورمى نفسه على قرميد الموقد وأطلق صريراً فرحاً للحرارة، وقبل أن أتمكن من استدعاء روز استدار إلى جنبه ونام.

هو مثل قط، فكرت، يبحث عن الراحة دائماً أو يحدث فوضى، وهو محصن ضد كل الأوامر. غسله أحدهم مؤخراً، وقص شعره في حلقات قصيرة، والذي لمع في ضوء النار مثل أسلاك نحاسية، كانت شفتاه مبللتين وحمراوين. أنا نادراً ما كنت أنظر إليه، ولكنني كنت في مثل هذه الحالة من التشويش في العقل إلى درجة لاحظت فيها أن وجهه أصبح أكبر مما كان في الأشهر السابقة. ومع أنه يملك عيني والده الفاتحتين إلا أنه بدأ يشبه أمه.

أين هي؟ في فيلادلفيا؟ في نيويورك؟ في مدن ضخمة باردة

مكتظة بالأجانب. كم من الوقت سيستغرق السيد لِغيت ليعثر عليها؟ وبأية كلفة؟

دخلت روز تتنقل نظرها من والتر إليّ مرة وأخرى، ثم قالت: ظننت أنه في المطبخ. لقد تسلل عندما كنا نقوم بالإقفال. يريد أن يكون حيث تكونين دائماً."

فكرت هذا صحيح. إنه مفتون بي. فقلت لها: "دعيه نائماً، وقولي لـ دلفين أن تعدّ لي فطوراً كاملاً، فكل ما أكلته أمس هو قطعة خبز وبرقوقة."

❖❖ ❖❖ ❖❖

حلّ الشتاء، وبدأ البرد يتسلل من النوافذ، وينهض من خلال أرضيات المنازل، فحتى السجاد كان بارداً تحت حذائي الخفيف. كنت أُمضي الأصباح في الردهة ألتف بشالاتي، وأوقات ما بعد الظهر في منزل خالتي حيث الموقد كبير كفاية ليتسع قطعاً صغيرة من الجذوع، وفي الليالي أرتجف تحت كومة من أغطيتي، وقد حوّل والتر قيلولة الصباح بالاقتراب من النار إلى طقس، وما أدهش روز ودلفين أنني سمحت له بذلك. وقد كان هناك، يغط نائماً عندما وصلت خالتي بأخبار إلقاء القبض على سارة أخيراً. قالت دون أن تأخذ نفساً وهي تخلع قفازيها: "أتى رجل يدعى فوستر إلينا أمس. وقال إنه وعد السيد لِغيت أن ينقل المعلومات الأكيدة لنا لأنه سيصل قبل البريد. الحمد لله، هل هذا والتر؟"

قلت: "سمحت له أن ينام هناك مرة، والآن هو يريد أن يفعل ذلك

كل يوم. تقول روز إنه يرغب أن يكون حيث أكون دائماً."

تأملت خالتي الصبي الذي التف على جانبه ورأسه على ذراعه، ثم قالت: "ما الأذى الذي يمكن أن يفعله؟ لقد كبر بالتأكيد."

قلت: "إنه يشبه أمه، أين هي؟"

"إنها في سجن في سافانا."

"ولكنني اعتقدت أنها في نيويورك."

"لقد كانت هناك وأحضرها السيد لِغيت إلى سافانا حيث التقى بالسيد فوستر وقدم له وصفاً كاملاً عن رحلاته خلال تناولهما الطعام في نُزُل أمضيا فيه الاثنان ليلتهما. إنها قصة مدهشة." ورمت خالتي معطفها وجلست على الأريكة، وقالت: "تعالي واجلسي معي. وسأخبرك كل ما لديّ. في الحقيقة، أعتقد أن السيد لِغيت فخور بنفسه."

أخبر السيد فوستر خالتي أن سارة صعدت على متن الباخرة المبحرة، **الولايات المتحدة**، بعد أسبوع فقط من مقتل زوجي متخفية كرجل أبيض بـ اسم السيد مايتر برفقة فتاة تخدمه تدعى ميدج، والتي تظاهرت بأن طفل سارة هو طفلها. كان السيد مايتر يضع نظارات سوداء ونادراً ما كان يتكلم مدعياً أن مرضه الذي يسعى إلى معالجته في الشمال جعل حديثه صعباً للغاية. وقد بقي في مقصورته، أما ميدج فكانت دائماً على متن السفينة تتحدث لكل من يصغي إليها وكان حديثها عن سيدها المسكين وعن طبيعة مرضه التي تتغير من يوم إلى آخر. فكر القبطان أن الفتاة جاهلة وسريعة التأثر، وأخبر السيد لِغيت أنه يستغرب من أن رجلاً ضعيفاً

ومميزاً مثل السيد مايتر يستطيع أن يتحمل فتاة طائشة وصراخ طفل في عهدته.

قلت: "مميز؟"

وعقبت خالتي: "يبدو أن سارة تستطيع أن تمثل دور سيد حسن الحضور، فكل من قابلهم السيد لِغيت ركزوا على سلوكه الارستقراطي."

نزل السيد مايتر في سافانا ومكث في نزل على الشط لعدة أيام ينتظر مركباً صغيراً ينقله إلى فيلادلفيا، ومرة ثانية لازم غرفته وخادمه أتعبت الناس في المكان بشرحها مرض سيدها، مرة تقول عينيه، وأخرى قلبه. والطفل يصرخ دون توقف، فظنت صاحبة الدار أنه يعاني من مغص، واستغربت جداً كيف يتحمل رجل محترم أن يرافق أشخاصاً مثل هؤلاء وعندما غادروا، تنفس النزل كله الصعداء.

حجز السيد مايتر على السفينة أتلانتيك كليبر حال وصولها إلى الرصيف غير أن الرياح هبت بشكل غير ملائم واضطرت السفينة أن ترسو لثلاثة أيام، واعتنى القبطان بمسافره حيث كان يعتقد أنه مريض حتى الموت، وحضر له وجبة من المرق والتي قال السيد أنه الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يأكله. وغالباً ما كان يشجع السيد مايتر على الصعود إلى سطح السفينة ليتنفس هواء نقياً، ولكنه لم ينجح.

وعندما وصلوا إلى فيلادلفيا حث القبطان السيد مايتر على أن يقضي ليلة على الشاطئ بينما تقوم السفينة بإنزال حمولتها على

الرغم من أنه حجز إلى نيويورك، ونصحه بأن يحجز غرفة في منزل مجاور. وأخبر القبطان السيد لِغيت بأنه كان يخشى من أن مسافره لن ينهي الليلة عندما أتى إلى ظهر السفينة ورأى أضواء البلدة ، فقد كان السيد مايتر ضعيفاً تشبث بالحاجز وبكى.

لقد بقي حياً تلك الليلة، وعند الصباح رفعوا الأشرعة للإبحار إلى نيويورك، كانت الرياح ملائمة، ومضت الرحلة دون أحداث. وقد شرع السيد مايتر يأكل، ابتعدت خادمته عن المستمعين وتوقف الطفل عن البكاء. وعندما وصلوا إلى نيويورك أعرب السيد مايتر عن امتنانه للقبطان، وقال له إنه أنقذ حياته، ونزل إلى ممر السفينة بخطى ثابتة واستقبله سيد وسيدة كانا يتوقعان مجيئه، دخلوا عربة أجرة ومضوا بعيداً.

وقد ذهب جزء كبير من وقت وجهد السيد لِغيت في مقابلة سائقي عربات الأجرة الذين نقلوا مسافرين من الرصيف في ذلك اليوم. وفي النهاية أُخِذ إلى منزل في بروكلين للسيد والسيدة بالمر. وعندما علم من الجوار أن آل بالمرز من الـ كواكرز عرف أنه وجد طلبه.

فسألت: "وما الـ كواكرز؟"

أوضحت خالتي: "ضرب من جماعة دينية. أعتقد أنها تعارض امتلاك العبيد من أي نوع."

تخلى السيد مايتر عن تتكره عند آل بالمرز وأصبح الآنسة كلوديا بالمر، ابنة عم العائلة الزائرة من الجنوب. بدأ السيد لِغيت عملية مراقبة مستمرة للبيت، وبعد بضعة أيام خرج السيد بالمر في

عربة أجرة مع الخادم ميدج والطفل، ورجع وحيداً ولم يرَ السيد لِغيت أياً منهما ثانية. وفي اليوم التالي شوهد السيد بالمر على الرصيف يسأل عن توفر معبر إلى إنكلترا، وفي اليوم الذي تلاه ذهب إلى مكتب الجمارك وملأ بيانات. ثم لم يحدث شيء لعدة أيام. ونادراً ما كانت الآنسة بالمر تغادر المنزل إلا لكي تتمشى قليلاً مع أبناء عمها. وقد شعر السيد لِغيت باليأس من إمكانية القبض عليها وهي برفقتهم. فأي مشهد عام يمكن أن ينتج عن اعتقال سارة، فقد كان الزنوج الأحرار وآخرون كهؤلاء الـ كواكرز معروفين بمعارضة أعمال الشرطة بعنف إلى درجة لا تستطيع الوثائق الرسمية أن تخدم فيها ويُطلَق سراح السجين. وقد ترقب السيد لِغيت فرصته واستأجر رجلين قويين ليكونا مستعدين عندما يحين الوقت.

وشوهد السيد بالمر على الرصيف ثانية وفي هذه المرة حجز مكاناً وحيداً باسم كلوديا بالمر على السفينة كومودور المتجهة إلى لندن. وعلم السيد لِغيت أن فرصته حانت وأنها ستكون الأخيرة.

فاستدعى رجليه واستأجر عربة مغلقة ووصلوا إلى الرصيف المزدحم في وقت مبكر في صبيحة يوم إبحار السفينة. وهناك قابل الثلاثة ممثلة دفعوا لها وركبت في المقدمة. وعندما وصلت سارة يرافقها السيد بالمر فقط تأكد السيد لِغيت من نجاحه. فأمر أحد رجليه أن يبدأ بإزعاج الممثلة حالما يتقدم الاثنان إلى مدخل السفينة، وقد اعتمد على مبادئ السيد بالمر الدينية أن تصرف انتباهه وكان

محقاً. فاستدار السيد بالمر بعيداً عن مسؤوليته وحاول أن يقحم نفسه في عراك، وفي الحال استدار الاثنان إليه وضرباه بقسوة. وتعالت أصوات طلب المساعدة وتسمرت الأعين على المشهد العنيف، فتوجه السيد لِغيت والرجل الآخر وأحاطا بسارة وأمسكا بذراعيها، وقال لها السيد لِغيت: لقد حان الوقت أن تعودي إلى وطنك، آنسة سارة. صرخت إلى السيد بالمر، الذي لم يكن باستطاعته حتى سماعها بسبب الضجة والفوضى. فاقتادها السيد لِغيت والرجل إلى العربة وأجبراها على الدخول إليها وقادوا العربة بعيداً.

قلت عندما انتهت خالتي: "أنت محقة، إنها قصة مثيرة. وما يدهشني هو كم ستكلفني، حيث أفترض أن علي أن أدفع للفنانة والرجلين القويين."

"يعتقد عمك بأن السيد لِغيت تصرَّف جيداً، فالأرخص أن تدفعي للفنانة من أن تدفعي رشوة لمأمور مركز الشرطة."

فقلت: "وأنا أعتقد ذلك أيضاً."

والسيد لِغيت ينتظر في سافانا ثلاثة هاربين آخرين نُقلوا من السجن في كارولينا الجنوبية. وبعدئذٍ سيجلبهم بصحبة تاجر يملك ستة عبيد آخرين إلى السوق هنا وسيقودهم سيراً على الأقدام براً بأجرٍ رخيص.

فتذمرت: "سيستغرق هذا أسابيع."

قالت: "أجل، سيكون مشياً طويلاً بالنسبة للسيد مايتر."

فنخرت قائلة: "ياله من اسم."

قالت خالتي: "يحذرك عمك من أن سارة قد تكون مختلفة عندما تعود فقد عبرت إلى مرتبة امرأة حرة، وعادة ما تفسد هذه التجربة شخصية الزنجي."

فعلقت: "لقد فعلت أكثر من هذا، وتذوقت حرية لم نعرفها لا أنا ولا أنت."

نظرت خالتي مرتبكة، ثم سألت: "وما هو ذلك."

"لقد سافرت في أرجاء البلد كسيد أبيض حر."

❖ ❖ ❖

ومهما يكن ما وفّره السيد لِغيت بإرسال سارة براً فسرعان ما دُفع للطبيب لاندري، لأنها وصلت ميتة أكثر منها حية. قصوا شعرها قصيراً في مكان ما على الطريق، وبعينيها الغائرتين وخديها وأعضائها العظمية بدت مثل هيكل عظمي. وكانت تعاني من سعال يبقي أهل المنزل يقظين طوال الليل. وفي الطريق عبر المستنقعات تعفنت قدماها وانتشرت منها رائحة كريهة أكثر سوءاً من منظرها. وعندما تأكدت من أن معالجات الطبيب لاندري غير فعالة اقترحت خالتي أن نحضر بيك التي وصلت على الفور مع كماداتها ونقوعها. نصبت قدراً حديدياً للغلي في الفناء أرسل رائحة نتنة إلى كل الجوار. ووضعت سارة على سرير نقال في المطبخ مع نار تشتعل وقدور تغلي ليلاً ونهاراً حتى غدا المطبخ أكثر شبهاً بحمام بخار وقد داخت دلفين من شدة الحرارة واعترض الدكتور لاندري، لكنه نصح بأن الزنوج لا يمكن أن يعالجهم إلا

Sample

زنوج آخرون أحياناً، وهذا ما ثبتت صحته. ولم أحتمل قوله إن والدتي كانت تتبع كل المسكنات التي يقدمها لها مع جرعة من مزيج تقدمه بيك لها. وتدريجياً بدأت سارة تأكل وتلاشى سعالها، وجفت قدماها واكتسبتا قشرة خارجية.

بلغت فاتورة السيد لِغيت مائتين وخمسين دولاراً اعتقدت أنها باهظة، وكان قد فصّلها بالكامل إلى أجرة نقل الممثلة ورسم القيود في سجن سافانا. وقد عزما هو وعمي على أن يجدا طريقة تدين السيد روجيه بمساعدة سارة على الهروب. أراد السيد لِغيت تلك المكافأة، وكان لعمي أسبابه الشخصية.

لم يسعفهم الحظ باقتفاء أثر البطاقات، ولكن لم يطل بهم الوقت حتى علموا أن السيد روجيه كلّف صائد عبيد يدعى بت بإحضار الثرثارة ميدج وكانت مشهورة جداً في الساحل الشرقي لعنايتها الفائقة بصحة السيد مايتر. وبدا أن ميدج وجدت أن الشمال قد ناسبها أكثر فرفضت أن تعود إلى سيدها. فأعلن عمي: "سنتصيده من خلال غطرسته." وغادر السيد لِغيت ليجمع شهادات تحت القسم.

أما طفلة سارة، فلم يبدُ أن ثمة أحداً يعرف شيئاً عما حدث لها. وعندما سألت سارة، سعلت عدة مرات، وقالت بجرأتها المعتادة: "لقد ماتت."

كان عمي مخطئاً. لم تتغير سارة كثيراً. كانت كتومة كما كانت دائماً. وفيما تحسنت صحتها وغدت قادرة على مزاولة عملها ثانية، مارست عملها دون أي تعليق أو اهتمام، وكانت

أكثر كفاءة من معظمهم، وبالتأكيد أفضل من روز التي تتمتع بسلوك جيد. فلا أحد يستطيع أن يصفف شعري مثلما تفعل، ولا آن يهتم بملابسي أو يرتب الغرف. واستمرت تقدم الأدلة على كرهها لوالتر.

ففي أحد الأصبحة، عندما كانت تعد فطوري دخل والتر وبدأ يشد تنورتها بفظاظة، ويطلب أن تحمله وتضمه كما كانت روز تفعل. وضعت سارة وعاء القهوة، وصفعته براحة يدها على وجهه ودفعته بعيداً بخشونة، فركض وهو يصرخ من الغرفة.

سألتها: "هل يذكرك بأحد ما؟" فحظيت بإحدى نظرات اشمئزازها المستترة القصيرة. وتناولت وعاء القهوة وانحنت فوقي لتملأ كوبي.

قلت: "إنه مسؤوليتك أكثر من كونه مسؤوليتي. يعلم الله أني لم أطلبه ولكنه موجود." فذهبت إلى البوفية ثم وقفت وظهرها إليّ تقطع الخبز غير مكترثة كالسكين التي في يدها.

وتابعت: "ليس التكلم عن المسؤولية مجدياً معكم، ليس لديكم أي شعور بها، هذه هبة نقدمها لكم جميعاً. فأنتم تهربون ونحن نعيدكم وأنتم لا تملكون أبداً أي إحساس بالضمير، لم يتسنَّ لأحد أن يراكم مسؤولين عن أفعالكم. فالمسلَّم به أنكم لا تملكون إحساساً أخلاقياً بكل ما للكلمة من معنى."

وضعت ملعقة من جبنة الكريول بجانب قطعة الخبز وأحضرتها لي. وضعت يدي اليمنى على الصحن لأمسك قطعة الخبز ثم أخذت السكين ومددت الجبنة عليها، وقلت لها: "الفضل لك لأنني

مشلولة، انظري إليّ كيف يجب أن آكل." فوقفت جانباً، تراقب باهتمام.

قلت: "لو لم تسبقيني إلى الحصان."

كانت المرة الأولى التي أتحدث إليها عن تلك الليلة على الرغم من أنني حلمت بها كثيراً. كنت أركض وأركض والحصان كان هناك، أود الوصول إليه وحسب. غير أن أحداً كان يشدني إلى الوراء، هو زوجي تارة، وسارة ثانية، ورجل لا أعرفه ثالثة. وذات مرة استدرت لأرى أمي تنشب أظفارها بوجهي، وقد كشّرت عن أسنانها مثل حيوان مفترس. وكنت أستيقظ من تلك الأحلام مبللة بالعرق وقلبي يخفق بسرعة إلى درجة الألم.

وقفت سارة تراقبني وقد شدت يديها عند خصرها، وتصغي إليّ، كما ظننت، الأمر الذي منحني إحساساً غريباً.

قلت: "عرفت أن زوجي قد مات. ولم يكن هناك أي سبب لتهربي، فلم يكونوا ليقتلوك." أخذت مضغة خبز ونظرت إليها وأنا أمضغها، فحدقت إليّ بفضول كما لو أنها تتساءل عما سأقول بعد ذلك.

قلت: "بل خططت الأمر مع السيد روجيه، أليس كذلك؟ لقد سمعتكما تتهامسان هنا في تلك الليلة، رتبتما كل شيء: تخفيك الذكي، وسفينة نقلك، وأصدقاءك الجدد في الشمال، أنا متأكدة من أنهم جميعاً جعلوك تشعرين بأنك مهمة جداً، وضحية مسكينة ضعيفة، ولم يسأل أحد كيف هربت؟ أو من تركت وراءك."

جالت بعينيها بعيداً عني، إلى الصحن على الطاولة، والفنجان بجانب يدي. وتكثفت ابتسامة غريبة تبدو صادرة من الداخل، كالتي تأتي من ذكرى، على شفتيها. ثم قالت: "عندما تذهبين إلى الشمال، يدعونك إلى غرفة الطعام، ويطلبون منك أن تجلسي إلى الطاولة، ثم يقدمون لك فنجان شاي، ويسألونك: (هل تريدين قشدة وشيئاً من السكر؟)"

انبكمتُ. كان أكثر مما سمعته منها يوماً. كان عمي محقاً، فقد تغيرت، وجُنَّت. تناولتُ رشفة من قهوتي، وسألتها: "هل أعجبك ذلك؟"

فقالت وهي ترفع عينيها ببرود نحو عينيّ: "أجل، أعجبني."

تمعنت في هذه الصورة لـ سارة. تلبس ثياباً مستعارة، وتجلس بطريقة رسمية على طاولة خشب غير مزخرفة فيما امرأة أمريكية شمالية لا لون لها، ذات شعر خفيف ربطته بإحكام إلى الخلف، تقدم لها الشاي في كوب من الصيني، والزوج المنصف يجلب مسنداً ليدع ضيفه يشعر بمزيد من الراحة. وقد أذهلني ذلك كشيء يثير الضحك تماماً. ماذا يعتقدون أنهم يفعلون بحق السماء؟

«النهـــــاية»

هذا هو الشيء الوحيد الذي نرغب بأن يُفهم، ويُذكر- أن دستور هذه الولاية الذي أوجد مزرعة توم وديك وهاري - هو الذي أوجد مزرعة بولي ونانسي ومولي ، وسواء كانت تلك المزرعة شراً أو لعنة، أو شيئاً غير ذلك، فنحن نريد أن نمتلكها.

- رسالة من أ. ب. سي. في هاليفاكس سيتي
إلى ريتشموند ويغ
في ٢٨ كانون الثاني عام ١٨٣٢

من إصدارات دار السوسن

عنوان الكتاب	تأليف	ترجمة
❖ العلاج بالتدليك	مجموعة مؤلفات	د. رندة بعث
❖ بقايا يوم (رواية)	كازو إشيغورو	هند البهلول
❖ الحريم الفرويدي	بول روزن	د. ثائر ديب
❖ أصداء الحب (رواية)	آن فيليب	عبد القادر نابلسي عبّاس عبّاس
❖ وداع سيدوني (رواية)	إريش هاكل	د. مازن المغربي
❖ الطب البديل	قسطنطين سيلتشينوك	د. عادل حسن اسماعيل
❖ الماركسية والديمقراطية	مجموعة باحثين	رندة بعث
❖ العولمة والإمبريالية	مجموعة باحثين	رندة بعث
❖ أفراح صغيرة أفراح أخيرة (رواية)	د. هيفاء بيطار	
❖ الساقطة (قصص)	د. هيفاء بيطار	
❖ قبو العباسيين (رواية)	د. هيفاء بيطار	
❖ موت مشتهى (رواية)	عماد شيحة	
❖ يا صاح... اين بلادي	مايكل مور	عماد شيحة
❖ أمي مرآتي (بحث الابنة عن هوية)	نانسي فرايدي	راتب شعبو تيسير حسون
❖ النعنع البري (رواية)	أنيسة عبود	
❖ ركام الزمن (رواية)	أنيسة عبود	
❖ أصحاب الجلالة – الاهرامات	ف. زاماروفكسي	د. هاشم حمادي
❖ خطيئة الآخرين (رواية)	هنري هاردل	ناديا شومان
❖ بريجيت (رواية)	ليندا ليل ميلر	هند بهلول
❖ قصر الدموع (رواية)	أليف كروتييه	أميمة البهلول
❖ الأطماع الخارجية في المياه العربية	أيمن البهلول	
❖ قلق الكيان الصهيوني	أيمن البهلول	

Sample